موسوعة الخطب المنبرية

علامات القيامة الصغرى و الكبرى

لا غنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطباء




منتدى إقراء الثقافي



موسوعة الخطب المنبرية

علامات الساعة الصغرى و الكبرى

سلسة خطب الجمعة و العيدين و الدار الآخرة و علامات الساعة الصغرى و الكبرى

لاغنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطاب

المجموعة الثالثة

الجزء الثالث

تأليف

سعد يوسف محمود أبو عزيز

دار التوفيقية للتراث

الخطبة الثامنة عشر بعد المائة:

وجوب الإيمان بأشراط الساعة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الإيمان بأشراط الساعة واجبٌ؛ لأَنَّهُ من صُلب العقيدة؛ قال تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، أي: علامتها وأمارتها.

ولكن ينبغي أن نعلم أن علم الساعة عند ربِّنا تبارك وتعالى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي

نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال تَعَالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٦].

وَلَـمَّا سأل جبريلُ عَلَيْهِ السَّلام النَّبيَّ ﷺ عن السَّاعة قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «مَا المسئول عَنْهَا بأعلم مِن السَّائل»[1].

عباد الله ...

وقبل أن نتحدَّث عن أشراط السَّاعة الصغرى والكبرى، يجب أن نعلم: أن كُلّ ما صحّ عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ أخبر بوقوعه، فالإيمان به واجبٌ عَلَى كل مسلم، وذَلِكَ من تحقيق الشهادة بأنه رَسُول الله؛ وقَدْ قَالَ الله تَعَالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤].

قال الإمام أحمد -رَحِمَهُ الله -: كلَّما جاء عن النَّبيّ ﷺ إسناد جيِّد، أقررنا به، وإذا لم نقرّ بما جاء به الرسول ﷺ ودفعناه ورددناه، رددنا عَلَى الله أمره، قال الله تَعَالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال الموفق أبو مُحَمَّد المقدسيّ في كتابه «لمعة الاعتقاد»: «ويجب الإيمان بكل ما أخبر به رَسُول الله ﷺ، وصحّ به النقل عنه فيما شهدناه أَوْ غاب عنَّا، نعلم أَنَّهُ حقٌّ وصدقٌ، وسواء في ذَلِكَ ما عقلناه وجهلناه ولم نطَّلع عَلَى حقيقة معناه، مثل: حديث الإسراء والمعراج، ومن ذَلِكَ أشراط الساعة، مثل: خروج الدجَّال، وخروج الدَّابة، وطلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذَلِكَ مِمَّا صحَّ به النقل» ا.هـ.

هذا؛ وليس التواتر في الإخبار عن المغيبات شرطًا لوجوب الإيمان بها، كما قَدْ زعم ذَلِكَ بعضُ أهل البدع ومَن تبعهم من المتفقِّهة المقلِّدين وغيرهم من جهلة العصريين وزنادقتهم، بل كل ما صحّ سندُه إلى النَّبيّ ﷺ، فالإيمان به واجب، سواء كان متواترًا أَوْ آحادًا، وهذا قول أهل السُّنَّة والجماعة.

---

(١) جزء من حديث طويل، رواه مسلم.

وقَدْ قال الله تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

فأمرَ الله تبارك وتعالى بالتثبّت في خبر الفاسق، لأَنَّهُ محتمل للصّدق والكذب، فلا يسارع إلى تصديقه، خشية أن يكون كاذبًا، ولا يسارع إلى تكذيبه، خشية أن يكون صادقًا، وبالتثبت تنجلي حقيقة خبره.

ومفهوم **الآية الكريمة** دالٌّ عَلَى قبول خبر الواحد العدل من غير توقّف فيه.

ويدلّ عَلَى ذَلِكَ أيضًا قول الله تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْـهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

قال القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - فِي تفسيره: «فيه دليلٌ عَلَى وجوب العمل بقول الواحد، لأَنَّهُ لا يجب عليه البيان؛ إلَّا وقَدْ وَجَبَ قبول قوله، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ فحكم بوقوع البيان بخبرهم» ا.هـ.

وهذه الآية نظائر من القرآن تدلُّ عَلَى ما دلّت عليه من وجوب العمل بقول الواحد.

ويدلّ عَلَى ذَلِكَ أيضًا، قول النَّبيّ ﷺ: «**بلِّغوا عنِّي ولو آية**»[1].

والأمر بالتبليغ يعمُّ الواحد فما فوقه، وهذا يدلّ عَلَى وجوب العمل بأخبار الآحاد.

ويدلّ عَلَى ذَلِكَ أيضًا قوله ﷺ: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثاً فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»[2].

وهذا يدلّ عَلَى قبول خبر الواحد.

وقَدْ كان رَسُول الله ﷺ يبعث رسله آحادًا، ويرسل كتبه مع الآحاد، ولم يكن المُرسَل إليهم يقولون: لا نقبل أخبارهم لأنَّها أخبار آحاد.

وقَدْ قبل النَّبيُّ ﷺ خبر تميم الداري عن الدَّجَّال، وروى ذَلِكَ عنه عَلَى المنبر، كما

---

(١) رواه أحمد والبخاري وغيرهما.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم.

ثبت ذَلِكَ فِي «صحيح مسلم» وغيره.

وقَدْ كان الصحابةُ رضي الله عنهم يعملون بأخبار الآحاد من الثقات، ولَـمَّا حُوِّلت القبلة إلى الكعبة خرج رجلٌ مِمَّن صلَّى مع النَّبيّ ﷺ فمرّ عَلَى أهل قُباء وهم يُصلّون فقال: «إنَّ رَسُول الله ﷺ قَدْ أنزل عليه الليلة قرآن، وقَدْ أُمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها» وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة[١].

فهؤلاء أهل قُباء قبلوا خبر الواحد العدل وعملوا به وأقرّهم النَّبيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ أبو البركات ابن تيمية: «هو حُجة في قبول أخبار الآحاد»، وكذا قَالَ غيره من المحققين. ا.هـ[٢].

عباد الله ...

وقَدْ صنَّف الشيخ الألباني - رَحِمَهُ الله - رسالة في «وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة، والرد عَلَى شبه المخالفين» قَالَ فيها - ما مختصره:

«ذهب بعضُهم إلى أَنَّهُ لا تثبت العقيدة إلَّا بالدليل القطعيّ، بالآية أو الحديث المتواتر تواترًا حقيقيًّا، إن كان هذا الدليل لا يحتمل التأويل، وادعى أن هذا مِمَّا اتَّفق عليه عند علماء الأصول، وأن أحاديث الآحاد تفيد العلم[٣] وأنها لا تثبت بها عقيدة[٤].

وأقول: إن هذا القول، وإن كنا نعلم أَنَّهُ قَدْ قَالَ به بعض المتقدمين من علماء الكلام، فإنَّهُ منقوض من وجوه عديدة:

الوجه الأول: أَنَّهُ قول مبتدع محدث، لا أصل له في الشريعة الإسلامية الغراء، وهو غريب عن هدي الكتاب وتوجيهات السنة، ولم يعرفه السَّلف الصَّالح رضوان الله تَعَالَى عليهم، ولم ينقل عن أحد منهم، بل ولا خطر لهم عَلَى بال، ومن المعلوم المقرر في

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «إتحاف الجماعة» للتويجري (١/ ٦ - ١٠) باختصار.

(٣) **قلت:** ومعنى ذَلِكَ عندهم أَنَّهُ يمكن أن يكون كذبًا أَوْ خطأً.

(٤) ومِمَّا ينبغي أن ينتبه له أن المراد بحديث الآحاد: الحديث الصحيح، ولو جاء من عدة طرق صحيحة، لكنها لم تبلغ درجة التواتر، فمثل هذا الحديث يرده هؤلاء ولا يقبلونه في العقيدة.

الدِّين الحنيف: أن كل أمر مبتدع من أمور الدِّين باطلٍ مردود، لا يجوز قبوله بحال، عملًا بقول النَّبيّ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» متفقٌ عليه، وقوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ» رواه أحمد وأصحاب السنن والبيهقي، وعند النسائي والبيهقي: «وكل ضلالة في النَّار» وإسناده صحيح.

وإنَّما قَالَ هذا القول جماعة من علماء الكلام، وبعض من تأثر بهم من علماء الأصول من المتأخرين، وتلقاه عنهم بعضُ الكُتَّاب المعاصرين بالتسليم دون مناقشة ولا برهان، وما هكذا شأن العقيدة، وخاصة مَن يشترط لثبوتها القطعية في الدلالة والثبوت.

الوجه الثاني: أن هذا القول يتضمن عقيدة تستلزم رَدّ مئات الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النَّبيّ ﷺ لمجرد كونها في العقيدة، وهذه العقيدة هي أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة، وإذا كان الأمر كَذَلِك عند هؤلاء المتكلمين وأتباعهم فنحن نخاطبهم بما يعتقدونه، فنقول لهم: أين الدليل القاطع عَلَى صحة هَذِهِ العقيدة لديكم من آية أو حديث متواتر قطعي الثبوت، قطعيِ الدلالة أيضًا، بحيث أَنَّهُ لا يحتمل التأويل.

وقَدْ يحاول البعض الإجابة عن هذا السؤال فيستدل ببعض الآيات التي تنهى عن اتِّباع الظن، كقوله تَعَالَى في حق المشركين: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨]، ونحوها.

وجوابنا عَلَى ذَلِكَ من وَجهين:

١- أن الَّذِي أنزلت عليه هَذِهِ الآية وغيرها هو الَّذِي أُنزلت عليه الآيات الأخرى التي تأمر الأفراد والجماعات بنقل العلم، كقوله تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، والطائفة تقع عَلَى الواحد فما فوقه في اللغة، فأفادت الآية أن الطائفة تنذر قومها إذا رجعت إليهم.

والإنذار: الإعلام بما يفيد الكلام، وهو يكون بتبليغ العقيدة وغيرها مِمَّا جاء به الشرع.

وكقوله تَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ [الحجرات: ٦]، وفي القراءة الأخرى ﴿**فتثبتوا**﴾، وهذا يدل عَلَى الجزم والقطع بقبول خبر الواحد الثقة، وأنَّهُ لا يحتاج إلى التثبت، ولو كان خبره لا يفيد العلم لأمر بالتثبت حَتَّى يحصل العلم.

فدل هذا وأمثاله عَلَى أن خبر الواحد يفيد العلم، فلا يجوز إذًا استدلالهم بالآية المذكورة عَلَى ما زعموا، لكي لا يضرب بها الآيتان الأخريان، بل يجب أن تفسر تفسيرًا يتفق معهما، كان يقال: المراد بالظن فيها: الظن المرجوع الَّذِي لا يفيد علمًا، بل هو قائم عَلَى الهوى والغرض المخالف للشرع، ويوضح ذَلِكَ قوله في آية أخرى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى**﴾ [النجم: ٢٣].

٢- لو كان هناك دليل قطعي عَلَى أن العقيدة لا تثبت بخبر الآحاد كما يزعمون لصرح بذلك الصحابة.

الوجه الثالث: أن هذا القول مخالف لجميع أدلة الكتاب والسنة التي نحتج نحن وإياهم جميعًا بها عَلَى وجوب الأخذ بحديث الآحاد في الأحكام الشَّرعيَّة، وذَلِكَ لعمومها وشمولها لما جاء به رَسُول الله ﷺ عن ربه، سواء كان عقيدة أو حكمًا، وقَدْ سبق ذكر بعض الآيات الدالة عَلَى ذَلِكَ في الوجه الثاني، وقَدْ استوعبها الإمام الشافعي - رَحِمَهُ الله تعالى- في كتابه «الرسالة» فليراجعها من شاء، فتخصيص هَذِهِ الأدلة بالأحكام دون العقائد تخصيص بدون مخصص وذَلِكَ باطل، وما لزم منه باطل فهو باطل.

الوجه الرابع: أن القول المذكور، ليس فقط لم يقل به الصحابة بل هو مخالف لَـمَّا كانوا عليه رضي الله عنهم، فإننا عَلَى يقين أنهم كانوا يجزمون بكل ما يحدث به أحدهم من حديث عن رَسُول الله ﷺ ولم يقل أحد منهم لمن حدثه عن رَسُول الله ﷺ: خبرك خبر واحد لا يفيد العلم حَتَّى يتواتر!! بل لم يكونوا يعرفون هَذِهِ الفلسفة التي تسربت إلى بعض المسلمين بعدهم من التفريق بين العقائد والأحكام في وجوب الأخذ فيها بحديث الآحاد، بل كان أحدهم إذا روى لغيره حديثًا في الصفات مثلًا تلقّاه بالقبول، واعتقد تلك الصِّفة عَلَى القطع واليقين، كما اعتقد رؤية الرّبّ وتكليمه ونداءه يوم القيامة بالصّوت الَّذِي يسمعه البعيد كما يسمعه القريب، ونزوله إلى السماء الدُّنْيَا كل ليلة.

الوجه الخامس: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**بلِّغوا عنِّي ولو آية**»[١]، ومعلوم أن البلاغ هو الَّذِي تقوم به الحجّة عَلَى المبلغ، ويحصل به العلم، فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم لم يقع به التبليغ الَّذِي تقوم به حجّة الله عَلَى العبد، فإن الحجة إنَّما تقوم بما يحصل به العلم، وقَدْ كان رَسُول الله ﷺ يرسل الواحد من أصحابه يبلغ عنه، فتقوم الحجة عَلَى من بلغه، وكذلك قامت حجته علينا مِمَّا بلغنا العدول الثقات من أقواله وأفعاله وسنته، ولم لم يفيد العلم لم تقم علينا بذلك حجة، ولا عَلَى من بلغه واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو دون عدد التواتر، وهذا من أبطل الباطل.

الوجه السادس: أننا نعلم يقينًا أن النَّبيّ ﷺ كان يبعث أفرادًا من الصحابة إلى مختلف البلاد ليعلِّموا النَّاس دينهم، كما أرسل عليًّا ومعاذًا وأبا موسى إلى اليمن في نوبات مختلفة، ونعلم يقينًا أيضًا أن أهم شيء في الدين إنَّما هو العقيدة، فهي أول شيء كان أولئك الرسل يدعون النَّاس إليه، كما قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ** - وفي رواية: **فَادعِهم إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله** - **فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ...**» الحديث. متفقٌ عليه، واللفظ لمسلم.

فقد أمره ﷺ أن يبلغهم قبل كل شيء عقيدة التوحيد، وأن يعرّفهم بالله عَزَّ وَجَلَّ، وما يجب له وما ينزه عنه، فَإِذَا عرفوا الله تَعَالَى، بلّغهم ما فرض الله عليهم، وذَلِكَ ما فعله معاذ يقينًا، فهو دليل قاطع عَلَى أن العقيدة تثبت بخبر الواحد، وتقوم به الحجة عَلَى النَّاس، ولولا ذَلِكَ لما اكتفى رَسُول الله ﷺ بإرسال معاذ وحده، وهذا بيِّن ظاهر، والحمد لله.

الوجه السابع: أن التفريق بين العقيدة والأحكام العملية، وإيجاب الأخذ بحديث الآحاد في هَذِهِ دون تلك، إنَّما بني عَلَى أساس أن العقيدة لا يقترن معها عمل، والأحكام العملية لا يقترن معها عقيدة، وكلا الأمرين باطل.

قَالَ بعض المحققين: «المطلوب في المسائل العملية أمران: العلم والعمل، والمطلوب في العلميات العمل والعلم أيضًا، وهو حب القلب وبغضه، حبه للحق

---

(١) صحيح: وقَدْ تقدم.

الَّذِي دلت عليه وتضمنته، وبغضه للباطل الَّذِي يخالفها، فليس العمل مقصورًا عَلَى عمل الجوارح، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح وأعمال الجوارح تبع، فكل مسألة علمية فإِنَّهُ يتبعها إيمان القلب وتصديقه وحبه، وذَلِكَ عمل بل هو أصل العمل، وهذا مِمَّا غفل عنه كثير من المتكلمين في مسائل الإيمان، حيث ظنوا أَنَّهُ مجرد التصديق دون الأعمال، وهذا من أقبح الغلط وأعظمه، فإن كثيرًا من الكفار كانوا جازمين بصدق النَّبِيّ ﷺ غير شاكين فيه، غير أَنَّهُ لم يقترن بذلك التصديق: عمل القلب من حب ما جاء به والرضا به وإرادته، والموالاة له والمعاداة عليه، فلا تهمل هذا الموضوع فإِنَّهُ مهم جدًّا، به تعرف حقيقة الإيمان، فالمسائل العلمية عملية، والمسائل العملية علمية، فإن الشارع لم يكتف من المكلفين في العمليات بمجرد العمل دون العلم، ولا في العمليات بمجرد العلم دون العمل»[(١)].

ومِمَّا يوضح لك أَنَّهُ لابُدَّ من اقتران العقيدة في العمليات أيضًا أو الأحكام، أَنَّهُ لو افترض أن رجلًا يغتسل أو يتوضأ للنظافة أو يُصلِّي تريضًا، أو يصوم تَطَبّبًا، أو يحج سياحة، لا يفعل ذَلِكَ معتقدًا أن الله تبارك وتَعَالَى أوجبه عليه وتعبده له، لما أفاده ذَلِكَ شيئًا، كما لا يفيده معرفة القلب إذا لم تقترن بعمل القلب الَّذِي هو التصديق، كما تقدم.

فإذا كُلّ حُكم شرعي عملي يقترن به عقيدة ولابد، ترجع إلى الإيمان بأمر غيبي لا يعلمه إلَّا الله تَعَالَى، ولولا أَنَّهُ أخبرنا به في سنة نبيه ﷺ لِما وجب التصديق به والعمل به، ولِذَلِكَ لم يجز لأحد أن يحرم أو يحلل بدون حجة من كتاب أو سنة، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، فأفادت هَذِهِ الآية الكريمة أن التحريم والتحليل بدون إذن منه؛ كذب عَلَى الله تَعَالَى وافتراء عليه، فَإِذَا كنا متفقين عَلَى جواز التحليل والتحريم بحديث الآحاد، وأننا به ننجو من التقول عَلَى الله، فكذلك يجوز إيجاب العقيدة بحديث الآحاد، ولا فرق، ومن ادَّعى الفرق فعليه البرهان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ودون ذَلِكَ خَرط القَتَاد.

---

(١) «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٢/ ٤٢٠، ٤٢١).

عباد الله ...

ويواصل الشيخ الألباني - رَحِمَهُ الله - كلامه فيقول:

الوجه الثامن: أن طرد قولهم بهذه العقيدة وتبنيها دائمًا يستلزم تعطيل العمل بحديث الآحاد في الأحكام العملية أيضًا، وهذا باطل لا يقولون هم أيضًا به، وما لزم به باطل فهو باطل.

وبيانه أن كثيرًا من الأحاديث العملية تتضمن أمورًا اعتقادية، فهذا رَسُول الله ﷺ يقول لنا: «**إِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي التَّشَهُّد الأخِيرِ فَلْيَسْتَعِذْ باللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**» رواه الشيخان.

ومثله أحاديث كثيرة لا مجال لاستقصائها الآن[١]، فالقائلون بهذا القول إن عملوا به هنا وتركوا العمل بهذا الحديث، نقضوا أصلًا من أصولهم، وهو وجوب العمل بحديث الآحاد في الأحكام، ولا يمكنهم القول بنقضه لأن جل الشريعة قائم عَلَى أحاديث الآحاد، وإن عملوا بالحديث طردًا للأصل المذكور فقد نقضوا به ذَلِكَ القول.

فإن قالوا: نعمل بهذا الحديث، ولكننا لا نعتقد ما فيه من إثبات عذاب القبر والمسيح والدجال.

قلنا: إن العمل به يستلزم الاعتقاد به كما سبق بيانه في الوجه العاشر، وإلا فليس

---

(١) ومنها حديث عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كان يدعو بهذا الدُّعَاء: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لاَ يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لاَ تَنْقَطِعُ وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ». رواه النسائي بإسناد جيد.

فسؤاله تَعَالَى لذة النظر إلى وجهه الكريم والشوق إلى لقائه، لا يتصور وقوعه ممَّن لا يؤمن برؤية الله في الجَنَّة، لأَنَّهُ إذا دعا به فقد سأل ربه بما لا يؤمن به، وإن أعرض عنه عرض عن العمل بحكم عملي ثابت بحديث آحاد عن النَّبِيّ ﷺ، وهو الدُّعَاء بهذا اللفظ فكيفما صنع فقد خالف ما هو ثابت عنه شرعًا، فليحذر هؤلاء أن يكونوا ممَّن يدخل في قوله تَعَالَى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

عملًا مشروعًا، ولا عبادة، وبالتالي فلم يعملوا بأصلهم المذكور، وكفى بقول بطلانًا أَنَّهُ يلزم منه إبطال ما قامت الأدلة الصحيحة عَلَى إيجابه، واتَّفق المسلمون عليه.

الوجه التاسع: أن دعوى اتفاق الأصوليين عَلَى ذَلِكَ القول دعوى باطلة، وجرأة زائدة، فإن الاختلاف معروف في كتب الأصول وغيرها، وبعض الكتاب اليوم إنَّما قلد في ذَلِكَ بعض المعاصرين الذين لا يتثبتون فيما ينقلون، وإلَّا فكيف يصح الاتفاق المذكور، وقَدْ نص عَلَى أن خبر الواحد يفيد العلم؛ الإمام مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وأصحابه كابن حزم(١)، ونص عليه الحسين بن علي الكرابيسي، والحارث بن أسد المحاسبي.

قَالَ ابن خويز منداد في كتاب «أصول الفقه» - وقَدْ ذكر خبر الواحد الَّذِي لم يروه إلَّا الواحد والاثنان - : «ويقع بهذا الضرب أيضًا العلم الضروري، نص عَلَى ذَلِكَ مالك، وقال أحمد في حديث الرؤية: «نعلم أنها حق، ونقطع عَلَى العلم بها».

وقال القاضي أبو يعلى في أول المخبر(٢): «خبر الواحد يوجب العلم إذا صح سنده ولم تختلف الرواية فيه، وتلقته الأُمَّة بالقبول، وأصحابنا يطلقون القول فيه، وأَنَّهُ يوجب العلم، وإن لم تتلقه الأُمَّة بالقبول»، قَالَ: «والمذهب عَلَى ما حكيت لا غير».

وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتبه في الأصول كالتبصرة وشرح اللمع وغيرها، وهذا لفظه في الشرح: «وخبر الواحد إذا تلقته الأُمَّة بالقبول يوجب العلم والعمل، سواء عمل به الكل أو البعض».

ولم يحك فيه نزاعًا بين أصحاب الشافعي، وحكي هذا القول القاضي عبد الوهاب من المالكية عن جماعة من الفقهاء وصرحت الحنفية في كتبهم بأن خبر المستفيض يوجب العلم، ومثلوه بقول النَّبيّ ﷺ: «**لا وصية لوارث**»، قالوا: مَعَ أَنَّهُ روي من طريق الآحاد، قالوا: ونحوه حديث عبد الرحمن بن عوف في أخذ الجزية من المجوس، قالوا: وإنَّما قلنا: ما كان هذا سبيله من الأخبار فإِنَّهُ يفيد ويوجب العلم بصحة مخبره،

---

(١) واحتج له بحجج كثيرة قوية لا تجدها في كتاب آخر من كتب الأصول، فراجع «أحكام الأحكام» له (١/ ١١٩ - ١٣٨).

(٢) لعلّه يقصد كتاب «المجرّد» وهو في الفقه عَلَى مذهب أحمد.

من قبل أنا إذا وجدنا السَّلف قَدْ اتَّفقوا عَلَى قبول خبر هذا وصفه، من غير تثبت فيه ولا معارضة بالأصول، أو بخبر مثله مَعَ علمنا بمذاهبهم في قبول الأخبار والنظر فيها وعرضها عَلَى الأصول، دلنا ذَلِكَ من أمورهم أنهم لم يصيروا إلى حكمة إلا من حيث ثبت عندهم صحته واستقامته، فأوجب لنا العلم بصحته، وهذا لفظ أبي بكر الرازي في كتابه «أصول الفقه» [١].

الوجه العاشر: هب جدلًا أن الاتفاق المزعوم صحيح، ولكنه ليس عَلَى إطلاقه عند الأصوليين بل هو مقيد بما إذا لم يكن هناك ما يشهد له، قَالَ أبو الطيب صديق حسن خان - رَحِمَهُ الله - : «والخلاف [٢] في إفادة خبر الآحاد الظن أو العلم مقيد بما إذا لم يضم إليه ما يقويه، وأما إذا انضم إليه ما يقويه، أو كان مشهورًا أو مستفيضًا، فلا يجري فيه الخلاف المذكور، ولا نزاع في أن خبر الواحد إذا وقع الإجماع عَلَى العمل بمقتضاه، فإِنَّهُ يُفيد العلم، لأن الإجماع عليه قَدْ صيره من المعلوم صدقه.

وهكذا خبر الواحد إذا تلقته الأُمَّة بالقبول، فكانوا بين عامل به ومتأمل له، والتأويل فرع القبول، ومن هذا القسم أحاديث صحيحي البخاري ومسلم [٣]، يعني التي لم يطعن في صحتها وهي الأكثر».

الوجه الحادي عشر: عَلَى أن هذا الاختلاف مسبوق بانعقاد الإجماع المعلوم المتيقن عَلَى قبول هَذِهِ الأحاديث، وإثبات صفات الرب تَعَالى والأمور العلمية الغيبية بها، قَالَ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - : «فهذا لا يشك فيه من له خبرة بالمنقول، فإن الصحابة هم الذين رووا هَذِهِ الأحاديث، وتلقَّاها بعضهم عن بعض بالقبول، ولم ينكرها أحد منهم عَلَى من رواها، ثم تلقاها عنهم جميع التَّابعين من أولهم إلى آخرهم، ومن سمعها منهم تلقاها بالقبول والتصديق لهم، ومن لم يسمعها منهم تلقاها عن التَّابعين كَذَلِكَ، وكذلك تابع التَّابعين مَعَ التَّابعين.

هذا أمر يعلمه ضرورة أهل الحديث كما يعلمون عدالة الصحابة وصدقهم

---

(١) «الصواعق» (٢/ ٣٦٢ - ٣٦٤).

(٢) فأين الاتفاق المزعوم؟

(٣) «حصول المأمول من علم الأصول» (٥٦).

وأمانتهم، ونقلهم ذَلِكَ عن نبيهم ﷺ كنقلهم الوضوء والغُسل من الجنابة وأعداد الصلوات وأوقاتها، ونقل الأذان والتشهد والجمعة والعيدين، فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها، جاز عليهم ذَلِكَ في نقل غيرها مِمَّا ذكرناه، وحينئذٍ فلا وثوق لنا بشيء نقل لنا عن نبينا ﷺ البتة، وهذا انسلاخ من الدين والعلم والعقل، عَلَى أن كثيرًا من القادحين في دين الإسلام، قَدْ طردوه، وقالوا: لا وثوق لنا بشيء البتة، (قَالَ): فهؤلاء أعطوا الانسلاخ من السنة والدين حقه، وطردوا كفرهم وخلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم، وتقسمت الفرق قولهم هذا في رد الحديث»[1].

ثم ذكر أكثر من عشر طوائف وما أنكروه من السُّنة، وهم ما بين مستقل من ذَلِكَ، ومستكثر، ومنهم المفرقون بين أحاديث الأحكام وأحاديث الصفات، فليُراجع تمام كلامه مَن شاء فإِنَّهُ نفيس، ولولا خشية الإطالة لنقلته برمته.

فثبت مِمَّا تقدم أن خبر الآحاد الَّذِي تلقته الأُمَّة بالقبول يفيد العلم فَإِذَا كان كَذَلِك فالعقيدة تثبت به، ولا اعتداد مِمَّن خالف في ذَلِكَ من المتكلمين، لمخالفتهم أدلة الكتاب والسُّنة وإجماع الصحابة ومَن بعدهم من الأئمة» ا.هـ.

وللحديث بقية، ستأتي بعد قليل، إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والوجه الثاني عشر: إن من لوازم هذا القول الباطل: الاقتصار في العقيدة عَلَى ما جاء في القرآن وحده، وفصل الحديث عنه، وعدم الاعتداد بها فيه من العقائد والأمور الغيبية، وفقًا لطائفة من النَّاس اليوم، يعرفون بـ«القرآنيين» لأنهم لا يدينون بالحديث

---

(١) «الصواعق» (٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤).

إطلاقًا إلَّا ما وافق القرآن منه، ولذلك فصلاتهم غير صلاتنا، وزكاتهم غير زكاتنا، وكل عبادتهم غير عبادتنا، وبالتالي فعقائدهم غير عقائدنا، وذَلِكَ يساوي طبعًا أنهم غير مسلمين، فهؤلاء الَّذِينَ أشار إليهم رَسُول الله ﷺ بقوله فيما صح عنه: «**أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَلاَ كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِىَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ**»[(١)].

أقول: أن الَّذِينَ يتبنون هذا القول الباطل، يشاركون هؤلاء الضلال في قسم كبير من ضلالهم وهو الاكتفاء بالقرآن فيما يتعلق بالعقيدة، وهذا وإن كان لأول وهلة يبدو وأَنَّهُ يخالف قولهم المشار إليه، لأَنَّهُ يثبتون العقيدة بالحديث المتواتر، فإنه في الحقيقة لا يخالفه إلَّا في اللفظ لا المعنى.

والتحقيق: أن ذَلِكَ نظري بالنسبة إليهم غير عملي، وإلا فليدلنا هؤلاء الَّذِينَ يتبنون هذا القول عَلَى عقيدة واحدة يعتقدونها بناءً عَلَى حديث متواتر، فإني شخصيًا لا أظن أن أحدًا من علماء الكلام يثبت عقيدة بحديث متواتر، لأنهم من أجهل النَّاس بالأحاديث وطرقها، وأزهد النَّاس في الاشتغال بها وتطلبها كما سبق بيانه، ولذلك نراهم يحكمون عَلَى كثير من الأحاديث بأنها أخبار آحاد، وهي عند أهل العلم بالحديث متواترة» ا.هـ.

عباد الله ...

ومِمَّا تقدم يتبيّن لنا: أن الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة واجب شرعًا، فإذا سمعنا من يذكر بعض أشراط الساعة، فينبغي علينا ردّ قوله، وتحذير النَّاس منه، والله المستعان.

اللَّهُمَّ أرنا الحقّ حَقًّا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مُلتبسًا علينا فَنضلّ.

آمين... آمين... آمين

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٥٠٥)

الخطبة التاسعة عشر بعد المائة:

[١] (أ) علاماتُ القيامة الصغرى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فبداية من هذه الخطبة وما يليها من خُطب - إن شاء الله تَعَالَى - نتحدّث عن **أشراط الساعة (علامات القيامة الصغرى والكبرى)** وأسأل الله تَعَالَى التوفيق.

عباد الله ...

وترتيب العلامات عَلَى حسب ظهورها أمر في رأيي صعب جدًّا، ولكن ينبغي أن نذكر بعض العلامات التي جاء ذكرها في القرآن والسُّنة الصحيحة.

فالمراد: أن كل شيء أخبر النَّبيُّ ﷺ أَنَّهُ سيكون بعده، فوقع الأمرُ فيه طِبق ما أخبر به ﷺ فهو من معجزاته وأعلام نبوته.

وظهور المعجزات بعد زمان النبوّة ولا سيما في هذه الأزمان البعيدة من زمنه ﷺ مِمَّا يزيد المؤمنين إيمانًا به، وتصديقًا بما أخبر به من الغيوب الماضية والغيوب الآتية مِمَّا لم يقع بعد. ا.هـ[١].

هذا، وعلامات الساعة وأماراتها تنقسم إلى قسمين:

الأول: علامات صغرى، منها ما ظهر ومضى، ومنها ما ظهر ولم ينقضي بعد.

والقسم الثاني: **علامات كبرى**، وهذه العلامات لم تظهر بعد.

عباد الله ...

والعلامات الصُّغرى كثيرة:

منها: بعثة النَّبيّ ﷺ.

فَعن أنسٍ رَضِي الله عَنْهُ قال: قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا**». وَقَرَنَ شُعْبَةُ -رَحِمَهُ الله - بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ الْمُسَبِّحَةِ وَالْوُسْطَى يَحْكِيهِ[٢].

وفي رواية: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»[٣].

وعن بُريدة رَضِي الله عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قال: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ جَمِيعاً إِنْ كَادَتْ لَتَسْبِقُنِى**»[٤].

قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - في الفتح (١١/ ٣٥٦، ٣٥٧) ما مختصره: قوله: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ**» المراد بالساعة هنا يوم القيامة، والأصل فيها قطعة من الزمان، وفي عرف أهل الميقات جزء من أربعة وعشرين جزءًا من اليوم والليلة.

قال عياض وغيره: أشار بهذا الحديث إلى قلّة المدة بينه وبين الساعة، والتفاوت إمَّا في المجاورة وإمَّا في قدر ما بينهما.

وقال ابن التين: اختلف في معنى قوله «**كَهَاتَيْنِ**» فقيل: كما بين السبابة والوسطى في

---

(١) «إتحاف الجماعة» (١/ ٦، ٧).
(٢) رواه مسلم (٢٩٥١).
(٣) رواه مسلم (٢٩٥١).
(٤) أخرجه أحمد والطبري، وقال ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٥٦): سنده حسن.

الطول، وقيل: المعنى ليس بينه وبينها نبيّ.

وقال القرطبي في «المفهم»: حاصل الحديث تقريب أمر الساعة وسرعة مجيئها.

وقال البيضاوي: معناه أن نسبة تقدم البعثة النبوية على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الأصبعين على الأخرى، وقيل: المراد استمرار دعوته ﷺ لا تفترق إحداهما عن الأخرى كما أن الأصبعين لا تفترق إحداهما عن الأخرى.

وقال القرطبي في «التذكرة»: معنى هذا الحديث تقريب أمر السَّاعة، ولا منافاة بينه وبين قوله في الحديث الآخر: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**» فإنَّ المراد بحديث الباب أنه ليس بينه وبين الساعة نبي، كما ليس بين السبابة والوسطى أصبع أخرى، ولا يلزم من ذلك علم وقتها بعينه لكن سياقه يفيد قربها وأن أشراطها متتابعة كما قال تَعَالى: ﴿**فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا**﴾ [محمد: ١٨]. **قال الضحاك:** أول أشراطها: بعثة مُحَمَّد ﷺ.

والحكمة في تقدم الأشراط: إيقاظ الغافلين وحثّهم على التوبة والاستعداد» ا.هـ.

عباد الله...

ومن علامات القيامة الصغرى أيضًا: موت النَّبيّ ﷺ:

فعن عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَقَالَ: «**اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ**[١] **يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ**[٢]**، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلاَّ دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ**[٣] **فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ رَايَةً، تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا**»[٤].

وقَدْ ذكرنا - في غير هذا الموضع - كيفية موت النَّبيّ ﷺ، وكان موته أعظم المصائب، وهو من علامات قُرب الساعة، كما تقدم.

---

(١) **المُوتان:** بضم الميم وسكون الواو: هو الموت الجماعي بالوباء والطواعين.

(٢) **القعاص:** داء يأخذ الدّواب فيسيل من أنوفها شيء، فيموت فجأة.

(٣) هم الروم.

(٤) رواه البخاري وغيره.

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: فَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ أَوْ كَشَفَ سِتْرًا[١]، فَإِذَا النَّاسُ يُصَلُّونَ وَرَاءَ أَبِي بَكْرٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا رَأَى مِنْ حُسْنِ حَالِهِمْ رَجَاءَ أَنْ يَخْلُفَهُ اللَّهُ فِيهِمْ بِالَّذِي رَآهُمْ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي**»[٢].

لذا؛ فسنختصر هنا ما بسطناه هناك، وبالله التوفيق:

قَالَ الحافظ ابن رجب - رَحِمَهُ الله -: «لَـمَّا عرّض الرسول ﷺ عَلَى المنبر باختياره اللقاء عَلَى البقاء ولم يصرّح، خفي المعنى عَلَى كثير ممن سمع ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به، ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾ [التوبة: ٤٠]، وكان أعلم الأمة بمقاصد الرسول ﷺ، فلما فهم المقصود من الإشارة بكى، وقال: نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا.

فسكّن الرسولُ ﷺ جزعه، وأخذ في مدحه والثناء عليه عَلَى المنبر، ليَعلم النَّاس كلّهم فضله، فلا يقع عليه اختلاف، فقال: «**إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ**».

لَـمَّا كان الرسول ﷺ خليل الله، لم يصلح له أن يخالل مخلوقًا، فإن الخليل مَن جَرَت محبَّةُ خليله منه مجرى الروح، ولا يصلح هذا لِبشرٍ، كما قيل:

قَـدْ تَخَلَّلْـت مَـسلك الـروح منِّـي وبـــذا سُـمِّي الخلـــيل خلـــيلا

ثم قَالَ ﷺ: «**لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ**».

وفي هذا إشارة إلى أن أبا بكر هو الإمام بعده، ثم أكَّدَ هذا المعنى بقوله: «**مُروا أبا بكر يُصَلِّي بالناس**».

ولهذا قالت الصحابة عند بيعة أبي بكر: رضيه رسولُ الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟!» ا.هـ[٣].

---

(١) كان ذَلِكَ في مرض موته ﷺ.

(٢) **صحيح**: «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٢٦٧).

(٣) «لطائف المعارف» (١٦٨، ١٦٩) باختصار.

كان هذا الموقف أوّل طلائع دُنوّ الأجل، وقُرب الرَّحيل، وكانت هناك مؤشرات عَلَى قرب هذا الوداع «يوم عرفة»، قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى بخمسين يومًا لَـمَّا قَالَ: «**خُذوا عنِّي مناسككم، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا**» ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

ابتداء مرضه:

وتحكي عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا ابتداء مرض النبيّ ﷺ فتقول: «رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جَنَازَةٍ بِالبَقِيعِ وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهْ، قَالَ: «**بَلْ أَنَا والله يَا عَائِشَةُ وَارَأْسَاهْ**»، قالت: ثم قَالَ: «**مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ؟**»، قُلْتُ: لَكَأَنِّي بِكَ وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ، لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ، قَالَتْ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وتتام به وَجَعُهُ، وهو يدور عَلَى نسائه، حَتَّى استعذَّبه[١] وهو في بَيت مَيمُونة، فدعا نساءه، فاستأذَنَهنّ في أن يُمرَّض في بَيتي فَأذِنَّ له[٢].

ولما انتقل النبيُّ ﷺ إلى بيت عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا اشتدّ به وجعه، حَتَّى قَالَ: «**إني أُعَكُ**[٣] **كما يُوعك رَجُلان منكم**»[٤].

ويصف أبو سعيد الخدريّ رَضِيَ الله عَنْهُ شدّة الحُمّى التي أصابت النبيَّ ﷺ فيقول: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ.

قَالَ: «**إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا البَلَاءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الأَجْرُ**».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟

قَالَ: «**الأَنْبِيَاءُ**».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ؟

---

(١) استعذبه، أي: اشتد عليه المرض.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وغيره.

(٣) الوعك: الحمى، وقيل: ألمها.

(٤) رواه البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٣٢٦٦).

قَالَ: «ثُمَّ الصَّالِحُونَ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا العَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ» (١).

وكان من شدّة الحمَّى يجلس في مخْضب ويُصَبّ عليه الماء من سبع قُرَب يَتَبرّد بذلك.

عن عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا: «أنَّ رَسُول الله ﷺ لَـمَّا دَخَلَ بَيْتِي وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ قَالَ: «هَرِيقُوا(٢) عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ(٣) لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ»، فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مِخْضَبٍ(٤) لِحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ القِرَبِ حَتَّى طَفِقَ(٥) يُشِيرُ إِلَيْنَا بِيَدِهِ أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى بِهِمْ وَخَطَبَهُمْ» (٦).

ومِمَّا زاد في مرضه: أَنَّهُ كان قَدْ أكل من الشّاة المسمومة لَـمَّا فتح خيبر، وكان اليهود - عليهم لعائنُ الله - هم الذين دسّوا له السُّم في الشاة لقتله ﷺ، فنجّاه الله من كيدهم وشرّهم، ولكن بقي أثر هذا السُّم حَتَّى ظهر عليه أثره في مرض موته.

عن عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ(٧) الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي(٨) مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ» (٩).

وكان ابن مسعود وغيره يقولون: «إنه ﷺ مات شهيدًا من السُّم».

وفي أثناء مرضه أوصى بأشياء، من هَذِهِ الوصايا:

---

(١) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٦٦).

(٢) هريقوا: صُبّوا.

(٣) الوكاء: الغطاء.

(٤) المخضب: المكان المُعَدُّ للاغتسال.

(٥) طفق: جعل.

(٦) رواه البخاري.

(٧) أي: أحسَ الألم في جوفي بسبب الطعام.

(٨) الأبهر: عِرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إن انقطع مات صاحبه.

(٩) رواه البخاري (٤٤٢٨).

١- النَّهي عن اتخاذ القبور مساجد:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَـمَّا حضرته الوفاة طَفِقَ يُلْقِي خَمِيصَةً عَلَى وَجْهِهِ، فَلَمَّا اغْتَمَّ رَفَعْنَاهَا عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

تَقُولُ عَائِشَةُ: يُحَذِّرُهُمْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعُوا[١].

٢- إغلاق الأبواب المفتحة علَى المسجد إلا باب أبي بكر:

وهو قوله ﷺ: «**لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ**».

٣- إخراج اليهود والنصارى من أرض الجزيرة:

عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْرِجُوا يَهُودَ أَهْلِ الْحِجَازِ وَأَهْلِ نَجْرَانَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ شِرَارَ النَّاسِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[٢].

٤- حُسن الظنِّ بالله تَعَالى:

عَنْ جَابِرِ بن عبد الله قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ تعالى**»[٣].

٥- الصلاة، وملك اليَمين:

فعن أنس رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كانت عامّة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة: «**الصَّلاة وما مَلكَت أيمانكم**». حَتَّى جعل يُغرغر بها وما يفصح بها لسانُه[٤].

٦- وصيته لعثمان بن عفَّان:

فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «**وَدِدْتُ أَنَّ عِنْدِي**

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ١٩٥).

(٣) رواه مسلم وغيره.

(٤) صحيح: رواه النسائي وغيره.

بَعْضَ أَصْحَابِي».

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَدْعُو لَكَ أَبَا بَكْرٍ؟ فَسَكَتَ.

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَدْعُو لَكَ عُمَرَ؟ فَسَكَتَ.

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَدْعُو لَكَ عَلِيًّا؟ فَسَكَتَ.

قُلْنَا: أَلَا نَدْعُو لَكَ عُثْمَانَ؟ قَالَ: «بَلَى».

فَأَرْسَلْنَا إِلَى عُثْمَانَ، فَجَاءَ فَخَلَا بِهِ فَجَعَلَ يُكَلِّمُهُ وَوَجْهُ عُثْمَانَ يَتَغَيَّرُ.

قَالَ قيس: فحدَّثني أبو سهلة مولى عثمان، أنَّ عثمان بن عفَّان قَالَ يوم الدَّار[1]: إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهدًا فأنا صائر إليه.

قَالَ قيس: فكانوا يرونه ذَلِكَ اليوم[2].

٧- استخلاف أبي بكر ليصلِّي بالناس:

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»[3].

٨- وصيته بالأنصار:

عن أنسِ بنِ مالك رَضِيَ الله عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الأنصارَ قَدْ قَضَوُا الذي عَلَيْهِمْ، وبَقِيَ الذي عَلَيْكُمْ، فأَحْسِنُوا إلى مُحْسِنِهِمْ، وتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»[4].

ثم اشتدّ المرضُ به صلوات ربِّي وسلامُهُ عليه حَتَّى كان لا يستطيع أن يُرقي نفسه كما كان يفعل قبل ذَلِكَ.

قالت عائشة: «كَانَ رَسول الله ﷺ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ[5] عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ[6]

---

(١) يعني: يوم أن حاصره الثوّار في داره.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه وغيره، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) صحيح: رواه البيهقي وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (١٥٨٧).

(٥) النفث: هواء نفخ يخرج من الجوف بلا ريق.

(٦) المعوّذات: هي سورة الإخلاص وسورة الفلق وسورة الناس.

وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، طَفِقْتُ[1] أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ رجاء بَرَكَتها، لأن يده أعظَم بركةً مِن يَدي»[2].

وغلبه الشوق لحضور صلاة الجماعة ورؤية الأصحاب، فتحامل عَلَى جسمه المنهوك، وانسلّ إلى المسجد من حجرة عائشة، فصلّى بالناس وهو قاعد.

قال ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا مَرِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ وَجَدَ خِفَّةً فَخَرَجَ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ أَرَادَ أَنْ يَنْكُصَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ يَسَارِهِ وَاسْتَفْتَحَ مِنْ الآيَةِ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْتَمُّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالنَّاسُ يَأْتَمُّونَ بِأَبِي بَكْرٍ[3].

ثم ظلّ أبو بكر يصلِّي بالناس الأوقات طوال فترة مرض النبيّ ﷺ.

واجتمع نساء النبيّ ﷺ عند الرسول ﷺ لَـمَّا شعرن بدنوّ أجله، فلم تغادر منهنّ واحدة.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «اجْتَمَعْنَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي». ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَاطِمَةُ ثُمَّ إِنَّهُ سَارَّهَا فَضَحِكَتْ أَيْضًا، فَقُلْتُ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ قَالَتْ: مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ. فَقُلْتُ لَهَا: حِينَ بَكَتْ أَخَصَّكِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ دُونَنَا ثُمَّ تَبْكِينَ وَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ.

فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا قُبِضَ سَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُنِي أَنَّ جِبْرَائِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً وَأَنَّهُ عَارَضَهُ بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ «وَلاَ أُرَانِي إِلاَّ قَدْ حَضَرَ أَجَلِي وَأَنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ».

---

(١) طفقت: جعلت.

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٥٦١٠).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد، وغيره، وصححه الألباني في تخريج أحاديث «فقه السيرة» للغزالي (٤٨٩).

فَبَكَيْتُ ثُمَّ إِنَّهُ سَارَّنِي فَقَالَ: «أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ - أَوْ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ - ». فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ[١].

فكانت أوّل مَن مات مِن أهل بيت النبيّ بعده حَتَّى مِن أزواجه.

عباد الله...

وفي يوم الاثنين وبالتحديد في فَجرِه، حَدَث ما يلي:

عَنْ أَنَس بْنُ مَالِكٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَـهُمْ فِي وَجَعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاِثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاَةِ كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتْرَ الحُجْرَةِ فَنَظَرَ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ[٢] ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَاحِكًا، قَالَ: فَبُهِتْنَا وَنَحْنُ فِي الصَّلاَةِ مِنْ فَرَحٍ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَارِجٌ لِلصَّلاَةِ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنْ «أَتِمُّوا صَلاَتَكُمْ». قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَرْخَى السِّتْرَ. قَالَ: فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ»[٣].

قَالَ الشيخ مُحَمَّد الغزالي - رَحِمَهُ الله -: «كأن الله تَعَالى أراد أن يطمئنه عَلَى كمال انقياد أُمّته وحُسن اتباعها، فأشهده آخر وقت حضره وهو في الدنيا» ا.هـ[٤].

ولما اشتدّ الوجع برسول الله ﷺ وهزم المرضُ عافيته، أسنَدَتْهُ عائشةُ رَضِيَ الله عَنْهَا إلى صَدرِها، ونترك الحديث لها:

«قالت رَضِيَ الله عَنْهَا: دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي، وَمَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ[٥]، فَأَبَدَّهُ[٦] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ، فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَقَضَمْتُهُ[٧]، وَنَفَضْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ، ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَنَّ بِهِ، فَمَا

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٢) عبارة عن الجمال البارع، وحُسن البشرة وصفاء الوجه واستنارته.

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

(٤) «فقه السيرة» (٤٨٩).

(٥) يستاك.

(٦) فأبدّه: مدّ نظره إليه.

(٧) قضمته: مضغتهُ.

رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ[(١)]، فَمَا عَدَا أَنْ فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَفَعَ يَدَهُ أَوْ إِصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: «فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى» ثَلَاثًا ثُمَّ قَضَى[(٢)]، وَكَانَتْ تَقُولُ: «مَاتَ بَيْنَ حَاقِنَتِي[(٣)] وَذَاقِنَتِي[(٤)]»[(٥)].

وفي رواية: «بَين سَحري[(٦)] ونَحري[(٧)]». رواه البخاري.

قال أَنس رضي الله عنه: «لَـمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام: وَاكَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ». فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ»[(٨)].

عباد الله...

وعَن اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ تحدِّثنا عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا عمَّا سمعته من كلامه، وعمَّا رأته من أحواله:

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ نَبِيٌّ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَتْ: فَأَصَابَتْهُ بُحَّةٌ[(٩)] فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ»[(١٠)].

---

(١) استنان المتهيئ لملاقاة مولاه.

(٢) أي: خرجت روحه الطيبة المعطّرة.

(٣) الحاقنة: ما سفل من الذّقن.

(٤) الذاقنة: ما علا منه.

(٥) رواه البخاري.

(٦) السَّحر: الصَّدر.

(٧) النَّحر: المراد موضع النحر، والمراد أنه مات ورأسه بين حَنكِها وصَدرِها.

(٨) رواه البخاري (٤٤٦٢).

(٩) البُحّة: شيء يعرض في الحلق فيتغير له الصَّوت فيغلظ. «فتح الباري» (٧/ ٧٤٤).

(١٠) رواه البخاري (٤٤٣٥).

وقالت عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الجَنَّةِ ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ»، فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ[١] عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»، فَقُلْتُ: إِذًا لَا يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ» [٢].

عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا: سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُسْنِدٌ إِلَيَّ ظَهْرَهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ» [٣].

عن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ كان بين يَدَيْهِ رَكْوَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ». ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى». حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ [٤].

وعَنْ عَائِشَةَ أيضًا، قَالَتْ: أُغْمِيَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِي، فَجَعَلْتُ أَمْسَحُهُ وَأَدْعُو لَهُ بِالشِّفَاءِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ ﷺ: «لاَ بَلْ أَسْأَلُ اللَّهَ الرَّفِيقَ الأَعْلَى مَعَ جِبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وإِسْرَافِيلَ» [٥].

قَالَ القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في كتابه «التذكرة» [٦]: «قول عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا: «كان بين يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أو علبة» العلبة: قدح من خشب ضخم يحلب فيه، قاله ابن فارس في «المجمل»، وقال الجوهري في «الصحاح»: العلبة محلب من جلد، والجمع علب وعلاب، والمعلب الذي يتخذها.

قال الكميت يصف خيلًا:

سقينا دما القوم طورا وتارة ... صبوحا لإقتار الجلود المعلب

---

(١) قائل هذه العبارة هو عروة بن الزبير، الراوي عن عائشة.

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٧).

(٣) رواه البخاري (٤٤٤٠).

(٤) رواه البخاري (٤٤٤٩).

(٥) صحيح: رواه ابن حبان (٦٥٩١)، وغيره، وصححه الشيخ محمد بيومي في «وفاة الرسول» (ص١٧).

(٦) (ص٣٢ وما بعدها).

وقيل : أسفله جِلْد وأعلاه خَشَب مدوّر مثل إطار الغربال، وهو الدائر به وقيل: هو عس يحلب فيه، والعس : القدح الضَّخم، وقال اللغوي أبو هلال الحسن بن عبد الله ابن سهل العسكري في كتاب «التلخيص» له : والعلبة : قدح للأعراب مثل العس والعس يتخذ من جنب جلد البعير والجمع علاب.

و قوله : «إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» أي شدائد وسكرة الموت شدّته.

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين والأولياء والمتقين فما لنا عن ذكره مشغولين؟! وعن الاستعداد له متخلفين ؟! ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

قالوا: وما جرى على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من شدائد الموت وسكراته فله فائدتان:

إحداهما: أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأَنَّهُ باطن وقد يطّلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقًا ويرى سهولة خروج روحه فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميِّت فيه؟ فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خبرهم : شدة ألمه مع كرامتهم على الله تعالى وتهوينه على بعضهم؛ قطع الخلق بشدة الموت الذي يعانيه ويقاسيه الميِّت مطلقًا لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما يأتي ذكره.

الثانية : ربما خطر لبعض الناس أن هؤلاء: أحباب الله وأنبياؤه ورسله فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة ؟ وهو سبحانه قادر أن يخفف عنهم أجمعين كما قال في قصة إبراهيم : **«أما إنا قد هونا عليك»**؟ **فالجواب** : **«إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً فِي الدُّنيَا الأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»** كما قال نبينا ﷺ . خرَّجه البخاري وغيره، فأحب الله أن يبتليهم تكميلا لفضائلهم لديه ورفعة لدرجاتهم عنده وليس ذلك في حقهم نقصًا ولا عذابًا بل هو كما قَالَ: كمال رفعة مع رضاهم بجميل ما يجزي الله عليهم، فأراد الحق سبحانه أن يختم لهم بهذه الشدائد مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم ليرفع منازلهم ويعظم أجورهم قبل موتهم.

كما ابتلى إبراهيم بالنار، وموسى بالخوف والأسفار، وعيسى بالصحارى والقفاز،

ونبينا مُحَمَّدًا ﷺ بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار، كل ذلك لرفعة في أحوالهم وكمال في درجاتهم، ولا يفهم من هذا أن الله شدَّد عليهم أكثر مِمَّا شدَّد على العُصاة المخلطين، فإن ذلك عقوبة لهم ومؤاخذة على إجرامهم فلا نسبة بينه وبين هذا». ا.هـ.

عباد الله ...

وَلَـمَّا خرجت روحُه ﷺ خرجت معها رائحةٌ طيبة.

قالت عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا: «قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَأْسُهُ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، قَالَتْ: فَلَمَّا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَمْ أَجِدْ رِيحًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا»[١].

فقد كان نبيُّنا ﷺ طيِّبًا حيًّا وميِّتًا.

فالزموا غَرزَه - عباد الله - فلا سعادة لنا في الدُّنْيَا والآخرة إلَّا باتِّباعه، واقتفاء أثره.

وفَّقني الله وإياكم لحسن الاتِّباع، وجنَّبني وإيَّاكم شَرّ الابتداع.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وتسَّرب النبأ الفادح من البيت المحزون، وله طنين في الآذان، وثقل ترزح تحته النفوس، وتدور به البصائر والأبصار.

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت، فتركتهم لوعة الثكل حيارى، لا يدرون ما يفعلون. ا.هـ[٢].

وهذه بعضُ أقوالهم، ووصف أحوالهم:

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٢١).

(٢) «فقه السيرة» للغزالي (٤٩٠).

شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا[1] عَنْ النَّبِيِّ ﷺ الأَيْدِيَ، وإنا لفي دفنه[2] حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا[3]»[4].

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ[5] حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ المَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمْ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَتَيَمَّمَ[6] رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا المَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا»[7].

وقال أهل السِّيَر: ولما تُوفِّي ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم مَن دهش فخولط، ومنهم مَن أُقعد فلم يطق القيام، ومَن اعتقل لسانُه فلم يطق الكلام، ومنهم مَن أنكر موته بالكلية، ثم أيقن بموته بعد أن ذهب عنه هول المفاجأة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ[8]، فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا بَعْدُ...

«فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنْ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا.

---

(١) وما نفضنا: من النفض، وهو تحريك الشيء ليزول ما عليه من التراب والغبار ونحوهما.

(٢) أي: مشغولون بدفنه بعد.

(٣) تعبير عن اللوعة بفقده صلوات ربي وسلامه عليه.

(٤) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه ابن كثير والألباني.

(٥) كان مسكن زوجته.

(٦) تيمم: قصد.

(٧) رواه البخاري (٤٤٥٢).

(٨) أي: يقول لهم: ما مات رسول الله ﷺ. «فتح الباري» (٧/ ٧٥٢).

قَالَ عمر: وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ[١] حَتَّى مَا تُقِلُّنِي[٢] رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ»[٣].

عباد الله...

وبهذا القدر أكتفي، وأسأل الله تَعَالى أن يَرزُقَنا رؤيةَ نَبيِّنا، وشفاعته، ومُرافَقته في الجَنَّة.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

---

(١) عقرت: دُهشتُ وتحيّرتُ.
(٢) ما تُقلّني: ما تحملني.
(٣) رواه البخاري (٤٤٥٤).

الخطبة العشرون بعد المائة:

[١] (ب) علامات القيامة الصغرى

موت النَّبيّ ﷺ وغسله

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن موت النَّبيِّ ﷺ، وحديثنا اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - يدور حول كيفية تغسيل النَّبيِّ ﷺ بعد موته.

عباد الله ...

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قالت: «لَمَّا أَرَادُوا غَسْلَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي أَنُجَرِّدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ ثِيَابِهِ كَمَا نُجَرِّدُ مَوْتَانَا أَمْ نُغَسِّلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ؟

فَلَمَّا اخْتَلَفُوا أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ مُكَلِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ البَيْتِ لاَ يَدْرُونَ مَنْ هُوَ[١]: أَنِ اغْسِلُوا النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَغَسَلُوهُ وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ يَصُبُّونَ المَاءَ فَوْقَ القَمِيصِ وَيُدَلِّكُونَهُ[٢] بِالقَمِيصِ دُونَ أَيْدِيهِمْ.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ[٣] مَا غَسَّلَهُ إِلاَّ نِسَاؤُهُ[٤].

عباد الله ...

ها هو جسد النَّبيّ ﷺ مُسجّى، تفوح منه رائحة أطيب من ريح المسك، وها هم أصحاب النَّبيّ ﷺ قَدْ اجتمعوا وقَدْ خيم عَلَى المكان السكون، والكلّ يتساءل: هل حقًّا مات رَسُول الله؟

هل حقًّا لم نعد نراه؟

أبعد هذا اليوم سينقطع الوحي؟

وما أَمَرّ عيش من فارق الأحباب، خصوصًا مَن كانت رؤيته حياة الألباب.

لو ذاق طَعْمَ الفِراقِ رَضْوى ... لكان من وَجدِه يَمِيد

قَدْ حمّلوني عَذاب شوقٍ ... يَعجَز عن حَمْله الحَديد[٥]

نعم، لقد مات الحبيبُ أيُّها الأصحاب.

ألم يقل الله تَعَالى له: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

---

(١) أي: المكلّم.

(٢) في «المصباح» دَلَّكت الشيء دَلْكًا من باب قتل: مرسته بيدك.

(٣) أي: لو علمتُ أولًا ما علمتُ آخرًا وظهر لي أولاً ما ظهر لي آخرًا، ما غسّل رسول الله ﷺ إلا نساؤه. «عون المعبود» (٨/ ٢٨٨).

(٤) حسن: رواه أبو داود (٢٦٩٣)، والحاكم (٣/ ٥٩، ٦٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٩٣): حسن.

(٥) «لطائف المعارف» (١/ ١٨٢).

ألم يقل له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ألم يقل له: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

نعم، لقد مات الحبيب، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

نعم، لقد مات سيد الرُّسل أجمعين، و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

لا شيء مِمَّا ترى تَبقى بَشَاشَتُه ... يَبقى الإلهُ وَيُودِي المالُ والوَلَدُ

لَم تُغْنِ عَنْ هُرمز يَومًا خَزائِنُهُ ... والخُلد قَدْ حاولت عَادٌ فَمَا خلدوا

ولا سليمان إذ تَجْري الرياح له ... والإنس والجن فيما بينهما تَرِدُ

أين الملوكُ التي كانت لعزّتها ... مِن كُلّ أوْب إليها وَافِدٌ يَفِدُ

حَوض هُنَالِك مَورود بلا كَذِبٍ ... لابدّ مِن ورده يَومًا كَمَا وَرَدُوا

نعم، لقد مات سيِّدُ الخلق، وحبيبُ الحق، وها هو جسده الطَّاهر مُسجّى.

فيا ترى كيف يُغسَّل؟

هل سَيُجَرَّدَ من ثيابه كما نفعل مع موتانا؟

هذا السؤال طرحه أصحاب النبيّ ﷺ وهم حول جسده الطاهر، كما ذكرت أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

واختلفوا فيما بينهم، وكان معهم عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ الله عَنْهُ، تقول عائشة: ولما اختلفوا ألقى اللَّهُ عليهم النوم، حَتَّى ما منهم من رجلٍ إلا وذقنه في صدره، ثم كلّمهم مُكلِّم من ناحية البيت لا يَدرون من هو: أن اغسلوا النبيَّ ﷺ وعليه ثيابه.

إنها القدرة الإلهية، والمنحة الربانية، والتكريم الكريم، لهذا النبيِّ العظيم.

قالت عائشة: فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسّلوه وعليه قميصه، يصبّون الماء فوق القميص، ويدلكونُه والقميص دون أيديهم.

وعن جَعْفَرِ بن مُحَمَّد عن أبيه، قَالَ: «غُسِّلَ النَّبِيُّ ﷺ ثَلاَثًا بِالسِّدْرِ، وَغُسِّلَ وَعَلَيْهِ

قَمِيصٌ، وَغُسِّلَ مِنْ بِئْرٍ يُقَالَ لَهُ «الغَرْسُ» بِقُبَاءٍ كَانَتْ لِسَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَشْرَبُ مِنْهَا وَوَلِيَ سَفِلَتَهُ[١] عَلِيٌّ وَالفَضْلُ[٢] مُحْتَضِنُهُ، وَالعَبَّاسُ يَصُبُّ المَاءَ»[٣].

وروى الحاكم عن عبد الله بن الحارث، قَالَ: «غُسِّلَ النبيَّ ﷺ عليٌّ وعلى يده خِرقة، فغسَّله فأدخل يَدَه تحت القميص فغسّله والقميص عليه».

ثم ماذا؟

ثم يُحدِّثنا عليّ بن أبي طالب رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ: «لَمَّا غَسَّلْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ مَا يَكُونَ مِنَ المَيِّتِ فَلَمْ أَرَ شَيْئًا. وَكَانَ طَيِّبًا حَيًّا وَمَيِّتًا ﷺ»[٤].

ولما فرغوا من غسله، كَفّنوه فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ يَمَانِيَةٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ[٥] مِنْ كُرْسُفٍ[٦] لَيْسَ فِيهِنَّ قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ[٧].

قَالَ ابن إسحاق: «فلمّا فرغَ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء وضع في سريره في بيته، وقَدْ كان المسلمون اختلفوا في دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما قُبض نَبيٌّ إلّا دُفِن حيث يُقْبض**»[٨].

فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي تُوفّي عليه، فحفر تحته، ثم دخل النَّاس عَلَى رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالًا[٩]، دخل الرجال حَتَّى إذا فرغوا، أدخل النساء حَتَّى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان، ولم يؤمّ النَّاس عَلَى رسول الله ﷺ أحدٌ[١٠].

---

(١) أي أسفل منه.

(٢) هو الفضل بن عباس.

(٣) رواه ابن أبي شيبة، والبيهقي، وغيرهما، وقال الحافظ: هو مرسل جيد.

(٤) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وغيره، وانظر «صحيح سنن ابن ماجه» (١٢٠٧).

(٥) **سُحُولية**: نسبة إلى قرية باليمن.

(٦) **الكُرسُف**: القطن.

(٧) رواه البخاري (١٢٦٤)، ومسلم (٢١٤٤).

(٨) أي: يدفن في المكان الذي مات فيه، والحديث صحيح، رواه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (٥٦٤٩).

(٩) **أرسالًا**: فرادى.

(١٠) ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ٢٥٦).

قَالَ الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: «وهذا الصنيع - وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤمّهم أحد عليه - أمرٌ مجمع عليه لا خلاف فيه، وقَدْ اختلف في تعليله، وليس لأحدٍ أن يقول: لأنه لم يكن لهم إمام، لأنَّا قَدْ قدّمنا أنهم إنَّما شرعوا في تجهيزه ﷺ بعد تمام بيعة أبي بكر رَضِيَ الله عَنْهُ، وقَدْ قَالَ بعض العلماء: إنَّما لم يؤمّهم أحدٌ ليباشر كلّ واحد من النَّاس الصّلاة عليه منه إليه، ولتكرّر صلاة المسلمين عليه مرّة بعد مرّة من كلّ فرد فرد من آحاد الصّحابة، رجالهم ونساءهم، وصبيانهم حَتَّى العبيد والإماء.

وأمَّا السّهيلي[1]: فقال ما حاصله: إن الله قَدْ أخبر أنَّهُ وملائكته يصلّون عليه، وأمر كل واحد من المؤمنين أن يصلّي عليه، فوجب عَلَى كل واحد أن يباشر الصَّلاة عليه منه إليه، والصلاة عليه بعد موته من هذا القبيل، قَالَ: وأيضًا فإن الملائكة لنا في ذَلِكَ أئمة، فالله أعلم». ا.هـ[2].

ولما فرغوا من الصَّلاة عليه، شرعوا في تهيئة مكانه الذي سيدفن فيه.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اخْتَلَفُوا فِي اللَّحْدِ[3] وَالشَّقِّ[4] حَتَّى تَكَلَّمُوا فِي ذَلِكَ وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ فَقَالَ عُمَرُ لَا تَصْخَبُوا[5] عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، فَأَرْسَلُوا إِلَى الشَّقَّاقِ وَاللَّاحِدِ جَمِيعًا فَجَاءَ اللَّاحِدُ فَلَحَدَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ دُفِنَ ﷺ»[6].

قَالَ ابن عباس: «وجعل في قبر رسول الله ﷺ قطيفة حمراء»[7].

---

(١) انظر «الروض الأنف» (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) «البداية» (٤/ ٢٤٣) ط. دار الفكر.

(٣) **اللَّحد**: هو الشَّق في عرض القبر من جهة القبلة.

(٤) **الشَّق**: هو الضريح، وهو أن يحفر إلى أسفل كالنَّهر.

قال الإمام النووي: «أجمع العلماء عَلَى أن الدّفن في اللَّحد والشّق جائزان، ولكن إن كانت الأرض صلبة لا ينهار ترابها فاللّحد أفضل، وإن كانت رخوة تنهار، فالشّق أفضل» ا.هـ. «المجموع» (٥/ ٢٨٧).

(٥) **لا تصخبوا**: لا تصيحوا.

(٦) **حسن**: «صحيح سنن ابن ماجه» (١٢٧٥).

(٧) رواه مسلم (٢٢٠٦).

قلت: والذي ألحد النبيَّ ﷺ أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه.

فعن مُحَمَّدٍ بن جعفر عن أبيه قَالَ: الَّذِي أَلْحَدَ قَبْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «أَبُو طَلْحَةَ»، وَالَّذِي أَلْقَى الْقَطِيفَةَ تَحْتَهُ «شُقْرَانُ» مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [١].

وذكر ابنُ عبد البرّ: أن تلك القطيفة استخرجت قبل أن يُهال التراب.

قلت: وهذا أثبت [٢].

والذي دخل قبره ليتولّى دفنه: الذين غسّلوه وهم: العبَّاس، والفضل، وعليّ.

فعن ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: «دخل قبر رسول الله ﷺ: العباس، وعليّ، والفضل» [٣].

وكانت هَذِهِ اللحظة لحظة دفنه وإهالة التراب عليه أشق لحظة مرّت عَلَى المسلمين بعد تلقيهم نبأ وفاته ﷺ.

عن أنس قَالَ: «لَمَّا دُفِنَ ﷺ قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ» [٤].

والله ما طابت نفوسُهم بذلك يا فاطمة، ولكن جَرَت المقادير بذلك، قَالَ المَلِك جَلَّ وعلا: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

نعم يا فاطمة، ما طابت النفوس بذلك، ولكن لا سبيل غير الرضا بالقضاء، والله إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنَّا عَلَى فراقه لمحزونون، ولكن لا نقول إلا ما يرضى ربنا.

وإن كان قد غاب جسدُه عن أعيننا، فحبُّه يملأ أقطار نفوسنا، ويهيّج دائمًا أشواقنا.

وهل هناك مؤمن ينساه؟!!

جزى اللَّهُ عنَّا كُلَّ خير مُحَمَّدًا ... فقد كان مهديًا وقَدْ كان هاديًا

---

(١) رواه الترمذي (١٠٤٧).

(٢) انظر «تحفة الأحوذي» (٤/ ١٤٩).

(٣) صحيح: أخرجه البيهقي، وابن حبان.

(٤) رواه البخاري (٤٤٦٢).

وكان رسول اللَّهُ روحًا ورحمةً … و نورًا وبرهانًا من الله باديًا
وكان رسول الله بالخير آمرًا … وكان عن الفحشاء والسُّوء ناهيًا
وكان رسول الله بالقسط قائمًا … و كان لما استرعاه مولاه راعيًا
وكان رسول الله يدعو إلى الهدى … فلبَّي رسول الله لبيّه دَاعِيًا
أينسى أبر النَّاس بالنَّاس كلهم … و أكرمهم بيتًا وشِعْبًا ووَاديًا
أينسى رسول الله أكرم من مشي … و آثاره بالمسجدين كما هِيا
تكدر من بدع النَّبي مُحَمَّد … عليه السلام كُلُّ ما كان صَافيًا
ركنا إلى الدنيا الدنية بَعْدَه … و كشفت الأطماع منّا مَساويًا
وكم من منار كان أوضحه لنا … و من علم أمسى وأصبح عَافِيًا[1]
إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التُّقى … تقلَّب عُريانًا وإن كان كاسِيًا
وخَيْرُ خِصال المرء طاعةُ رَبِّه … ولاخير فيمن كان للَّه عَاصِيًا

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبقيت في القصّة بقيّة، وهي: قولُ عائشة رضي الله عنها: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِى مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا غَسَّلَهُ إِلاَّ نِسَاؤُهُ».

والمعنى: لو علمتُ أولًا ما علمتُ آخرًا، وظهر لي أوّلًا ما ظهر لي آخرًا، ما غسله إلا نساؤه.

وكأن عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا تفكرت في الأمر بعد أن مضى، وذكرت قول النبي

---

(١) العافي: الدارس الَّذِي ذهبت معالمه.

ﷺ لها: «مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ؟»[١].

قال الشوكاني: «فيه متمسك لمذهب الجمهور، أي: في جواز غسل أحد الزوجين للآخر، ولكنه لا يدل عَلَى عدم جواز غسل الجنس لجنسه مع وجود الزوجة، ولا عَلَى أنها أوْلى من الرجال» ا.هـ.

قلت: غاية ما فيه: أنه يجوز للمرأة أن تتولى غسل زوجها بنفسها، كما يجوز للزوج فعل ذلك، والله أعلم.

۞۞۞۞۞

(١) صحيح: رواه أحمد، وغيره.

الخطبة الحادية والعشرون بعد المائة:

٢- علامات القيامة الصغرى

انشقاق القمر، وظهور الفتن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

ومن علامات القيامة الصغرى: انشقاق القمر.

قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ ﴾ [القمر: ١].

وعن أنس: «أن أَهْلَ مكّة سألوا رسول الله ﷺ أن يُرِيَهم آيةً فأراهم اِنْشِقَاق القَمَر مَرَّتَيْن!».

وعن ابن مسعود، قال: انشقّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فِلْقَتَيْن، فَسَتَر الجبلُ

فِلْقَةً، وكانت فِلْقَةٌ فَوْق الجبلِ، فقال رسولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَد»[١].

قال الإمام النووي - رحمه الله - : «قال القاضي: انشقاق القمر من أمّهات معجزات نبيّنا ﷺ، وقد رواها عدّة من الصّحابة مع ظاهر الآية الكريمة، وسياقها.

قال الزجاج: وقد أنكرها بعضُ المبتدعة المضاهين المخالفي الملة، وذلك لما أعمى الله قلبه، ولا إنكار للعقل فيها؛ لأن القمر مخلوق لله تعالى، يفعل فيه ما يشاء، كما يفنيه ويكوّره في آخر أمره» ا.هـ[٢].

عباد الله ...

والعلامة الرابعة من علامات القيامة الصغرى: ظهور الفتن:

عن حُذيفة بْنِ اليمان ﷺ قال: كُنّا عند عمر، فقال: أيُكم يحفظُ حَدِيثَ رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ قال: فقلتُ: أنا، قال: إنك لجرئ، كيف قال؟ قال: قُلت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**فِتنةُ الرَّجُلِ في أَهْله ومالِه ونَفْسه وولده وجَارِه يُكَفِّرُها الصِّيامُ والصّلاةُ والصّدقةُ والأمرُ بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر**».

فقال عمر: ليس هذا أُرِيد، إنما أريد التي تموج كَمَوْج البَحر. قال: فقلتُ: مالَكَ ولها يا أميرَ المؤمنين؟ إن بَيْنَك وبينها بَابًا مُغْلَقًا. قال: أَفيُكْسرُ البابُ أم يُفْتَحُ؟ قال: قلتُ: لاَ بَلْ يُكْسر. قال: ذلك أَحْرى أن لا يُغلق أبدًا.

قال: فقلنا لحذيفة: هل كان عمر يَعْلَمُ مَنِ البَاب؟ قال: نعم كما يعلمُ أَنَّ دون غَدٍ اللَّيْلَة. إني حدثْتُه حديثًا ليس بالأَغَاليط.

قال: فَهِبْنَا أن نسأل حُذَيْفَة مَنِ البَاب؟ فقلنا لمسروق: سَلْهُ، فَسَأَلَهُ، فقال: «عُمَر»[٣].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث: «وأما قوله: «حديثًا ليس بالأغاليط»، فمعناه: حدثه حديثًا صدقًا محققًا ليس هو من صحف الكتابيين ولا من اجتهاد ذي رأي بل من حديث النبي ﷺ.

---

(١) رواه مسلم: (٢٨٠٢).
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٢٨٣).
(٣) رواه مسلم (٢٣١)، (١٤٤)، في «الإيمان».

«والحاصل: أن الحائل بين الفتن والإسلام عمر رَضِيَ الله عَنْهُ وهو الباب فما دام حَيًّا لا تدخل الفتن، فإذا مات دخلت الفتن وكذا كان. والله أعلم» ا.هـ [(١)].

عباد الله ...

وأصل الفتنة: الاختبار، ثم استعملت فيها أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أُطْلقت على كل مكروه أو آيل إليه كالكفر والإثم والتحريق والفضيحة والفجور وغير ذلك [(٢)].

وقال **الحافظ ابن حجر** – رحمه الله – : «وتطلق الفتنة على الكفر والغلّو في التأويل البعيد، وعلى الفضيحة، والبلية، والعذاب، والقتال، والتحوّل من الحسن إلى القبيح، والميل إلى الشيء والإعجاب به، وتكون في الخير والشّر؛ كقوله تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالـخَيْرِ فِتْنَةً**﴾ [الأنبياء: ٣٥]» ا.هـ [(٣)].

هذا؛ وقَدْ أخبر النَّبيُّ ﷺ بوقوع الفتن، ورأى مواقعها، ويدل عَلَى ذَلِكَ:

(١) عن معاوية ﷺ قال: «**لَمْ يَبْقَ من الدُّنْيا إلاّ بَلاءٌ وفِتنةٌ**» [(٤)].

(٢) وعَن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: «**يتقاربُ الزّمَان، وينقصُ الْعَمَلُ، وَيُلْقَى الشّحُّ، وتظهرُ الفِتَنُ، ويَكْثُرُ الهَرْجُ**» .

قالوا: يا رسول الله، أَيُّما هو؟

قال: «**القتلُ، القتلُ**» [(٥)].

(٣) وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**ستكونُ فِتنٌ القاعدُ فيها خَيْرٌ من القائم، والقائمُ فيها خَيْر من الْماشي، والماشي فيها خير من السّاعي، مَنْ تَشَرَّف لها**» [(٦)]

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/ ٣٣٢).
(٢) «فتح الباري» [١٣/ ٥].
(٣) «إتحاف الجماعة» للتويجري (١/ ٢٢)، نقلاً عن «فتح الباري».
(٤) صحيح: انظر «صحيح سنن ابن ماجه» [٣٢٧٦].
(٥) رواه البخاري [٧٠٦١].
(٦) تشرف لها؛ أي: تطلّع لها بأن يتصدّى ويتعرض لها ولا يعرض عنها.

تَسْتَشْرِفْهُ[١]، **فمن وَجَدَ مِنها مَلْجَأ**[٢] **أو معاذا فَلْيَعُذْ به**[٣] »[٤].

(٤) وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: والله إنيّ لأَعلَمُ النّاسِ بكلِّ فتنةٍ هي كائنةٌ فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلاّ أن يكون رسول الله ﷺ أَسَرَّ إليَّ في ذلك شيئًا لم يُحَدِّثه غَيْري، ولكنَّ رسولُ الله ﷺ قال وهو يُحَدِّثُ مَجْلِساً أنا فيه عن الفتن، فقال رسولُ الله ﷺ وهو يَعُدُّ الفِتَنَ: «**مْنُهنّ ثَلاثٌ لا يَكَدنَ يَذْرنَ شَيْئًا، ومنهنّ فِتنٌ كرِياحِ الصَّيْف؛ منها صِغَارٌ، وَمِنها كِبَارٌ**».

قال حذيفة:«فذهب أولئك الرَّهْطُ كُلُّهم غيري»[٥].

(٥) وعن كرز بن علقمة الخزاعي، قال: سأل رجلٌ النبيّ ﷺ : هل للإسلام من مُنتهى؟ فقال رسول الله ﷺ :«**أَيُّما أَهْل بَيْتٍ من العرب أو العجم أراد اللهُ بهم خيرًا أَدْخَل عليهم الإسلام**» فقال: ثم ماذا؟ قال:«**ثم تقع الفِتنُ كالظُّلل**» فقال الرجل: كلَّا والله إن شاء الله. قال:«**بَلَى والّذي نَفْسِي بيده، لَتَعُودنّ فيها أَسَاوِر صِبا**[٦] **يِضْرب بَعضكُم رِقابَ بعض**»[٧].

عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال: أَشْرَفَ[٨] النبيُّ ﷺ على أُطُمٍ[٩] من آطام المدينة، فقال:«**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرى؟**» .

قالوا: لا.

---

(١) **تستشرفه**: تهلكه بأن يشرف منها على الهلاك.
(٢) **ملجأ**: أي يلتجئ إليه من شرّها.
(٣) **أو معاذًا**: هو بمعنى الملجأ. **فليعذ به**: أي ليعتزل فيه ليسلم من شر الفتنة.
(٤) رواه البخاري [٧٠٨١]، ومسلم [٢٨٨٦].
(٥) رواه مسلم [٢٨٩١]، وغيره.
(٦) قال الزّهري:«**أساور صبا**: الحيّة السّوداء إذا أراد أن يَنْهَش اْرتفع هكذا ثم انْصَب». **والظل**: السحاب.
(٧) **صحيح**: رواه البيهقي، والحميدي في «مسنده» وغيرهما، وصححه الحافظ ابن دحية أبو الخطّاب.
(٨) **أشرف**: علا وارتفع.
(٩) **الأُطُم**: القصر والحصن.

قال: «**فإنّي لأرى الفِتَنَ تقَعُ خِلاَل بُيوتِكم**[(١)] **كَوَقْعِ القَطْر**[(٢)]»[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - : «وإنما اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان ﷺ كان بها، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك، فالقتال بالجمل وبصِفّين كان سبب قتل عثمان، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفّين، وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تَولّد عن شيء من ذلك أو عن شيء تولّد عنه. ثم إن قتل عثمان كان أشدّ أسبابه: الطعن على أمرائه ثم عليه بتوليته لهم، وأوّل ما نشأ ذلك من العراق وهي من جهة المشرق فلا منافاة بين حديث الباب وبين الحديث الآتي أن الفتنة من قبل المشرق، وحسن التشبيه بالمطر لإرادة التعميم لأنه إذا وقع في أرض معينة عمّها ولو في بعض جهاتها» ا.هـ[(٤)].

وقال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - : «والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي أنها كثيرة، وتعمّ الناس ولا تختصّ بها طائفة، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم، كوقعة الجمل، وصفين، والحَرّة، ومقتل عثمان، ومقتل الحسين - رضي الله عنهما -، وغير ذلك. وفيه معجزة ظاهرة له ﷺ » ا.هـ[(٥)].

أيُّها المسلمون...

وقَدْ أشار المعصوم ﷺ على الأَرْضِ التي تَهبّ منها رياحُ الفتنة في أحاديث كثيرة، منها:

(١) عن ابن فضيل، عن أبيه، قال: سمعتُ سالم بن عبد الله بن عمر يقول: يا أَهْل العِراقِ، ما أَسْأَلَكُم عن الصَّغِيرةِ وأَرْكَبَكُمْ لِلكبيرة! سمعتُ أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الفتنة تَجيءُ مِنْ هَهُنا** - وأومأ بيده نحو المشرق - **مِنْ حيث يطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ**» وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي

---

(١) الخلال: النواحي.
(٢) القطْر: المطر.
(٣) رواه البخاري [٧٠٦٠]، ومسلم [٢٨٨٥].
(٤) «فتح الباري» (١٣/ ١٦).
(٥) «صحيح مسلم بشرح النووي» [١٨/ ٣٣٦].

قتل من آل فرعون خطأ، فقال الله عزّ وجلّ له: ﴿**وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا**﴾ (١) [طه: ٤٠].

(٢) وعن ابن عمر - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قال: خرج رسولُ الله ﷺ من بيت عائشة، فقال: «**رأسُ الكفر من هَهُنا من حيث يطلع قَرْنُ الشيطان**» يعني المشرق (٢).

(٣) وعن ابن عمر - أيضًا - عن النبيّ ﷺ أنه قام إلى جَنب المنبر، فقال: «**الفِتْنَةُ هَاهُنا، الفتنةُ هَاهُنا، مِنْ حَيْثَ يَطْلُعُ قَرْنُ الشّيطان**. أو قال: **قرنُ الشَّمْس**» (٣).

(٤) وعنه - أيضًا - قال: ذكر النبيُّ ﷺ : «**اللَّهُمَ بارِكْ لَنَا فِي شَامِنا، اللَّهُمُ بارِكْ لنا فِي يَمَنِنا**». قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا. قال: «**اللَّهُم بارك لنا في شَامِنا، اللهم بارك لنا في يَمَنِنا**» قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا، فأظنه قال في الثالثة: «**هناك الزّلازِلُ، والفتن، وبها يطْلُع قَرْنُ الشيطان**» (٤).

قال **الحافظ ابن حَجر** - رحمه الله - : قال المهلّب: إنما ترك ﷺ الدعاء لأهل المشرق ليضعفوا عن الشّر الذي هو موضوع في جهتهم لاستيلاء الشيطان بالفتن.

وأما قوله: «**قرنُ الشَّمْس**» فقال الداودي: للشمس قرن حقيقة ويحتمل أن يريد بالقرن قوّة الشيطان وما يستعين به على الإضلال، وهذا أَوْجه، وقيل: إن الشيطان يقرن رأسه بالشمس عند طلوعها ليقع سجود عبدتها له.

وقال الخطابي: القرن: الأمّة من الناس يحدثون بعد فناء آخرين، وقرن الحيّة أن يضرب المثل فيما لا يحمد من الأمور.

وقال غيره: كان أهل المشرق يومئذٍ أهل كفر فأخبر ﷺ أن الفتنة تكون من تلك الناحية فكان كما أخبر.

وأوّل الفتن كان من قِبَل المشرق وكان ذلك سببًا للفرقة بين المسلمين، وذلك مما

---

(١) رواه مسلم [٢٩٠٥].

(٢) رواه مسلم [٢٩٠٥].

(٣) رواه البخاري [٧٠٩٢].

(٤) رواه البخاري [٧٠٩٤].

يُحبّه الشيطان ويفرح به.وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة

وقال الخطابيّ: «نجد من جهة المشرق ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها وهي مشرق أهل المدينة.

وأصل النجد: ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغور فإنه ما انخفض منها، وتِهامة كلها الغور، ومكة من تِهَامة» انتهى [١].

وقال الكرماني: «وقيل: إن أهل المشرق كانوا حينئذٍ أهل كفر فأخبر أن الفتنة تكون من ناحيتهم كما أن وقعة الجمل وصفين وظهور الخوارج في أرض نجد العراق وما والاها وكذلك يكون خروج الدّجال ويأجوج ومأجوج منها» ا.هـ [٢].

عباد الله ...

وقَدْ يسأل سائل: وما هي الأسباب التي أدَّت إلى شيوع الفتن، وأهاجت أمواج البلاء؟

والجواب سيأتي بعد قليل - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد تقدم معنا: أن الفتنة هاجت بموت عمر ﷺ وساعد على ذيوعها وشيوعها - فيما بعد عصر الخلفاء الراشدين - عدّة أسباب، أهمها:

(١) عدم تحكيم الكتاب والسنة، أَوْ التطبيق الجزئي للأحكام الشرعية:

عن ابن عمر ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: «لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا

---

(١) «فتح الباري» [١٣/ ٥١].

(٢) «نبوءات النبيّ ﷺ في فتن آخر الزمان» للشيخ/ محمد بيومي (٢٨) نقلاً عن «المنجد» (ص٢٢٨).

المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ [١] وَشِدَّةِ المَؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا القَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلاَ البَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ» [٢].

(٢) ظهور الكِبْرِ والعُجْب:

فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مَشَتَ أُمَّتِي المُطَيْطَاء [٣]، وخَدَمها أبناءُ الملوك؛ أبناءُ فَارِسِ والرُّوم، سُلِّط شِرارُها على خيارِها» [٤].

(٣) ترك المنكر دون تغيير:

فعن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الناسَ إذا رَأَوْا الظالمَ فلم يأخذوا على يَدَيْه أَوْشَك أن يَعُمَّهم اللهُ بعقابٍ منه» [٥].

(٤) عدم الصبر عند فتنة النصر:

فعَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ الله عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟». قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ المُهَاجِرِينَ فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ» [٦].

---

(١) السِّنين: سنوات الجَدْب والقحط.

(٢) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني.

(٣) المطيطاء: المشي بتبختر، وهي مشية المتكبِّرين.

(٤) صحيح: انظر «صحيح سنن الترمذي» [١٨٤٦].

(٥) صحيح: انظر «صحيح سنن الترمذي» [٧١٦١]، وابن ماجه [٤٠٠٥].

(٦) رواه مسلم [٢٩٦٢].

(٥) الرَكُون إلى الدُّنْيَا والميل إليها:

فعن الْمِسْوَر بن مَخْرمة أن عمرو بن عوف أخبره: أن رسولَ الله ﷺ بعث أبا عبيدة ابن الجرّاح إلى البحرين يأتي بِجِزْيَتِها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أَهْلَ البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحَضْرميّ، فَقَدِمَ أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة فَوَافَوْا صلاةَ الفجر مع رسول الله ﷺ، فلمّا صَلّى رسولُ الله ﷺ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنكم سَمِعتُم أن أبا عبيدة قَدِمَ بشيءٍ من البحرين؟**» فقالوا: أجل يا رسول الله. قال: «**فأَبْشِروا، وَأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُم، فوالله ما الفقر أَخَشَى عليكم، ولكنيِّ أخشى عليكم أن تُبْسَط الدنيا عليكم كما بُسِطَتْ على مَنْ كان قَبْلكم، فَتَنافَسُوها كَمَا تَنَافَسُوهَا، وتُهلِكَكُم كما أهْلكتهم**» [١].

(٦) ترك الجهاد في سبيل الله:

فعن ابن عمر، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضَنَّ [٢] النّاسُ بالدِّينار والدِّرْهَم، وتبايعوا بالعَيْنة [٣]، واتَّبعوا أذْنَاب البقر، وتركوا الجهادَ في سبيل الله؛ أنزل اللهُ بهم البَلاَء، فلم يَرْفَعْه عنهم حتى يُراجِعوا دينهم**» [٤].

(٧) حُبّ المال:

والمقصود بحب المال - هنا - : هو الحبّ الذي يُقَوِّض بنيان الدين، ويفسد نيّة الإنسان، ويؤدِّي إلى الطغيان، ونسيان الآخرة.

فعن كعب بن عياض قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ لكلِّ أُمّة فِتنة، وفتنة أُمّتي المال**» [٥].

---

(١) رواه مسلم [٢٩٦١].

(٢) ضنّ: بخل.

(٣) نهى النبيّ ﷺ عن بيع العَيْنة لأنه ربا، وإن كان في صورة بَيْع وشراء. ذلك أن الإنسان المحتاج إلى النقود يشتري سلعة بثمن مُعَيّن إلى أَجَل ثم يبيعها مِمَّن اشْتَراها منه بثمن حال أَقَلّ فيكون الفرق هو فائدة المبلغ الذي أخذه عاجِلاً. وهذا البيع حرام ويقع باطلاً. «فقه السنة» [٣/ ١٣٢].

(٤) **صحيح**: رواه أحمد، والبزار، وغيرهما.

(٥) **صحيح**: رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٨) ظهور الفواحش:

فعن أبي سعيد الخدريّ ﷺ : أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، وكان فيما قال: «**إن الدُّنْيَا خَضِرةٌ حُلْوة، وإن الله مُسْتَخْلفكم فيها فَنَاظِرٌ كيف تعملون، ألا فاتقوا الله واتقوا النِّسَاء، فإن أوّل فِتْنة بني إسرائيل كانت في النِّساء**»[١].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وسيأتي بعضُها بعد إن شاء الله تعالى.

(٩) الصِّراع على السلطة:

فكم أدّى هذا الصراع «البغيض» إلى اقتتال راح ضحيّته الملايين من الموحّدين ! ألا تَعِسَ عُبَّاد الكَراسي.

قَالَ الألباني - رَحِمَهُ الله -: الانقلابات بدعة عصرية.

(١٠) التعَبُّد مع إهْمال العلم:

وهذا الانفصام بين العبادة والعلم أفرز ظاهرة الغلو في التكفير قديمًا وحديثًا.

فقديمًا انتهى بالخوارج إلى استباحة أموال ودماء من خالفهم، حتى أنهم استحلّوا دم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ الله عَنْهُ !!

وقَدْ بيّن النَّبيُّ ﷺ لنا صفاتهم:

وفي «الصحيح» عن النبيّ ﷺ أنه قال في وصفهم: «**يَحْقر أحدُكم صَلاتَه إلى صَلاتِهم، وقيامَه إلى قِيامهم، وقراءته إلى قراءتهم**» ومع هذا وصفهم بأنهم: «**يَمْرقُون من الدِّين كما يَمْرُق السَّهْمُ من الرَّمِية!**» .

وبيّن علامتهم المميزة، وهي أنهم: «**يدعون أهل الأوثان، ويقتلون أهْلَ الإسلام!**» كما أشارﷺ إلى ضحالتهم وسطحيتهم وعدم تعمّقهم في فهم القرآن حين قال: «**يَقْرأون القرآن لا يُجَاوز حَنَاجِرهم أو تَرَاقيهم!**» .

وهناك أحاديث أخرى في وصفهم كثيرة.

---

(١) رواه مسلم.

عباد الله ...

إن العمل المقبول عند الله لابد له من ركنين أساسيين:

أحدهما: إخلاص النية فيه، بألا يُراد به إلاّ وجه الله.

والثاني: أن يكون مبنياً على المحكمات البيّنات من نصوص الشرع وقواعده» ا.هـ [١].

وحديثًا انتهى هذا الانفصام ببعض الشباب إلى التعجّل بالحكم بتكفير من خالفهم، أو رأى رأيًا غير رأيهم، فازدادت الأمة بهذا الشذوذ خبالاً! ولقد تخوّف النبيُّ ﷺ على أُمّته من هذا النوع:

فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: **«إنّ مِمَّا أَتَخوّف عليكم: رَجُلٌ قرأ القرآنَ حتى إذا رُؤيتُ بَهْجَتُهُ عليه وكان رداؤُه الإِسْلامُ، اْعَتراه إلى ما شاء الله، انْسَلخ منه ونَبَذَه وراء ظَهْرِه، وَسَعَى على جَارِه بالسَّيف وَرَمَاه بالشِّرك!»** .

قال: قلتُ: يا نبيّ الله، أيهما أولى بالشرك: اْلمَرمِيّ أو الرَّامي؟

قال: «بَلِ الرَّامي» [٢].

لهذا كان أئمّة السَّلف يُوصون بطلب العلم قبل التعبُّد والجهاد، حتى لا ينحرف عن طريق الله من حيث لا يدري.

قال الإمامُ الحسن البصريّ - رحمه الله تعالى - : «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم، ما يفسد أكثر ممّا يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا يضرّ بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضرّ بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتى خرجوا بأسيافهم على أُمّة محمّد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوه» .

عباد الله ...

كيف تعرض الفتن عَلَى القلوب؟

---

(١) «ظاهرة الغلو في التكفير» [٩] بتصرف يسير.

(٢) إسناده جيد: رواه أبو يعلى في «مسنده»، وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير» [٢/ ٤٢٠]: «إسناد جيد» .

وكيف يعرف المسلم أَنَّهُ مفتون؟

ومن الَّذِينَ وكّلت بهم الفتنة؟

وما هي طرق النجاة من الفتن؟

هذا ما سوف نذكره في الخطبة القادمة - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللِّقاء.

۞۞۞۞۞

الخطبة الثانية والعشرون بعد المائة:

٣- علامات القيامة الصغرى

ظهور الفتن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «الفتنة» أعاذنا الله وإيَّاكم منها بمنّه وكرمه، آمين.

عباد الله ...

- وكيف تُعرض الفتن عَلَى القلوب؟
- وكيف يعرف المسلم أَنَّهُ مفتون؟
- ومن الَّذِينَ وكّلت بهم الفتنة؟
- وما هي طرق النجاة من الفتن؟

هذا ما سوف نجيب عنه في خطبة اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - وأسأل الله تَعَالَى الإصابة في القول والعمل.

أيها المسلمون...

وقبل الإجابة، ينبغي التنبيه عَلَى أمر مهم، وهو: أن الجواب لا يكون موفقًا إلَّا إذا كان موافقًا للكتاب والسُّنة، ومؤيَّدًا بالأدلة الشرعية.

قال ابن تيمية - رَحِمَهُ الله - : «مَن فارق الدليل ضلّ السبيل، ولا دليل إلَّا بما جاء به الرسول ﷺ» ا.هـ [١].

كيف تُعرض الفتن عَلَى القلوب؟

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«تُعْرَضُ الفتَنُ على القلوب كالحَصِيرِ عُوداً عُوداً [٢] فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا [٣] نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ [٤]، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَىّ تَصِيرَ على قَلْبَيْنِ: على أبيضَ مثْل الصَّفَا [٥] فلا تَضُرُّه فِتْنَةٌ ما دامت السّمواتُ والأرض. والآخرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا [٦] كالكُوزِ مُجَخِّياً [٧] لا يَعْرِفُ مَعْروفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إلاّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»** [٨].

قال صاحبُ «التحرير»: «معنى الحديث: أن الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نورُ الإسلام. والقلب مثل الكوز فإذا انْكبّ انْصَبّ ما فيه ولم يدخلْه شيءٌ بَعْد ذلك» ا.هـ [٩].

---

(١) «تنقيح الإفادة من مفتاح دار السعادة» للشيخ الهلالي (١٤٣).

(٢) قال القاضي: «شبه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحدًا بعد واحد». انظر «صحيح مسلم بشرح النووي» [٢/ ٣٣٠].

(٣) أُشربها: دخلت فيه دخولاً تامًا، وأُلزمها وَحَلَّت منه محَلّ الشّراب.

(٤) نكت فيه نكتة: نقط فيه نقطة.

(٥) الصَّفا: الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء.

(٦) الربدة: لون بين السواد والغبرة.

(٧) مُجَخِّياً: مائلاً، وقيل منكوسًا.

(٨) رواه مسلم [١٤٤].

(٩) «صحيح مسلم بشرح النووي» [٢/ ٣٣١].

عباد الله ...

وكيف يعرف المسلم أَنَّهُ مفتون؟

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: «إذا أَحَبّ أحدُكم أن يعلم أصابته الفتنةُ أَمْ لا؛ فلينظر، فإن كان رأى حلالاً كان يراه حَرَامًا [(١)]؛ فقد أصابته الفتنة، وإن كان رأى حرامًا كان يراه حلالاً [(٢)]؛ فقد أصابته» [(٣)].

قلت: ولا يصل الإنسان إلى هذه الحالة إلا إذا أُشْرِبَ قَلْبُهُ الفِتْنَة فاسْوَدَّ منها وانتكس - كما تقدّم - ثم استحكم عليه مرضها.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - : «إذا اسْوَدّ القلبُ وانتكس عرض له مَرَضان خَطِران مُتَراميان به إلى الهلاك:

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسُّنة بدعة، والبدعة سُنّة، والحق باطلاً والباطل حقًا!

الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ، وانقياده للهوى واتباعه له.

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، هي فتن الشهوات، وفتن الشبهات، فتن الغيّ والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظُّلْم والجهل.

فالأولى: توجب فساد القصد والإرادة.

والثانية: توجب فساد العلم والاعتقاد» ا.هـ [(٤)].

عباد الله ...

ومن الَّذِينَ وكِّلت بهم الفتنة؟

عن زيد بن وهب؛ قال: سمعتُ حذيفة ﷺ يقول: «إنَّ الفِتْنَة وُكِّلَتْ بِثَلاَثَةٍ: بالحَادِّ

---

(١) أي مجمع على تحريمه.
(٢) أي مجمع على حِلّه.
(٣) رواه الحاكم في «المستدرك»، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.
(٤) «إغاثة اللهفان» [١/ ١٨].

نِحْرِير [١] الذي لا يرتفع له شيء إلاّ قَمَعهَ بالسَّيْف. وبالخطيب الذي يَدْعو إليها. وبالسَّيِّد. فأمّا هذان؛ فَتَبْطَحهما لوجوههما، وأما السَّيِّد؛ فتبحثه حتى تَبْلو ما عنده» [٢].

وعلى هذا، فالعاقل - عند حلول الفتن - من:

- كَفّ يَدَه وَلِسَانَه.
- وكان حلْساً من أحْلاس بيته.

وقد قال النبي ﷺ : «**إذا رأيتَ النَّاسَ يَقْتَتلون عَلَى الدُّنْيَا؛ فاعْمد بِسَيْفِك إلى أعْظم صَخْرة في الْحَرَّة [٣] فاضْربه بها حتى ينكسر، ثم اجْلِس في بَيتك حتى تأتِيكَ يُدٌ خاطئة أو مِنيَّةٌ قَاضِية**» [٤].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

أما طرق النجاة من الفتن:

فهي بفضل الله - تَعَالى - كثيرة، ومعرفتها مهمٌّ جدًّا، والسعيد من عرفها وتمسّك بها.

فعن ابن مسعود رَضِي الله عَنْهُ قال:

قال رسول الله ﷺ : «**إنّ السَّعِيد لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إن السّعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إنّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا**» [٥].

وطرق النجاة من الفتن كثيرة، منها:

(١) الإيمان والتقوى:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ**

---

(١) النِّحْرِيرُ: العالم الحاذق في علمه. انظر «المعجم الوجيز» [٦٠٥].

(٢) إسناده صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية»، وقال الشيخ/ التويجري في «إتحاف الجماعة» [١/ ٢٥]: إسناده صحيح.

(٣) الحرَّة: الأرض ذات الحجارة السّود.

(٤) رواه الطبراني: في «الأوسط»، وقال الهيثمي: «رجاله ثقات».

(٥) صحيح: رواه أبو داود، وقال الألباني: «صحيح على شرط مسلم» انظر «الصحيحة» [٩٧٥].

وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

والآيات في هذا المعنى كثيرة:

(٢) التوكل:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. أي: كافيه.

(٣) مجاهدة النفس في التّحلي بالفضائل والتّخلّي عن الرّذائل:

قال تَعَالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(٤) الفرار من مواقعها:

فعن أبي سعيد، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُوشِك أن يكون خير مَال امْرئ مُسْلم: غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبال، ومواقِعَ القَطْر يفرُّ بِدِينه مِنَ الفِتَنِ»[(١)].

(٥) اعتزال أهلها:

فعن حذيفة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تكونُ فِتَنٌ على أبوابها دُعَاةٌ إلى النّار، فَأَنْ تَموتَ وأَنْتَ عَاضٌّ على جِذْل شَجَرةٍ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتْبَعَ أَحَدًا مَنْهُم»[(٢)].

(٦) التّثبُّت:

فعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم وَبزَمان يُوشكُ أن يأتي، يُغَرْبَلُ النّاس فِيه غَرْبَلَةً، وَتَبْقَى حُثَالَةٌ[(٣)] مِنَ النّاسِ، قَدْ مَرَجْت[(٤)] عُهودُهُم وأَمَانَاتُهُم، فاْختَلَفوا، وكانوا هَكَذا»- وَشَبكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - .

قالوا : كَيْفَ بِنَا يا رسولَ الله إذا كانَ ذلِكَ؟

قال: «تأخُذون بِما تَعْرِفُون، وَتَدَعُونَ مَا تُنْكِرُون، وَتُقْبِلُونَ على خَاصّتِكم، وَتَذَرُون أَمْر

---

(١) أخرجه البخاري: [١٨٥٧]، وغيره.

(٢) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» [٣٢٣١].

(٣) حُثالة: الحثالة: الرّديء من كل شيء، والمراد أراذلهم.

(٤) مَرَجَتْ: اختلفت وفسدت.

عَوامِكُم»[١].

(٧) التَخَلُّصُ من أَدَاة القتال:

فعن محمد بن مسلمة - رَضِي الله عَنْهُ - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنها ستكونُ فِتَنةٌ وَفُرقَةٌ واختلافٌ، فإذا كان كذلك، فَأْتِ بِسَيْفِك أُحُدًا، فَاْضِربْهُ حَتّى ينْقَطِعَ، ثم اْجلِسْ في بيتك حتى تَأْتِيَكَ يَدٌ خَاطِئَةٌ، أَوْ مَنِيَّةٌ قَاضِيَةٌ».

فقد وَقَعَتْ، وفعلتُ ما قال رسولُ الله ﷺ[٢].

قلت: وكان رَضِي الله عَنْهُ مّمَن اعتزل الفتنة، فلم يشهد «الجَمَل»، ولا «صِفَّيْن»، ولا غيرهما.

(٨) التخلّصَ مِن العَصَبيّة:

فالعصبية تَعْمى وتصم.

عن أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قاتل تَحْتَ راية عِمِّيَّةٍ[٣] يَدْعُو إلى عَصَبيَّةٍ، أَوْ يَغْضَبُ لِعَصَبيَّةٍ، فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ»[٤].

(٩) المواظبة على الصّلوات، وَخُصوصًا صَلاة الصُّبْح:

فعن أبي بكر الصديق رَضِي الله عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلّى الصُّبحَ فهو في ذِمَّة الله[٥] فلا تُخْفروا الله في عَهْده، فَمَنْ قَتَلَه، طَلَبه اللهُ حتى يَكُبَّهُ في النّار على وَجْهِه»[٦].

(١٠) تحمل الأذى عند قيامها:

فعن أبي موسى، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن بَيْنَ يدي السّاعة فِتنًا كَقِطع اللّيل المُظْلم، يُصْبحُ الرجلُ فيها مُؤمنًا وَيُمْسِي كافرًا، وَيُمْسِي مؤمنًا وَيُصْبح كافِرًا، القاعُد

---

(١) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» [٣٢١١].

(٢) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه»[٣٢١٦].

(٣) عِمّية: ضلالة.

(٤) رواه مسلم وابن ماجه.

(٥) في ذمة الله: في أمان الله وحفظه.

(٦) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» [٣٢٠٣].

فيها خَيْرٌ من القائم، والماشي فيها خَيْرٌ من السّاعي، فَكَسِّرُوا قسِّيكُم [(١)]، وَقَطِّعوا أَوْتَارَكم، واضْربوا سُيوفكم بالحِجَارَة، فإنْ دُخِلَ - يعني على أحَدٍ مِنكم - فَلْيَكُن كَخَيرِ ابْني آدم [(٢)]» [(٣)].

(١١) الاستعاذة بالله منها:

فعن زيد بن ثابت، قال: بَيْنَمَا النبيُّ ﷺ في حائطٍ لبني النّجار على بَغْلة له - ونحن معه - إذ حَادَتْ به، فكادت تُلْقيه، وإذا أَقْبر ستة أو خمسة أو أربعة - شَكّ الجريري [(٤)] - فقال: «**مَنْ يَعْرف أَصْحَاب هَذه الأَقْبر؟**» فقال رجلٌ: أنا. قال: «**فمتى مات هؤلاء؟**». قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «**إنّ هذه الأمّةَ تُبْتَلى في قُبورها، فَلَوْلاَ أنْ لاَ تَدافنوا؛ لدعوتُ الله أن يُسْمعَكم مِنْ عَذَابِ القَبْرِ الّذي أَسْمَعُ مِنْهُ**».

قال زيدٌ: ثمّ أقبل علينا بوجهه، فقال: «**تعوّذوا بالله مِنَ عذاب النار**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار. فقال: «**تعوّذوا بالله من عذاب القبر**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «**تعوّذوا بالله من الفِتن ما ظَهَر منها وما بَطَن**»، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر مِنها وما بطن. قال: «**تعوّذوا بالله مِنْ فِتْنَةِ الدّجّال**»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجّال [(٥)].

قال العلاّمة الألباني - رحمه الله - : «في هذا الحديث فوائد كثيرة، منها:

١ - إثبات عذاب القبر، والأحاديث في ذلك متواترة، فلا مجال للشكّ فيها بزعم أنها آحاد ! ولو سلّمنا أنها آحاد، فيجب الأخذ بها؛ لأن القرآن يشهد لها. قال تعالى: ﴿**وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

---

(١) قِسِيّكم: أقواسكم.

(٢) يعني: كالعبد الصالح «هابيل» حين قال لأخيه: ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾ [المائدة: ٢٨].

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وأحمد.

(٤) أحد رواة الحديث.

(٥) أخرجه مسلم [٨/ ١٦٠ - ١٦١]، وأحمد [٥/ ١٩٠]، وغيرهما.

ولو سلّمنا أنه لا يوجد في القرآن ما يشهد لها؛ فهي وحدها كافية لإثبات هذه العقيدة.

٢- أن النبيّ ﷺ يَسْمَعُ ما لا يَسْمعُ الناس، وهذا من خصوصيّاته عليه الصّلاةُ والسّلامُ.

٣- إن سؤال الملكين في القبر حَقٌّ ثَابِتٌ، فيجب اعتقاده أيضًا، والأحاديث فيه أيضًا متواترة.

٤- إن أهل الجاهلية الذين ماتوا قَبْل بعثته عليه الصّلاةُ والسّلامُ مُعَذّبون بشركهم وكُفْرهم، وذلك يدلّ على أنهم ليسوا من أهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة نَبيٍّ؛ خلافًا لما يظنّه بعضُ المتأخرين، إذ لو كانوا كذلك، لم يستحقوا العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ [الإسراء: ١٥].

٥- إن فتنة الدجال فتنة عظيمة، ولذلك أمر بالاستعاذة من شرّها في هذا الحديث... وأحاديث الدّجّال كثيرة جدًّا، بل هي متواترة عند أهل العلم بالسُّنة. ولذلك جاء في كتب العقائد وجوب الإيمان بخروجه في آخر الزمان؛ كما جاء فيها وجوب الإيمان بعذاب القبر وسؤال الملكين» ا.هـ[1].

عباد الله ...

وللحديث بقية، ستأتي بعد قليل - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

(١) «السلسلة الصحيحة» [١/ ٢٩٥ - ٢٩٦] باختصار.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن طرق النجاة من الفتن:

(١٢) جواز الدُّعَاء بالمَوت عِنْدَ الفِتَن:

روى مالك، عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول: **«اللّهمّ إنيّ أسألُك فِعْلَ الخيرات، وتركَ المُنكرات، وَحُبّ المساكين، وإذا أردتَ في النّاس فِتْنَةً فاْقِبْضني إلَيْك غَيْرَ مَفْتون»**.

قال ابن وهب: وحدّثني مالك، قال: كان أبو هريرة يلقى الرّجال فيقول له: مُتْ إن اسْتَطَعْتَ !. فيقول له: لِمَ؟ قال: تموت وأنت تدري على ما تموت خير لك من أن تموت وأنت لا تدري على ما تموت عليه.

قال مالك: ولا أرى عُمَر دَعَا ما دَعَا به من الشهادة إلا خاف التَّحَولّ من الفتن [١].

(١٣) تَعَجّل التّوبة قبل حلول الفتن:

فعن زَيْنَبَ ابْنَةَ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ - رضى الله عنهن - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: **«لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»**؛ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا . قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: **«نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ»** [٢].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : «قال ابن بطّال: أنذر النبيُّ ﷺ في حديث زينب بقرب قيام الساعة كي يتوبوا قبل أن تهجم عليهم، وقد ثبت أن خروج يأجوج

---

(١) صحيح: رواه مالك.

(٢) رواه البخاري [٧٠٥٩]، ومسلم [٢٨٨٠].

ومأجوج قرب قيام الساعة، فإذا فتح من رَدْمهم ذاك القَدْر في زمنه ﷺ لم يزل الفتح يتّسع على مَرّ الأوقات، وقد جاء في حديث أبي هريرة رفعه: «**ويل للعرب من شرّ قد اقترب، موتوا إن استطعتم**»[١]. قال: وهذا غاية في التحذير من الفتن والخوض فيها حيث جعل الموت خيرًا من مباشرتها» ا.هـ[٢].

(١٤) وجوب معرفتها:

فمعرفة الفتن، وأسباب ظهورها، وما يدور فيها، والأضرار المترتبة على الخوض فيها، يُعَدُّ أمرًا واجبًا، انطلاقًا من القاعدة الأصولية التي تقول: «ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب».

وعن أبي إدريس الخولاني، عن حذيفة بن اليمان - رَضِي الله عَنْهُ - قال: «هذه فِتَنٌ قد أظَلَّتْ كَجِبَاهِ البَقَر يهلك فيها أكثرُ الناس إلاّ من كان يَعْرِفها قَبْلَ ذلك»[٣].

(١٥) التزام جماعة المسلمين:

فعن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله ﷺ : «**يكون دعاةٌ على أبواب جَهَنّم مَنْ أَجَابَهم إليها قَذَفُوه فيها**». قلت: يا رسول الله، صِفْهم لنا.

قال: «**هم قومٌ مِنْ جِلْدَتِنا، يتكلّمون بألسَنَتِنا**». قلتُ: فما تأمُرُني إن أدركَني ذلك؟

قال: «**فالزَمْ جَماعةَ المسلمين وإمَامَهُم، فإن لم يكون لهم جماعةٌ ولا إمامٌ، فاْعَتزِلْ تِلْك الفِرقَة كُلَّها، ولو أن تَعَضّ بِأَصْلِ شَجَرةٍ حَتيّ يُدْرِكَكَ الموتُ، وأنْتَ كذلك**»[٤].

عباد الله ...

هذه بعضُ الطرق التي أقامها الإسلام أسبابًا للنجاة من الفِتَن الْمُرْدِية، فَعَضّوا عليها بالنّواجذ، واعلموا أنَّهُ ما دام دِرْعُها عليكم، فإن نَبْلَ العَدوّ لا يقع في مَقْتل، نَجَّانِي اللهُ - تعالى - وإيّاكم من الفِتن، ما ظَهَر منها وما بطن.

---

(١) صحيح.
(٢) «فتح الباري» [١٣/ ١٦].
(٣) صحيح موقوف: رواه نعيم بن حماد في «الفتن» برقم [٥]، وله حكم الرفع، لأن مثله لا يُقال من قِبَل الرّأي.
(٤) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه.

الخطبة الثالثة والعشرون بعد المائة:

٤- علامات القيامة الصغرى

فُشُوّ الزِّنـا

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الصُّغرى «فُشُوّ الزِّنا»، ففي «الصحيحين» عَنْ أَنَسِ بن مالك رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ، وَيَثْبُتَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا» (١).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

عباد الله ...

وعن خطورة هَذِهِ الفاحشة - فاحشة الزنا - يقول الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله -: حقيق بكل عاقل أن لا يسلك سبيلًا حَتَّى يعلم سلامتها وآفاتها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامة أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأولين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما ويفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشر موارد الهلكات، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنى شر سبيل فقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فإذا كانت هذه سبيل الزنى فكيف بسبيل اللواط التي تعدل الفعلة منه في الإثم والعقوبة أضعافها وأضعاف أضعافها من الزنى كما ستقف عليه إن شاء الله تَعَالَى.

فأما سبيل الزنى فأسوأ سبيل ومقيل أهلها في الجحيم شر مقيل، ومستقر أرواحهم في البرزخ في تنور من نار يأتيهم لهبها من تحتهم، فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا ثم يعودون إلى موضعهم، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي ﷺ في منامه ورؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها.

عَنْ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدَبٍ الفَزَارِيُّ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا». قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ. وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي[١] وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ بِهَا رَأْسَهُ[٢] فَيَتَدَهْدَهُ[٣] الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ فَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى.

قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْخِرَاهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَاهُ إِلَى قَفَاهُ،

(١) ابتعثاني: أنهضاني لأنطلق معهما.

(٢) يثلغ رأسه: يشجها، أي: يكثرها.

(٣) يتدهده الحجر: يتدحرج.

قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ الأَوَّلُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِهِ المَرَّةَ الأُولَى.

قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ؟ قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ - قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسَبُ أَنَّهُ قَالَ: وَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ. قَالَ: فَاطَّلَعْتُ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهِيبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا(١).

قَالَ: قُلْتُ: مَا هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ - وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ يَسْبَحُ، وإذَا عَلَى شَطِّ النَّهرِ رَجُلٌ قَدْ جَمعَ عِنْدَهُ حِجَارةً كَثِيرةً، وإذَا ذَلِكَ السَّابحُ يَسبحُ مَا يَسبحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ الحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ(٢) لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَراً حَجَراً، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ وَأَلْقَمَهُ حَجَراً.

قَالَ: قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ كَأَكْرَهِ مَا أَنْت رَاءٍ رَجُلاً مَرْآةً، فَإِذَا هُوَ عِنْدَ نَارٍ لَهُ يَحُشُّهَا(٣) وَيَسْعَى حَوْلَهَا.

قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْشِبَةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ. وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَانَي الرَّوْضَةِ رَجُلٌ قَائِمٌ طَوِيلٌ لاَ أَكَادُ أَنْ أَرَى رَأْسَهُ طُولاً فِي السَّمَاءِ وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُ قَطُّ وَأَحْسَنِهِ.

قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ وَمَا هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: قَالاَ لِيَ: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ دَوْحَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلاَ أَحْسَنَ. قَالَ:

---

(١) ضوضوا: الضَّوضَى - مَقصُورًا الجَلَبَةُ وأصوات النَّاس لغة في المهموزة - يعني الضوضاء - ورجل مضوّض: مُصوِّت.

(٢) يفغر فاه: يفتحه.

(٣) يحشها: يرقدها.

فَقَالاَ لِيَ: ارْقَ فِيهَا، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا فَانْتَهَيْتُ إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالاً شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ. قَالَ: فَقَالاَ لَهُمُ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ، فَإِذَا نَهَرٌ صَغِيرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّمَا هُوَ المَحْضُ فِي البَيَاضِ. قَالَ: فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، وَقَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ وَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ.

قَالَ: فَقَالاَ لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَ: فَبَيْنَمَا بَصَرِي صُعُداً فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ البَيْضَاءِ قَالاَ لِي: هَذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا ذَرَانِي فَلأَدْخُلُهُ. قَالَ: قَالاَ لِيَ: الآنَ فَلاَ وَأَنْتَ دَاخِلُهُ.

قَالَ: فَإِنِّي رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَباً فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟

قَالَ: قَالاَ لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَيْهِ إِلَى قَفَاهُ وَمِنْخَرَيْهِ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكَذِبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ.

وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي بِنَاءٍ مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحِجَارَةَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي رَأَيْتَ فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَأَمَّا الوِلْدَانِ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ».

قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ وَأَمَّا القَوْمُ الَّذِينَ كَانَ شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَناً وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحاً فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ».

وفي الصحيحين من حديث أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ

مَعَكَ» . قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ». فأنزل الله تصديق ذَلِكَ فِي كتابه: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين من حديث الأعمش، عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ».

وفي النسائي وغيره[1] من حديث بُرَيْدَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ إِلاَّ نُصِبَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقِيلَ لَهُ هَذَا قَدْ خَلَفَكَ فِي أَهْلِكَ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ». فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا ظَنُّكُمْ؟».

ويكفي في قبح الزنى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله، ومن قبحه أن الله سُبْحَانَهُ فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له كما ذكر البخاري في «صحيحه» عن عمرو بن ميمون الأودي قَالَ: رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حَتَّى ماتا وكنت فيمن رجمهما.

عباد الله ...

ويواصل الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - كلامه قائلًا: والزنا يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلت الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله، فالغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته، ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة.

ومنها: سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين.

---

(١) والحديث في «صحيح مسلم» أيضًا.

ومنها: ظلمة القلب وطمس نوره وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له.

ومنها: الفقر اللازم.

ومنها: أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده.

ومنها: أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن.

ومنها: أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»، فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان.

وسُئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخط دائرةً في الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرى خارجةً عنها وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنى العبد خرج من هذه، ولم يخرج من هذه، ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمى مؤمنًا، كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمى به عالمًا فقيهًا، ومعه جزء من الشجاعة والجود ولا يسمى بذلك شجاعًا ولا جوادًا، وكذلك يكون معه شيء من التقوى ولا يسمى متقيًا ونظائره.

فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يتأول بما يخالف ظاهره والله أعلم.

ومنها: أن يعرض نفسه لسكنى التنور الذي رأى النبي ﷺ فيه الزناة والزواني.

ومنها: أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة كما قال الله تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾ [النور: ٢٦].

وقد حرَّم الله الجنة على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب، قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ [الزمر: ٧٣].

فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخول الجنة بطيبهم، والزناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيب

وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم فلا يدخل النار طيب، ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها: الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوة وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش به.

ومنها: قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف فإنه يرزق المهابة والحلاوة.

ومنها: أن الناس ينظرونه بعين الخيانة ولا يأمنه أحد على حرمته ولا على ولده.

ومنها: الرائحة التي تفوح عليه يشمها كل ذي قلب سليم، تفوح من فيه وجسده، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه ولكن كما قيل:

كل به مثلما بي غير أنهم … من غيرة بعضهم للبعض عذال

ومنها: ضيقة الصدر وحرجه؛ فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط، ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعاف أضعاف ما حصل له، دع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته.

ومنها: أن يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن، وقد تقدم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القيامة، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تمتع بالصور المحرمة في الدنيا، بل كل ما ناله العبد في الدنيا فإن توسع في حلاله ضيق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسع فيه، وإن ناله من حرام فاته نظيره يوم القيامة.

ومنها: أن الزنا يجرئه على قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وكسب الحرام وظلم الخلق وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسرًا إلى سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدري أو لا يدري، فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي

قبلها ومعها، ويتولد عنها أنواع أخر من المعاصي بعدها، فهي محفوفة بجند من المعاصي قبلها وجند بعدها، وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عز على الناصحين استنقاذه، وأعيا الأطباء دواؤه، فأسيرها لا يفدى، وقتيلها لا يودى، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتلي بها عبد فليودع نعم الله فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] [١].

فهذا بعض ما في هَذِهِ السبيل من الضَّرر» ا.هـ كلام ابنُ القَيِّم مختصرًا [٢].

عباد الله ...

ويضيف الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله تعالى- في كتابه «الداء والدواء» مزيدًا عَلَى ما تقدَّم فيقول: «ولَـمَّا كانت مفسدةُ الزِّنا من أعظمِ المفاسد، وهي منافيةٌ لمصلحة نظام العالمِ في حفظِ الأنساب، وحمايةِ الفُرُوج وصيانةِ الحرماتِ، وتوقِّي ما يُوقع أعظمَ العداوةِ والبغضاءِ بين النَّاس، من إفساد كُلٍّ مِنهُم امرأةَ صاحِبه وابنته وأخته وأُمّه، وفي ذَلِكَ خرابُ العالم، كانت تَلي مفسدةَ القَتْلِ في الكبرِ، ولهذا قرنها الله سُبْحَانَهُ بها في كتابه ورسولُه ﷺ في سننه.

قال الإمامُ أحمد: ولا أعلمُ بعد قتل النَّفْس شيئًا أعظم مِنَ الزِّنَا.

وقَدْ أكَّد الله سُبْحَانَهُ حرمتَهُ بقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

فقرنه بالشركِ وقتلِ النَّفْس، وجعلَ جزاءَ ذَلِكَ الخلودَ في النَّار في العذابِ

(١) روضة المحبين (ص٣٠٧).

(٢) «روضة المحبين» (٣٢٥ - ٣٣٤) باختصار.

المضاعَفِ، ما لم يرفَع العبدُ مُوجبَ ذَلِكَ بالتوبة والإيمان والعمَلِ الصَّالح.

وَلَـمَّا كان مبدأُ ذَلِكَ مِن قِبَلِ البصرِ جَعل الأمر بِغضِّه مقدَّمًا على حِفظِ الفرجِ، فإنَّ الحوادِث مبدؤُها من النظر، كما أن معظم النَّارِ مِن مستصغَرِ الشَّررِ، فتكونُ نظرةٌ ثم خطرةٌ ثم خطوةٌ ثم خطيئةٌ.

ولهذا قيل: مَن حَفِظَ هذه الأربعةَ أحرزَ دينه: اللَّحظاتِ، والخطراتِ، واللفظاتِ، والخُطُواتِ.

فينبغي للعبد أن يكون بوَّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويُلازِمُ الرِّباطَ على ثُغورِها، فمنها يدخُل عليه العدوُّ فيجوسُ خلالَ الديارِ، ويتّبر ما علا تتبيرًا.

وأكثرُ ما تدخل المعاصي عَلَى العبد من هَذِهِ الأبواب الأربعة، فنذكُر في كلِّ بابٍ منها فصلًا يليقُ به:

فأمَّا اللحظاتُ: فهي رائدة الشهوةِ ورسولُها، وحفظها أصل حفظِ الفرجِ، فمن أطلقَ بصرَه أورد نفسَه مواردَ الهلكاتِ. قَالَ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ**». فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا . قَالَ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ المَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**» قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: «**غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ**»[1].

والنظرُ أصلُ عامَّةِ الحوادِث التي تُصيبُ الإنسانَ، فإنَّ النظرةَ تُولِّد خطرةً، ثُمَّ تولِّد الخطرةُ فكرةً، ثم تولِّد الفكرةُ شهوةً، ثم تولِّد الشهوةُ إرادةً، ثُمَّ تقوى فتصير عزيمةً جازمةً، فيقعُ الفعلُ ولابد، ما لم يَمنَع مِنه مانِعٌ، وفي هذا قِيل: «الصبرُ عَلَى غضِّ البصرِ أيسَرُ مِنَ الصبرِ عَلَى ألم مَا بعدَه».

قَالَ الشاعر:

كُـلُّ الحـوادثِ مـبداها مـن النَّظـرِ ... ومعظـمُ الـنَّارِ مـن مستَـصغَرِ الـشررِ

كـم نظـرةٍ بلغـت من قلبِ صَاحِبها ... كمـبلغ الـسهم بـينَ القـوس والوتـر

---

(١) البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

والعبدُ ما دام ذا طرفٍ يُقلّبهُ في أعين الغيد موقوفٌ عَلَى الخطرِ
يسرُّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَهُ لا مَرحبًا بسُرورٍ عادَ بالضَّررِ

ومن أفاتِ النَّظرِ: أنَّهُ يُورث الحسرات والزَّفراتِ والحرقاتِ، فيرى العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظمِ العذاب أن ترى ما لَا صبر لَكَ عَلَى بعضِه، ولا قُدرةَ لَكَ عَلَى بعضِه.

وأمَّا الخطراتُ: فشأنُها أصعبُ؛ فإنَّها مبدأُ الخيرِ والشرِّ، ومنها تتولَّد الإراداتُ والهممُ والعزائمُ، فمن راعى خطراتِه ملك زمامَ نفسه وقهرَ هَواه، ومن غلبته خطراتهُ فهواه ونفسهُ له أغلبُ، ومن استهان بالخطراتِ قَادَته قهرًا إلى الهلكاتِ.

ولا تَزالُ الخطراتُ تتردَّد عَلَى القَلْبِ حَتَّى تصِير مُنًى باطلةً ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، وأخسُّ النَّاس همَّةً وأوضعُهم نَفسًا مَنْ رَضِي من الحقائقِ بالأمانيِّ الكاذبةِ، واستجلبهَا لنفسِهِ، وتحلَّى بها، وهِي لعمر الله رءوسُ أموالِ المفلسينَ، ومتاجر البطَّالين، وهي قوت النفسِ الفارغةِ التِي قَدْ قنعت من الوصلِ بزورَةِ الخيَالِ، ومِن الحقائق بكواذِب الآمال.

وأمَّا اللفظاتُ: فحفظُها بأن لا يخرج لفظةً ضائعة، بأن لا يتكلمَ إلَّا فيما يرجُو فيه الربحَ والزيادةَ فِي دينه، فإذا أراد أن يتكلَّم بالكلمةِ نَظَر: هل فيها ربحٌ وفائدةٌ أم لَا؟ فإنْ لم يكن فيها ربحٌ أمسكَ عنها، وإنْ كَانَ فِيها ربحٌ نَظَر: هل تفوتُ بِها كلمةٌ هِي أربحُ منها؟ فَلا يضيِّعها بهذِه، وإذا أردتَ أن تستدلَّ عَلَى ما فِي القلبِ فاستدلَّ عليهِ بحركةِ اللِّسانِ، فإنَّه يُطلِعُكَ عَلَى ما فِي القلبِ، شَاء صاحبهُ أم أبى.

قال يحيى بنُ مُعاذٍ: القلوبُ كالقُدورِ تَغلِي بما فيها، وألسنتُها مغارفُها، فانظُر إلى الرَّجُلِ حينَ يتكلَّمُ، فإنَّ لسانه يغترف لك مما فِي قلبِهِ، حلوٌ وحامضٌ، وعذبٌ وأُجاجٌ، وغيرُ ذَلِكَ، ويبيِّن لك طعم قلبه اغترافُ لسانه، أي: كما تطعم بلسانك طعم ما فِي القُدورِ مِنَ الطَّعامِ فتدرك العلمَ بحقيقةِ ذَلِكَ، كذلك تطعَمُ ما فِي قلبِ الرَّجُلِ من لسانِهِ، فتذُوقُ مَا فِي قلبِهِ مِن لسانِهِ، كما تذوقُ ما فِي القِدر بلسانِكَ.

وسُئِل ﷺ عَنْ أكثَرِ ما يُدخِل النَّاس النَّار؟ فقال: «**الفَمُ والفَرْجُ**» (١).

ومِنَ العَجب أنَّ الإنسانَ يهونُ عليهِ التحفُّظُ والاحترازُ من أكلِ الحَرامِ والظلْمِ والزِّنا والسرقة وشُرب الخَمرِ، ومِن النَّظرِ المحرَّم وغيرِ ذَلِكَ، ويصعبُ عليه التحفُّظ مِن حركَةِ لسانِه، حتَّى تَرى الرَّجُلَ يُشارُ إليهِ بالدِّين والزهدِ والعبَادةِ، وهو يتكلَّم بالكلماتِ من سخطِ الله لا يُلقِي لها بَالًا ينزلُ بالكلمةِ الواحِدَةِ منها أبعدَ ممَّا بيْنَ المشرقِ والمغرِبِ، وكَم تَرى مِنْ رَجلٍ متورِّعٍ عَن الفواحِش والظُّلمِ، ولسانُه يفرِي في أعراضِ الأحياءِ والأمواتِ، ولا يُبالي مَا يَقُولُ.

وفي الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**» (٢).

وفي اللِّسَانِ آفتَانِ عظيمتَانِ، إن خلص من إحداهما لم يخلُص مِنَ الأخرَى: آفة الكلام، وآفةُ السكوتِ، وقد يكونُ كُلٌّ منهُما أعظمَ إثمًا مِنَ الأخرى في وقتِها، فالسَّاكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرسُ، عاصٍ لله، مُراءٍ مُداهِنٌ إذَا لم يَخف عَلَى نفسِه، والمتكلِّمُ بالباطِلِ شيطانٌ ناطقٌ عاصٍ لله.

وأكثرُ الخلقِ منحرفٌ في كلامِه وسُكوتِه، فهم بينَ هذينِ النوعينِ، وأهلُ الوسَطِ - وهُم أهلُ الصِّراطِ المُستَقِيم - كَفُّوا ألسنتَهم عَن البَاطِلِ، وأطلقُوها فِيما يعُودُ عليهِم نفعُه في الآخِرةِ، فَلا تَرى أحدَهُم يتكلَّم بكلِمةٍ تذهبُ عليهِ ضائعةً بلا منفعةٍ، فَضلًا أن تضرَّه في آخرَتِه، وإنَّ العبدَ ليأتي يَوم القِيامة بحسناتٍ أمثَال الجبالِ، فيجدُ لسانَه قدْ هدمَها عليهِ كُلَّها، ويأتي بسيئاتٍ أمثالِ الجبالِ فيجدُ لسانَه قدْ هدمَها مِن كثرةِ ذِكرِ الله ومَا اتَّصلَ به.

وأما الخطُواتِ، فَحفظُها بأن لا ينقِل قدَمَه إلَّا فِيما يرجُو ثوابَه، فإنْ لم يكنْ في خُطاهُ مزيدُ ثوابٍ فالقُعودُ عَنْها خيرٌ له، ويمكنه أن يستخرجَ مِن كُلِّ مباحٍ يخطُو إليهِ قُربة ينويها لله، فتقعُ خُطاه قربةً».

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٢) البخاري (٦١١٢)، ومسلم (٢٩٨٨).

عباد الله ...

ويواصل الإمام ابنُ القيِّم - رَحِمَهُ الله - كلامه قائلًا: وهذا كُلُّه ذكرناه مقدمةً بين يدي تحريم الفواحِش ووُجوبِ حِفظ الفرجِ، وقَدْ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أكثرُ ما يُدخِل النَّاسَ النَّار: الفمُ والفرجُ**»[١].

وفي الصحيحين[٢] عنه ﷺ: «**لا يحلُّ دمُ امرئٍ مُسلمٍ إلَّا بإحدَى ثلاثٍ: الثَّيبِ الزاني، والنَّفسِ بالنَّفسِ، والتاركِ لدينهِ المفارقِ للجماعَةِ**».

ومفسدةُ الزنا مناقِضةٌ لصلاح العَالَم.

فكم في الزنا من استحلال حُرمات، وفوَات حُقوقٍ، ووقُوع مظالم؟

ومن خاصيَّتِه: أنَّهُ يُوجِبُ الفقرَ، ويقصِّرَ، العمرَ، ويكسُو صاحِبَه سوادَ الوجه، ويُورِثُ المقتَ بين الناسِ.

ومن خاصيَّته أيضًا: أنَّهُ يشتِّت القلبَ ويُمرضُه إن لم يمِته، ويجلبُ الهمَّ والحزنَ والخوفَ، ويُباعد صاحبه من الملك ويقرِّبه من الشيطان، فليس بعد مفسدةِ القتلِ أعظمُ من مفسدتِه، ولهذا شُرِّع فيه القتل عَلَى أشنَع الوجوهِ وأفحشِها وأصعَبِها، ولو بلَغ العبدَ أنَّ امرأته أو حُرمتَه قُتِلَت، كان أسهلَ عليه من أن يبلُغَه أنها زَنَت.

وقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصَفَّحٍ[٣]. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَاللَّهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»[٤].

وفي الصحيحين[٥] أيضًا عنه ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**».

---

(١) الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٢) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٣) **مصفح**: بضم الميم وفتح الفاء، يُقال: أصفحته بالسيف، إذا ضربته بعرضه دون حده. انظر «النهاية» (٣/ ٣٤). وهو هنا يقصد أنَّهُ سيضربه بحد السَّيف.

(٤) البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٥) البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

وفي الصحيحين[١] أيضًا عنه ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ».

وخصَّ سُبْحَانَهُ حدَّ الزِّنا من بين الحُدود بثلاثِ خصائص:

إحداها: القتلُ فيه بأشنعَ القتلات، وحيثُ خفَّفه جمعَ فيه بين العقوبةِ عَلَى البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنِه سنةً.

الثاني: أنَّهُ نَهى عبادَه أن تأخُذَهم بالزُّناةِ رأفةٌ في دينِه، بحيثُ تمنعُهم من إقامَة الحدِّ عليهم، فإنَّهُ سُبْحَانَهُ مِن رأفَتِهِ ورحمَتِه بهم شرَّع هَذِهِ العقوبةَ فهُو أرْحمُ بِكُم، ولم تمنعه رحمتُه من أمرِه بهذِهِ العقوبةِ، فلا يمنعُكُم أنتم ما يقومُ بقلُوبكُم مِنَ الرأفةِ من إقامَة أمرِه.

الثَّالث: أنَّهُ سُبْحَانَهُ أمرَ أن يكُونَ حدُّهما بمشهدٍ من المؤمنين، فلا يكونُ في خلوةٍ بحيثُ لا يراهُما أحدٌ، وذَلِكَ أبلغُ في مصلحةِ الحدِّ وحكمةِ الزجرِ، وحدُّ الزَّاني المحصَن مشتقٌّ من عقوبة الله تَعَالى لقوم لُوطٍ بالقذفِ بالحجارة، وذَلِكَ لاشتراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كُلٍّ منهُما فَسادٌ يُناقِض حكمة الله في خلقِه وأمره، فإنَّ في اللواط من المفاسِد ما يفوتُ الحصر والتعداد، ولأن يُقتل المفعولُ به خيرٌ له من أن يُؤتى، فإنَّهُ يفسدُ فسادًا لا يُرجى له بعده صلاحُ أبدًا، ويذهبُ خيرُه كلُّه، وتمصُّ الأرضُ ماء الحياءِ من وجهِه، فلا يستحيي بعد ذَلِكَ من الله ولا من خلقِه، وتعمَلُ في قلبه ورحمه نطفةُ الفاعِل ما يعمَلُ السمُّ في البَدنِ». ا.هـ كلام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - مختصرًا.

وللحديث بقية ستأتي بعد قليل - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

---

(١) البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وإضافة لما سبق:

فالزنا ينبوع لأخبث الأمراض وأشدها فتكًا بجسم الإنسان، ومن أخطرها الزهريّ، والسيلان، والقرحة الرخوة، والقرحة الأكالة وغيرها.

الزهري:

أما الزهري فهو كما يقول الدكتور/ محمد وصفي: فإنه ثالث مرض في العالم منوط به إزهاق النفوس وتضييع الأرواح، وأول مرض لا يريح المصاب بالموت حتى يتركه بحال يفتت الأكباد، ويذيب الأفئدة ممثلاً به شرّ تمثيل.

هذا الداء ينتشر في العالم بانتشار فاحشة الزنا، وهذا المرض يعدي بمجرد اللمس عن طريق الزنا أو بمجرد تقبيل المصاب غيره أو ملامسته، وتسببه جرثومة خاصة تسمَّى «الإسبيروشيت باليدا».

وتستطيع أن تلمس حقيقة هذا المرض إذا علمت أَنَّهُ لا يترك جزءًا من أجزاء الجسم حَتَّى يترك فيه آثاره ولا يدع فيه جهازًا حَتَّى يبطل عمله ويفسد وظيفته.

إن ظهور القرحة التآكلية أَوْ التقرحية في موضع الإصابة ما هو إلَّا الإنذار الخطير بغزو الجراثيم لجميع أجزاء الجسم عن طريق الأوعية الدموية جميعًا، ومن ثم يحمر الجلد ويأخذ الاحمرار شكل دوائر وردية لا تلبث أن تأخذ شكلًا خاصًّا يتحول إلى ما يسمى بالزهريات الحبيبية بجميع أشكالها وأنواعها، أَوْ تتحول إلى حويصلات زهرية، فزهريات مللية، والزهريات الحبيبية لا تلبث أن تتقيح سريعًا حَتَّى تكون الربيا الزهرية.

ويظهر كل ذَلِكَ مع تضخم لا يلبث أن يعم غدد الجسم الليمفاوية التي تتقيح سريعًا إذا ما وصلتها الجراثيم العنقودية والسبحية.

وتصيب جلود المرضى بالزهري مظاهر مشوهة لهذا الداء العضال تعمّ جميع سطح الجسم.

كالطفح الزهري الحبيبي والثعباني والنكسي والعقدي، وكالصلع والبهق الزهريين، وذَلِكَ بجانب إصابة الأظافر وجعلها مشوهة هشة سهلة الكسر مثقوبة القاعدة.

وكذلك الأنسجة المحيطة بها لا تنجو من الالتهاب الداحس الزهري، بل هنالك القروح العميقة والأورام الصعبة التي تتغلغل في الجلد حَتَّى تكشف عن العظام وأربطة العضلات وتنتشر في السطح الوحشي للساقين وخلف الفخذين والإليتين، وخلف الساعدين والمرفقين والسطح الوحشي للركبتين والسطح الخارجي للكتف وخلف اليدين وفي السطح الأعلى للقدمين وفي فروة الرأس، فتتلف العضلات وتتفتت العظام وتتساقط شظاياها وتتآكل أجزاؤها ويصاب سمحاقها ونسيجها الداخلي وتغزو الجراثيم مفاصلها فتصيبها بالورم والاستسقاء ويلتهب غشاؤها الزلالي.

ثم قال الدكتور/ مُحَمَّد وصفي بعد أن ذكر الأضرار الفتاكة عن الزهريّ التي تصيب كل عضو من أعضاء الجسم قال: ولعل أقبح الهدايا التي يقدمها الزاني إلى ذريته التعسة ويبليهم بها هي الزهري الوراثي، وإن خطره على النسل ليهدد العالم بشر ما تهدده به الحروب الذرية، وينذره بأشد مما تنذره به البراكين الملتهبة، والزلازل المهلكة، والنكبات العظمى التي لا تبقى ولا تذر، وإنك لتجد (٤٠٪) من وفيات الأطفال في السنة الأولى من سني حياتهم راجعة إلى الزهري الوراثي، وتجد (٦٠٪) من حالات الإجهاض المتكرر في العائلات المصابة بهذا الداء راجعة إليه.

وتجد في كل مائة طفل مولود بزهري وراثي تسعين يموتون، وتجد (٢٠٪) من الحوامل على وجه العموم مصابات به، وتجد ثلاثة عشر لقيطا مصابين بالزهري الوراثي في كل مائة لقيط، بل نستطيع أن نقول إن (٩٩٪) من أولاد المصابين تموت إما أجنة أو بعد الولادة، وذلك مما يبين لنا إلى أي مدى بلغ هدم الزنى للأسر، وفتكه بالذرية والنسل.

وتلحق عوارض الزهري الوراثي الذرية في أي سن من أسنانها، وكثيرا ما كان هذا الداء سببًا في إصابة النسل بالبله والعته والعبط والجنون، وهو ما يعد أبسط المسائل في إصابة النسل، ويعتبر أكثرها حدوثًا.

السيلان:

والسيلان كما يقول الدكتور/ مُحَمَّد وصفي من الأمراض الفتاكة التي تسببها كَذَلِك هَذِهِ الفاحشة.

ويسبب الداء جرثومة خاصة تسمى بالجونوككس.

ولكي تعرف مقدار انتشار هذا المرض في الهيئة الاجتماعية ومبلغ تغلغله في أفرادها يكفيك أن أذكر مثلا من ذلك إحصائيات لندن أن (٦٠٪) من عدد أفرادها البالغين مصابون بهذا الداء ويتراوح عدد المصابين في باريس من (٧٥٪ إلى ٩٠٪)، وفي برلين من (٦٠٪ إلى ٧٠٪) وفي نيويورك تجد في كل مائة شخص ثمانين مصابين بالسيلان، هذا في أرقى البلاد حضارة وأرسخها قدما في علم الطب، وأكبرها ادعاء للمدنية والرقي.

وليس مرض السيلان بالعلة الهينة السهلة، التي لا تسترعى الانتباه بل هو من أكبر المعضلات الاجتماعية الخطيرة، التي حار في علاجها الأطباء والساسة والمشرعون، فهو مرض فتاك، ويترك المصاب به في حالة من الألم والمرض مما يعطل حركته ويشل تفكيره ويجعله في المجتمع عضوا أشل لا فائدة فيه ولا نفع منه، وذلك فوق ما تبتلى به النساء فيجعلهن مستودعًا خطرًا للعدوى وأداة لتشويه النسل، والقضاء على الذرية.

ولقد ثبت أن كل امرأة اتصلت برجل مصاب بهذا الداء لابد أن تصاب هي الأخرى لاستعدادها لقبول العدوى، ولقابلية جهازها التناسلي لاستقبال جراثيمه المرضية، فتفتك به وتعطل وظيفته، إذا لم تفقدها تماما.

إصابة المرأة:

ويصاب مجرى بول المرأة بهذه الجراثيم فيلتهب ويحمر وتتضخم حافتاه، ويظهر القيح السيلاني الكريه الرائحة من فتحته وكثيرًا ما يزمن المرض في هذا المكان حين تختفي جراثيمه في بقع استحالة نسيجية في غشائه ويحدث تليف في غدد ليتر فتضيق فتحة مجرى البول.

وقد يمتد التليف إلى المجري نفسه كذلك، وتصيب جراثيم المرض قناتي سكين اللتين تظهر فتحتاهما على جانبي مجرى البول وكثيرًا ما تكون إصابة هذه القناة سببًا في انتكاس المرض وإزمانه.

والعدوى تمتد من قناة المجرى البولي إلى المثانة فتتعطل وظيفة الجهاز البولي وتشعر المريضة بألم كبير فوق عانتها وميل إلى التبول الكثير مع الألم في كل مرة ونزول نقط دموية إثر تلك الإصابة، ويصيب أعضاء أخرى كثيرة من الجهازين البولي والتناسلي.

وإنه يكاد يكون من المعضلات علاج المرأة المصابة بالسيلان، أو الجزم بخلاصها من هذا المرض الذي يتغلغل هذا التغلغل الغريب في جميع جهازها التناسلي ويكمن في تعاريجه، ويختفي بين طيات أجزائه.

وخذ مثلا من ذلك انفجار الأكياس الصديدية المبعثرة على المبيض أو في الأجزاء المجاورة له.

ويجب ألا يغيب عن البال أن المصابة بالسيلان كثيرًا ما يظن أنها تخلصت من وبائه وهي في الحقيقة حاملة لجراثيمه، تصيب من يتصل بها، ولو تزوجت تعدي زوجها وذلك لظهور المرض عليها ثانيًا، وبرجوع النشاط إلى الجراثيم الكامنة التي قد كان يعوق ظهورها أي سبب من الأسباب كاختبائها في إحدى الغدد كما قدمنا، أو تسترها تحت غشاء استحالة نسيجية ... إلـخ.

وإني أستطيع أن أقول: إن إصابة المرأة بالسيلان وبال عليها وعلى أولادها وعلى زوجها وعلى الهيئة الاجتماعية بأسرها، والمصيبة العظمى أنه ليس من المستطاع أن يحكم أحد فينا على مصابة السيلان أنها شفيت منه، وحسبك كذلك أن تعلم أن الطب لم يتوصل إلى الآن إلى العثور على علاج نوعي لهذا المرض.

إصابة الرجل:

ويصيب السيلان الرَّجُل إصابات بالغة، إذ تلتهب عنده كذلك فتحة البول ويشتد احمرارها، وتصاب حوافيها بالورم، فتنقلب على نفسها وقد تتآكل أطرافها، ثم يمتد الورم في عضو التناسل فيعوق التبول ويشعر المصاب بالآلام المبرحة أثناءه، وتفتك الجراثيم بالغشاء الداخلي للمجرى البولي ويشتد تكاثر الصديد، ثم ينتهي الأمر بضيق المجري وتعذر البول أو امتناعه مطلقًا، وذلك لتكون ألياف خاصة نتيجة الالتهابات في

الطبقة تحت الغشائية للمجرى. وتصاب البروستاتا كذلك بالسيلان إصابة شديدة فتلتهب ويزداد حجمها وتتكون الإفرازات الالتهابية في جيوبها فتنسد وتكون خراجًا لا سبيل إلى التخلص منه إلا بعملية جراحية، ويكفيك أن تعلم أنه في حالة إزمان المرض لا يرجى الشفاء، وكثيرًا ما يستمر علاج هذه الحالة سنوات عديدة قبل الحصول على نتيجة طفيفة وذلك إذا لم تحصل المضاعفات السيلانية الأخرى.

وإصابة البروستاتا خطر كبير على الزاني عامة وعلى جهازه التناسلي خاصة.

وكثيرا ما تصل الجراثيم السيلانية إلى الدورة الدموية أو الدورة الليمفاوية فتصيب حوض الكلية أو حوض الكليتين جميعًا مع أغشيتها المحاطة بالحوض بل قد تصاب كذلك الكليتان بالالتهابات السيلانية فترتفع درجة حرارة الزاني وتعتريه القشعريرة، ويعاني الآلام الظهرية الشديدة، وكثيرًا ما تمتد الإصابة إلى الحوض والكليتين فتصيبهما جميعًا، وحسبك انسداد الحالبين واحتباس البول والتسمم اليوريمي والموت بعد الألم المبرح.

القرحة الرخوة:

والزنى فوق ما يسبب من الزهري والزهري الوراثي والسيلان يعرض الأشرار كذلك للإصابة بالقرحة الرخوة التي تسببها جراثيم خاصة تسمى (باسلات دكري) ويكثر ظهورها في جسم القضيب أو في الصفن أو العانة أو عند فتحة القلفة أو عند تلاقي الحشفة بجسم القضيب أو في الثنية تحت الحشفة.

وفي الإناث يكثر وجودها في الشفرين والشوكة والبطين والفخذين وقرب فتحة الشرج.

والقرحة سريعة العدوى، ويوجد منها نوعان هما:

- القرحة الرخوة المرتفعة.
- والقرحة الرخوة الثعبانية.

وتختلف هذه القرحة عن قرحة الزهري بكونها قابلة للتعدد في نفس المريض بمجرد العدوى الذاتية أو الامتداد، وحسبك أنها كثيرًا ما تسبب الاختناق أو الانكماش كما يحصل في السيلان.

وهذا بجانب تعرض المصاب للغنغرينا والخراجات والأنزفة الدموية وتقيح الغدد الليمفاوية وقنواتها وإتلافها التام للعضو المصاب بها إلى غير ذلك من مختلف الإصابات.

القرحة الأكالة:

والقرحة الأكالة من الأمراض الخطرة التي يحدثها الزنى كذلك، وتمتاز هذه القرحة كما يدل اسمها بشدة تأثيرها وإتلافها المستمر للأنسجة التي حولها مع عدم رضوخها للعلاج، وحسبك عملها على تآكل أعضاء التناسل وإحداثها للأنزفة الدموية والغنغرينا وتسمم الدم، وتهتك الأنسجة المختلفة كالعضل والعظم إلى غير ذلك من سائر الأجزاء.

أمراض الزناة النفسية:

والزنا يحدث في مقترفيه أمراضًا نفسية شاذة، وعللًا جنسية مهلكة، وذَلِكَ لتأثير هذه الجريمة عَلَى المجموعة العصبية، ولانحراف المراكز العليا عن وظيفتها الطبيعية حَتَّى يغدو المرء بممارسة هذه العادة إنسانًا غير طبيعي، ويغدو من الناحية الجنسية عليلًا شاذًّا.

وأمثال هذه الأمراض الجنسية النفسية التي تحيط بالزناة، وتفقدهم رجولتهم: أمراض العنفِ واحتمال الأذى، والعشق الخيالي، والنفور الجنسي، وانعكاس الشعور، وتحقير المرأة، وغيرها من العلل الشاذة.

بل إن الأغرب من ذَلِكَ أن الزنا يوقع مرتكبيه في مرض أشد منه خطورة ألا وهو اللواط، إذ يبلغ الحال بالزاني أن تضطرب أعصابه، ويختل مركز الشعور الجنسي في مخه، ويزداد فساد مزاجه فيصبح لائطًا.

وثبت أن الَّذِي يصاب بداء اللواط سواء عنده فعل، أَوْ فعل به، فيغدو الزاني بما ذكرت وباءًا وشرًّا مستطيرًا.

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿**وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾ [الإسراء: ٣٢]، هذا ما جاء في كتاب القرآن والطب للدكتور مُحَمَّد وصفي ملخصًا.

وهناك أمراض أخرى كثيرة أخطر من الأمراض التي ذكرها، قَدْ كشفها العلم كالإيدز وغيره». ا.هـ[(١)].

---

(١) «الفقه الواضح» د. مُحَمَّد بكر إسماعيل (٢/ ٢١٨ - ٢٢٥)، نقلًا عن كتاب: «القرآن والطب» بتصرّف.

الخطبة الرابعة والعشرون بعد المائة:

٥- علامات القيامة الصغرى

شرب الخمور

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الصُّغرى أيضًا: شرب الخمور.

ويدلّ عَلَى ذَلِكَ الحديث المتقدّم، ونصّه: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ، وَيَثْبُتَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا» والحديث متفقٌ عليه.

ولم يصل الأمرُ في انتشار شرب الخمر إلى حدّ شربها، بل استحلال شربها!!

فعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنْمٍ الأَشْعَرِيُّ رَضِي الله عَنْهُ قال: حَدَّثَنِي أَبُو عَامِرٍ - أَوْ

أَبُو مَالِكٍ - الأَشْعَرِيُّ وَاللهِ مَا كَذَبَنِي: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ[1] وَالحَرِيرَ وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ، يَأْتِيهِمْ - يَعْنِي الفَقِيرَ - لِحَاجَةٍ فَيَقُولُوا: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا. فَيُبَيِّتُهُمُ اللهُ وَيَضَعُ العَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[2].

قَالَ الشيخ حمود التويجري في شرحه لهذا الحديث: «الحِر: هو الفرج، قَالَ الجوهري: الحر - مخفَّف - أصله: حِرْحٌ، لأن جمعه أحراح، والمعنى: أنهم يستحلون الزِّنا».

قَالَ ابن التين: «يريد ارتكاب الفرج بغير حلِّه».

وقال ابن العربي: «يحتمل أن يكون المعنى: يعتقدون ذَلِكَ حلالًا، ويحتمل أن يكون ذَلِكَ مجازًا عَلَى الاسترسال»

قُلت[3]: يعني أنهم يسترسلون في ركوب الفرج الحرام ولبس الحرير وشرب الخمر واستماع المعازف كما يسترسلون في الاستماع بالشيء الحلال، وكلًا الأمرين واقعٌ في زماننا: الاسترسال، واعتقاد الحِلّ، ولاسيما في لبس الحرير وشرب بعض أنواع الخمر واستماع المعازف» ا.هـ[4].

عباد الله ...

ويضاف إلى ما سبق: استحلال الخمر بتغيير اسمها!!

عن أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمر يُسَمُّونَها بِغَيْرِ اسْمِهَا»[5].

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيَسْتَحِلَّنَّ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ بِاسْمٍ يُسَمُّونَهَا إِيَّاهُ»[6].

---

(١) الحر: وهو الفَرج.

(٢) رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به، ووصله الإسماعيلي والطبراني وابن حبان والبيهقي وغيرهم.

(٣) الكلام للشيخ التويجري.

(٤) «إتحاف الجماعة» (٢/ ١٥٧).

(٥) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه وغيرهم.

(٦) رواه أحمد، وقال ابن حجر: سنده جيِّد.

عباد الله...

والخمر هي تلك السوائل المعروفة المعدّة بطرق تخمّر بعض الحبوب أو الفواكه وتحوّل النشا أو السكر التي تحتويه إلى غول - أي: الكحول - بواسطة بعض كائنات حيَّة لها قدرة عَلَى إفراز مواد خاصة يُعدُّ وجودها ضروريًّا في عملية التخمير.

هذا هو التعريف الطبي للخمر، وقَدْ سُميِّت خمرًا لأنَّها تخمِّر العقل وتستره، أو لأنَّها تركت حَتَّى تقادمت واختمرت، أو لأنَّها تخامر العقل أي: تخالطه.

وهي بهذا التعريف تشمل جميع المسكرات المعروفة قديمًا وحديثًا، فكل ما أسكر فهو خمر، كما قَالَ جمهور الفقهاء: بِغض النظر عن المادة التي أُخذت منها، وما أسكر كثيره فقليله حرام، فإن الشارع لا يفرق بين المتماثلات، فلا يفرق بين شراب وشراب ما دام كل منهما يخامر العقل ويخالطه ويضر به وبالبدن ضررًا محققًا، ولكن يسوي بينهما في الحكم لاشتراكهما في العلة فَإِذَا كان قَدْ حرَّم القليل من أحدهما فإِنَّهُ يحرِّم القليل من الآخر المماثل له.

وقَدْ جاءت النصوص الصحيحة صريحة في ذَلِكَ:

منها: ما رواه أحمد وأبو داود عن ابن عُمر أنَّ النَّبيّ ﷺ قَالَ: «كُل مُسكر خَمر، وكُل خمر حرام».

وروى البخاري ومسلم عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - عَلَى مِنْبَرِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ وَهْيَ مِنْ خَمْسَةٍ: مِنَ العِنَبِ، وَالتَّمْرِ، وَالعَسَلِ، وَالحِنْطَةِ، وَالشَّعِيرِ، وَالخَمْرُ مَا خَامَرَ العَقْلَ.

هذا الَّذِي قاله أمير المؤمنين وهو القول الفصل؛ لأَنَّهُ أعرف باللغة وأعلم بالشرع، ولم ينقل أن أحدًا من الصحابة خالفه فيما ذهب إليه[١].

ومن المعلوم أن الخمر قَدْ حُرِّمت عَلَى كل مكلف بالكتاب والسُّنة وإجماع الأُمَّة، فمن شكّ في تحريمها فهو كافر مرتد.

أما الكتاب: فقوله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالـمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ

(١) «الفقه الواضح» (٢/ ٢٧٩، ٢٨٠).

وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

أما السُّنة: فقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة بتحريمها، ولعن شاربها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وحاملها وبائعها وشاربها وكل من سعى في صنعها وأسهم في تعاطيها، فمن الأحاديث:

ما رواه ابن ماجه والترمذي عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا وَالمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالمُشْتَرِيَ لَهَا، وَالمُشْتَرَاةَ لَهُ».

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ**».

وأما الإجماع: فقد انعقد عَلَى تحريم كل مُسكر، ولم يخالف في ذَلِكَ أحد من أهل العلم.

وقَدْ ورد أن قومًا شربوا الخمر في جيش أبي عبيدة بن الجراح وهم في الشام لقتال الروم، فلما نهوا عن ذَلِكَ قالوا: إن الله لم يحرِّم الخمر تحريمًا باتًّا وإنَّما خيَّرنا فاخترنا إذ قَالَ: ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ [المائدة: ٩١].

فكتب أبو عُبيدة إلى عُمر بن الخطَّاب في شأنهم، فكتب إليه عُمر رَضِيَ الله عَنْهُ يقول: سلهم: الخمر حلال أم حرام؟ فإن قالوا: هي حلال فاقتلهم، وإن قالوا: هي حرام: فاجلدهم. فسألهم أبو عُبيدة، فقالوا: هي حرامٌ، فجلدهم.

ولو قالوا مقالتهم الأولى لقتلهم، لأنهم أحلوا ما حرَّم الله في كتابه العزيز، ومَن أحل ما حرَّم الله فهو مرتد، يُقتل كُفرًا إن لم يتب من ذَلِكَ[1].

عباد الله ...

ويضاف للتحريم، وما يترتب عليه من وعيد: الأضرار البدنية والمالية والأخلاقية، التي يسببها شرب الخمر.

---

(١) «الفقه الواضح» (٢/ ٢٨٢، ٢٨٣).

جاء في كتاب «الغذاء والدواء في القرآن الكريم» وفي كتاب «القرآن والطب»: إن ضررها عَلَى أجزاء الجسم وأعضائه كبير ووخيم، يتمثل في الحقائق العلمية الآتية:

١- التأثير عَلَى الجهاز الهضمي:

تهيج الخمر الغشاء المخاطي للمعدة، وتغيّر طبيعة العصير المعدي، وتذكر كتب علم المادة الطبية في تأثير الكحول عَلَى المعدة: أن الكحول لا يسبب إفراز العصارات المعوية النشطة الفعالة، ولكنه يساعد عَلَى إفراز كمية أكبر قليلًا من الحامض لا غير، ويشل الإفراز المعدي، ويحدث ضمورًا في الغدد المعدية، والخمر تؤثر عَلَى الزلاليات في المعدة (كاللحوم) فيجمدها، وكذلك يفعل مَعَ الببسين في العصارة المعدية، وتنصح كتب علم المادة الطبية بل تأمر بعدم استعمال الخمر في حالات التهاب المعدة.

والخمر بجانب ذَلِكَ يبلغ تأثيرها إلى مدى يجف معه الفم، وتعوق إفراز اللعاب، وهكذا نرى كيف تحدث الخمر سوء الهضم، وتسبب القيء والتهوع، وتصيب المعدة بالتمدد، وتغير طعم الفم، إلى غير ذَلِكَ من المضار.

٢- التأثير عَلَى الجهاز الدموي والتنفسي:

يظن كثير من الجهلاء أن الدليل عَلَى فائدة الخمر للصحة؛ ما يشاهدونه من تورد خدود شاربي الخمر واحمرارها وامتلائها بالدم!! ألا فليعلم هؤلاء أن احتقان وجوههم ما هو إلَّا مرض وحادث غير طبيعي في بدنهم، لأن الخمر تحدث تمددًا كبيرًا في الأوعية الدموية التي عَلَى سطح الجسم فيندفع إليها الدم، ويقل الدم الموجود في الأوعية التي في الداخل بانكماشها، وهكذا تختل الدورة الدموية، كما تسبب الخمر ارتفاعًا في ضغط الدم وسرعة في النبض وفي ضربات القلب، ويضعف القلب نتيجة لتوالي تأثير الخمر عليه وعلى الضغط الدموي الَّذِي يرتفع ثم يهبط، كما تحدث في الجهاز التنفسي تأثيرات وأعراض عديدة، من بينها الالتهابات الشديدة المتواصلة في القصبة الهوائية والرئتين، مِمَّا يسبب ضعفها واحتمال تعرضها للأمراض الصدرية، وقَدْ يسبب الكحول تسكين آلام الذبحة الصدرية، ولكن هذا التأثير المسكّن راجع إلى تخدير مركزي وليس إلى توسيع الأوعية.

٣- التأثير عَلَى الكُلى:

يتبع تناول الخمر إفراز كمية كبيرة من البول شديدة الحموضة، ويرجع ذَلِكَ إلى تثبيط الأعصاب المركزية وليس إلى تأثيرها عَلَى الكُلى، ولِذَلِكَ لا يعتبر مدرًا للبول، وإذا زادت الكمية يكثر إفراز الماء من الكلى بينما يقل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم، ويرجع ذَلِكَ إلى إضعاف إفرازات الغدة الكظرية.

إن تناول الخمر لِما فيها من الكحول يزيد في إفراز كمية البول وزيادة حجمة، إلَّا أَنَّهُ يكون شديد الحموضة قليل الملوحة، فهو يزيد في إفراز الماء في البول ويقلل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم، حيث إنه يقلل من إفرازات الكظرة (الغدة فوق العكوة) التي تعمل إفرازاتها عَلَى تنظيم وتنسيق إفراز الأملاح في البول.

٤- التأثير عَلَى الكبد:

تسبب الخمر تأثيرًا سامًّا مباشرًا عَلَى الكبد، وقَدْ يحدث التأثير السام في غضون أربع ساعات من تعاطيها، وتهبط كمية الجليكوجين في الكبد، وتزيد الدهنيات، وتهبط كفاءة تمثيل الجلاكتوز، مِمَّا يدل عَلَى فساد في وظائف الكبد ويعقب ذَلِكَ تضخمه وتشحمه وقلة إفرازه، ثم تليف الكبد وعدم مقدرته عَلَى القيام بوظائفه الحيوية.

٥- التأثير عَلَى الجهاز العصبي المركزي:

من أخطر مضار الخمر سواء ما كان منها كحوليًا أو مخدرًا، كالأفيون والحشيش؛ أنها تؤثر عَلَى الجهاز العصبي وتضعف مراكز المخ العليا الراقية التي تميز الإنسان عن الحيوان.

وأما الشعور الكاذب بالمرح والسعادة الَّذِي يحدث لشارب الخمر فهو شعور كاذب عارض، حيث لا يلبث الحال أن ينعكس فيحدث الخمول في هَذِهِ الأعصاب وينتهي الأمر بتخديرها وتعطيل عملها، ومن ثم تفسد أجهزة الجسم فتصاب المعدة بالآلام والقرحات وتضعف خلايا الكبد والكلى، وتؤدي إلى أمراض الكبد والكلى وتليفها، ويحدث التهاب الأعصاب وتتدهور القوة العقلية ويضطرب الإحسان وقَدْ يعقبه الموت.

والخمر تبعد شاربها عن كل القيم الإنسانية التي يجب أن يتحلى بها الإنسان، وللخمر آثار وبيلة عَلَى المجتمع، فمنها مثلًا: الضعف البدني، والفساد الخُلُقي، وكثرة الإصابة بالأمراض، خاصة الأمراض العصبية والعيوب الخلقية، وتدفع إلى الإجرام، كما أن لها أثرًا سيئًا في العلاقات العائلية، لأن الزوج السكير زوج غير صالح وأب غير سليم، فيرث نسله منه غيه وضعفه ووهنه، وقَدْ وجد أن كثيرًا من حوادث المرور سببها شرب الخمر.

كما أن الانحرافات النفسية والاضطرابات العقلية وفقد القدرة عَلَى العمل، والتعرض للالتهابات الرئوية، وكذلك ما تؤدي إليه الخمر من جمود العاطفة، وعدم التبصر في العواقب، ومن الإحصائيات وجد أن ١٧٪ من المحكوم عليهم بالإعدام كان إجرامهم من الخمر، و٤٩٪ من حوادث السرقات، و١٥٪ من المشاحنات والعراك سببها الخمر». ا.هـ.

عباد الله ...

هَذِهِ بعض أضرار وأخطار الخمور، وسيأتي بعد قليل المزيد إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبالجملة، فالخمر هي الدافع الأساسي لجميع الموبقات.

ويجب أن نعرف أن الزنا والخمر صنوان، وتحف بهما كل الرذائل المعروفة في العالم؛ كالدعارة والقوادة، والفُحش والفُجور، وضعف الخُلق وفساد النَّفْس، والخُبث والغدر، والنفاق والخديعة والرياء، إلى غير ذَلِكَ من الصفات الخُلُقية الدنيئة، وإنك لا تجد مجرمًا لا يسكر، ولا تجد سكيرًا غير مجرم، وهل تجد في العالم من سبب لجميع الموبقات غير الخمر؟!

وقال الصحاح بن مزاحم يومًا لرجل يسكر: ما تصنع بالنبيذ؟ فقال: إِنَّهُ يهضم طعامي، قال: إِنَّهُ يهضم من دينك وعقلك أكثر.

وقيل للعباس بن مرداس: لِمَ تركت الشراب وهو يزيد في سماحتك؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم.

وقَدْ علمت أن الخمر لا تهضم الطعام أَوْ تزيد السماحة، والعاقل لا يصاحب شارب الخمر ولا يخالطه، ولا يرتبط معه بصلة، إذ تكفي سفالة وسطه وفسد نفسه، وانهيار أخلاقه، وتوقع غدره، وفقد الثقة به وحيوانيته، وما فيه من الشذوذ والأمراض النفسية والجنسية.

عباد الله ...

وعن أضرار الخمر يحدِّثنا عثمان بن عفان رَضِي الله عَنْهُ فيقول: «اجْتَنِبُوا الخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الخَبَائِثِ، إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلاَ قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّا نَدْعُوكَ لِلشَّهَادَةِ، فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلاَمٌ وَبَاطِيَةُ خَمْرٍ، فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا دَعَوْتُكَ لِلشَّهَادَةِ وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ أَوْ تَشْرَبَ مِنْ هَذِهِ الخَمْرَةِ كَأْسًا أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الغُلاَمَ.

قَالَ: فَاسْقِينِى مِنْ هَذَا الخَمْرِ كَأْسًا، فَسَقَتْهُ كَأْسًا. قَالَ: زِيدُونِى، فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَقَتَلَ النَّفْسَ، فَاجْتَنِبُوا الخَمْرَ فَإِنَّهَا وَاللَّهِ لاَ يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الخَمْرِ إِلاَّ لَيُوشِكُ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ»[1].

عباد الله ...

وأخطر من ذَلِكَ: سوء المصير الَّذِي ينتظر شارب الخمر، إذا لم يتب.

فعَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بن العاص رَضِيَ الله عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِى وَهُوَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ شُرْبَهَا فِى الجَنَّةِ، وَمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِى وَهُوَ يَتَحَلَّى الذَّهَبَ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ لِبَاسَهُ فِى الجَنَّةِ**»[2].

---

(١) أخرجه النسائي (٨/ ٣١٥)، وغيره، وقال محقق «جامع الأصول» (٥/ ١٠٣): إسناده صحيح.
(٢) رواه أحمد وغيره، وقال الشيخ أحمد شاكر (١١/ ١٥١): إسناده حسن.

وعَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**ثَلاَثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الجَنَّةَ؛ مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَالعَاقُّ، وَالدَّيُّوثُ الَّذِى يُقِرُّ فِى أَهْلِهِ الخَبَثَ**»[١].

وفي المقابل؛ مَن ترك الخمر وهو يقدر عليه، فثوابه: الشرب من حظيرة القدس.

وعن أنس رَضِي الله عَنْهُ أنَّ رَسُول الله ﷺ قال: «**قال الله عَزَّ وَجَلَّ: مَن ترك الخمر وهو يقدر عليه لأسقينه منه في حظيرة القُدس**[٢]**، ومَن ترك الحرير وهو يقدر عليه لأكسونه إيَّاه في حظيرة القدس**»[٣].

۞۞۞۞۞

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وانظر «صحيح الجامع» (٣٠٥٢).

(٢) **حظيرة القدس**: أي نعيم الجَنَّة.

(٣) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٦٢): رواه البزار بإسناد حسن.

الخطبة الخامسة والعشرون بعد المائة:

٦- علامات القيامة الصغرى

(أ) اكتفاء الرِّجال بالرِّجال

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الصُّغرى: ظهور فعل قوم لوط «إتيان الذكور».

عن عُتَيٍّ السَّعدي قال: «خرجت في طلب العلم حَتَّى قدمت الكوفة، فإذا أنا بعبد الله بن مسعود بين ظهراني أهل الكوفة فسألت عنه فأُرشدت إليه، فإذا هو في مسجدها الأعظم فأتيته فقلت: يا أبا عبد الرحمن إني جئت أضرب إليك أقتبس منك علمًا لعل الله أن ينفعنا به بعدك؟ فقال لي: مِمَّن الرجل؟ فقلت: رجل من أهل البصرة.

قال: ممَّن؟ قلت: مِن هذا الحي من بني سعد، فقال لي: يا سعدي لأحدثن فيكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: يا رسول الله ألا أدلك على قوم كثيرة أموالهم كثيرة شوكتهم تصيب منهم مالًا دثرًا - أو قال: كثيرًا؟- فقال: «من هم؟» فقال: هم هذا الحي من بني سعد من أهل الرمال، فقال رسول الله ﷺ: **«فإن بني سعد عند الله ذو حظ عظيم»**.

سل يا سعدي، فقلت: يا أبا عبد الرحمن هل للساعة من علم تعرف به؟ وكان متكئا فاستوى جالسًا فقال: يا سعدي سألتني عما سألت عنه رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله هل للساعة من علم تُعرف به؟ فقال لي: **«يا ابن مسعود إن للساعة أعلامًا وإن للساعة أشراطًا، ألا وإن مِن أعلام الساعة وأشراطها أن يكون الولد غيظًا وأن يكون المطر قيظًا وأن تفيض الأشرار فيضًا.**

يا ابن مسعود إنَّهُ مِن أعلام السَّاعة وأشراطها أن يُصدق الكاذب وأن يُكذب الصادق.

يا ابن مسعود إنَّ مِن أعلام السَّاعة وأشراطها أن يؤتمن الخائن وأن يخون الأمين.

يا ابن مسعود إنَّ مِن أعلام السَّاعة وأشراطها أن تواصل الأطباق، وأن تقطع الأرحام.

يا ابن مسعود إنَّ مِن أعلام السَّاعة وأشراطها أن يسود كل قبيلة منافقوها وكل سوق فجارها.

يا ابن مسعود إنَّ من أعلام الساعة وأشرطها أن تزخرف المساجد وأن تخرب القلوب.

يا ابن مسعود إنَّ من أعلام الساعة وأشراطها أن يكون المؤمن في القبيلة أذلّ من النقد.

يا ابن مسعود إنَّ من أعلام الساعة وأشراطها أن يكتفي الرِّجال بالرِّجال والنِّساء بالنِّساء.

يا ابن مسعود إنَّ من أعلام الساعة وأشراطها ملك الصبيان، ومؤامرة النساء.

يا ابن مسعود إنَّ مِن أعلام الساعة وأشراطها أن تكثف المساجد وأن تعلو المنابر.

يا ابن مسعود إنَّ من أعلام الساعة وأشراطها أن يعمر خراب الدنيا ويخرب عمرانها.

يا ابن مسعود إنَّ من أعلام الساعة وأشراطها أن تظهر المعازف، والكبر، وتشرب الخمور.

يا ابن مسعود إنَّ من أعلام الساعة وأشراطها الشرّ والغمازون واللمازون.

يا ابن مسعود من أعلام الساعة وأشراطها أن يكثر أولاد الزنا».

قلت: أبا عبد الرحمن وهم مسلمون؟ قال: نعم، قلت: أبا عبد الرحمن والقرآن بين ظهرانيهم؟ قال: نعم، قلت: أبا عبد الرحمن وأنى ذاك؟ قال: يأتي على الناس زمان يطلق الرجل المرأة ثم يجحد طلاقها فيقيم على فرجها فهما زانيان ما أقاما».

رواه الطبراني في الأوسط والكبير، قال الهيثمي: وفيه سيف بن مسكين، وهو ضعيف.

قلت: وله شواهد تقويه.

وأيضًا، فقد ظهر مصداق أكثر ما ذُكر فيه، وشهد الواقع بخروجه من مشكاة النبوّة، والله أعلم[1].

وقَدْ رواه ابن النجار في ترجمة مُحَمَّد بن علي المحاملي من طريق سيف بن مسكين، وفيه زيادة ونقص، ولفظه: قال: خرجت في طلب العلم فَقَدِمتُ الكوفة، فإذا أنا بابن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ فقلت له: هل للساعة من عَلَم تُعرف به؟ قال: سألت رَسُول الله ﷺ عن ذَلِكَ فقال: «**مِن أعلام الساعة: أن يكون الولد غيظًا، والمطر قيظًا، وتفيض الأشرار فيضًا، ويصدَّق الكاذب ويُكذَّب الصادق، ويؤتمن الخائن، ويخوَّن الأمين، ويسود كل قبيلة منافقوها، وكل سوق فجَّارها، وتزخرف المحاريب وتخرب القلوب، ويكتفي النساء بالنساء، والرجال بالرجال، ويخرب عمران الدُّنْيَا، ويعمر خرابها، وتظر الغيبة وأكل الربا، وتظهر المعازف، والكَبَر، وشرب الخمر، ويكثر الشرط، والغَمَّازون، والهَمَّازون**».

ورواه البيهقي في كتاب «البعث والنشور» بنحوه، ثم قال: هذا إسناد فيه ضعف، إلَّا أن كثيرًا من ألفاظه قَدْ روي بأسانيد أخر متفرقة.

---

(١) هذا كلام الشيخ حمود التويجري في «إتحاف الجماعة» (٢/ ١٨، ١٩).

وقال ابن كثير: لهذا الحديث شواهد كثيرة. انتهى[١].

قوله: «**أن تواصل الأطباق**» يعني: البعداء والأجانب، قاله ابن الأثير وابن منظور.

و«**النقد**»: صغار الغنم.

و«**الكَبَر**» بفتح الكاف والباء: هو العود، وقيل: الدف، وقيل: هوالطبل ذو الرأسين، وقيل: الطبل الَّذِي له وجه واحد.

قوله: «**ويكثر الهمَّازون والغمَّازون واللمَّازون**» قال الجوهري: الهمز مثل اللمز، والهامز والهمَّاز: العيَّاب، والهُمَزَة مثله، يُقال: رجل هُمَزَة، وامرأة هُمَزَة. وقال ابن الأثير: الهمز: الغيبة والوقيعة بين النَّاس وذكر عيوبهم، وقَدْ همز يهمز فهو همَّاز، وهُمَزَة للمبالغة. وقَدْ ذكر ابن منظور في «لسان العرب» نحو هذا عن الليث، قال: والهُمَزَة: الَّذِي يخلف النَّاس من ورائهم ويأكل لحومهم، وهو مثل العُيَبَة، ويكون ذَلِكَ بالشدق والعين والرأس. ا.هـ.

وأما الغمز، فقال الراغب الأصفهاني: أصله الإشارة بالجفن أَوْ اليد طلبًا إلى ما فيه معاب، ومنه قيل: ما في فلان غميزة، أي: نقيصة مشار بها إليه.

وقال ابن منظور: الغمز: الإشارة بالعين والحاجب والجفن. قَالَ: والمغموز: المتهم. انتهى.

وأما اللمز، فقال الراغب الأصفهاني: هو الاغتياب وتتبع المعاب، ورجلٌ لَمَّاز ولُمَزَة: كثير اللمز. وقال الجوهري: اللمز: العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، ورجل لَمَّاز ولُمزة: أي: عيَّاب.

وقال ابن منظور: اللمز كالغمز في الوجه، تلمزه بفيك بكلام خفي، ورجل لمزة: يعيبك في وجهك، ورجل همزة: يعيبك بالغيب.

قَالَ الزجاج: الهمزة اللمزة: الَّذِي يغتاب النَّاس ويغضهم، وكذلك قَالَ ابن السكيت، ولم يفرق بينهما.

وقال ابن منظور أيضًا: واللمز: العيب في الوجه، وأصله الإشارة بالعين والرأس

---

(١) «إتحاف الجماعة» (٢/ ١٩).

والشفة مَعَ كلام خفي، وقيل: هو الاغتياب. قَالَ: ورجل لَمَّاز ولُمَزة: أي: عيَّاب، وكذلك امرأة لُمَزَة، والهاء فيهما للمبالغة لا للتأنيث.

ونقل عن الليث أَنَّهُ قَالَ: الهمَّاز والهمزة: الَّذِي يهمز أخاه في قفاه من خلفه، واللمز في الاستقبال.

وعن ابن الأعرابي: الهمَّازون: العيَّابون في الغيب، واللمَّازون: المغتابون بالحضرة.

وقال أبو إسحاق الزَّجَّاج: الهمزة اللمزة: الَّذِي يغتاب النَّاس ويغضهم، وأنشد:

إذا لَقِيتُكَ عَن شَحطٍ تُكاشِرُني وإن تَغَيَّبتُ كُنْتَ الهامِزَ اللُّمَزَه

عباد الله ...

إن فعل قوم لوط ينافي الفطرة التي فطر الله النَّاس عليها، وينحط بأصحابه إلى درجة تزول معها كُلُّ ما يعتز به الإنسان من قيم، إذ ينحرف بهذا العمل عن كل جادة، ويتجرّد من كل خُلُق نبيل، وينسلخ عن إنسانيّته ليكون مخلوقًا شاذًّا تأبى البهائم أن تكون من فصيلته.

وما رأيتَ قومًا أزراهم الله ووصفهم بأقبح الأوصاف وأنزل بهم أقصى العقوبات مثل قوم لوط.

فقد وصفهم الله بالفسق والظلم والإسراف والإفساد في الأرض، والاعتداء عَلَى حرمات الله، إلى غير ذَلِكَ من الأوصاف المنكرة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الـمُجْرِمِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٠- ٨٤].

وقال تَعَالَى: ﴿**وَلَـمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى**

رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٧- ٨٣]

وَقَدْ قصّ الله نبأهم في أكثر من موضع في كتابه العزيز ليكون عظة وعبرة لأولئك الذين شذت طباعهم وانقلبت أوضاعهم وانتكست فطرتهم بإتيان هَذِهِ الفاحشة التي تستنكرها العقول السليمة وتستهجنها الطباع المستقيمة وتنبو عن ذكرها الألسنة.

ولتكون قصتهم حافزًا للأخيار عَلَى محاربة أولئك المفسدين في كل واد ينزلون به حتَّى تطهر الأرض منهم ومن خبثهم ودنسهم وإفسادهم للطبع والطبيعة والأخلاق». هـ[١].

عباد الله ...

يقول الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله تَعَالَى - في «روضة المحبين»[٢] - عمَّا حلّ بقوم لوط من العذاب والنكال - ما مختصره -:

وأما سبيل الأمة اللوطية فتلك سبيل الهالكين المفضية بسالكها إلى منازل المعذبين الذين جمع الله عليهم من أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم، لا من تأخر عنهم ولا من تقدم، وجعل ديارهم وآثارهم عبرةً للمعتبرين، وموعظةً للمتقين.

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة، فجمع أبوبكر ﷺ لذلك ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم علي بن أبي طالب ﷺ فاستشارهم، فكان علي ﷺ أشدهم قولاً فيه فقال: إن هذا لم يعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة فصنع الله بهم ما قد علمتم، أرى أن تحرقوه بالنار، فأحرقوه بالنار.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ وجماعة من الصحابة والتابعين: يرجم بالحجارة حتى

(١) «الفقه الواضح» (٢/ ٢٢٦، ٢٢٧).
(٢) (ص٣٣٤ - ٣٤٣).

يموت أحصن أولم يحصن، ووافقه على ذلك الإمام أحمد وإسحاق ومالك، وقال الزهري: يرجم أحصن أولم يحصن، سنة ماضية، وقال جابر بن زيد في رجل غشي رجلاً في دبره قال: الدبر أعظم حرمةً من الفرج، يرجم أحصن أولم يحصن، وقال الشعبي: يقتل أحصن أولم يحصن.

وسئل ابن عباس عن اللوطي[1] ما حده؟ قال ينظر أعلى بناء في المدينة فيرمى منه منكسًا ثم يتبع بالحجارة، ورجم علي لوطيًا وأفتى بتحريقه، وكأنه رأى جواز هذا وهذا.

وقال إبراهيم النخعي: لوكان أحد ينبغي له أن يرجم مرتين لكان ينبغي للوطي أن يرجم مرتين، وذهبت طائفة إلى أنه يرجم إن أحصن ويجلد إن لم يحصن، وهذا قول الشافعي وأحمد في رواية عنه، وسعيد بن المسيب في رواية عنه، وعطاء بن أبي رباح.

وقال عطاء: شهدت ابن الزبير أتي بسبعة أخذوا في اللواط: أربعة منهم قد أحصنوا، وثلاثة لم يحصنوا، فأمر بالأربعة فأخرجوا من المسجد الحرام فرجموا بالحجارة، وأمر بالثلاثة فضربوا الحد وفي المسجد ابن عمر وابن عباس، فالصحابة اتفقوا على قتل اللوطي وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فظن بعض الناس أنهم متنازعون في قتله ولا نزاع بينهم فيه إلا في إلحاقه بالزاني أوقتله مطلقًا.

وقد اختلف الناس في عقوبته على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها أعظم من عقوبة الزنى كما أن عقوبته في الآخرة أشد، **الثاني**: أنها مثلها. **الثالث**: أنها دونها، وذهب بعض الشافعية إلى أن عقوبة الفاعل كعقوبة الزاني، وعقوبة المفعول به الجلد مطلقًا بكرًا كان أوثيبًا قال: لأنه لا يلتذ بالفعل به بخلاف الفاعل.

وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا حد على واحد منهما قال: لأن الوازع عن ذلك ما في الطباع من النفرة عنه واستقباحه، وما كان ذلك لم يحتج إلى أن يزجر الشارع عنه بالحد كأكل العذرة والميتة والدم وشرب البول، ثم قال هؤلاء: إذا أكثر منه اللوطي فللإمام قتله تعزيرًا، صرح بذلك أصحاب أبي حنيفة.

---

(١) الأَوْلى أن يُقال: سُئل ابن عَبَّاس عمَّن عمل بعمل قوم لوط، كما نصّت الأحاديث كما سيأتي.

والصحيح أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزاني لإجماع الصحابة على ذلك ولغلظ حرمته وانتشار فساده، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أمةً ما عاقب اللوطية.

قال ابن أبي نجيح في تفسيره عن عمرو بن دينار في قوله تعالى: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِينَ**﴾ [العنكبوت: ٢٨] قال: ما نزل ذكر على ذكر حتى كان من قوم لوط.

وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن كعب قال: كان إبراهيم يشرف على سدوم فيقول: ويل لك سدوم يومًا مالك، فجاءت إبراهيم الرسل وكلمهم إبراهيم في أمر قوم لوط قالوا: ﴿**يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**﴾ [هود: ٧٦] قال: ﴿**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا**﴾ [هود: ٧٧] فذهب بهم إلى منزله، فذهبت امرأته ﴿**وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ**﴾ [هود: ٧٨] فقال: ﴿**يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾ [هود: ٧٨]، أزوجكم بهنَّ، ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ**﴾ [هود: ٧٨]؟

وجعل لوط الأضياف في بيته وقعد على باب البيت وقال: ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [هود: ٨٠] قال: أي عشيرة تمنعني قال: ولم يبعث نبي بعد لوط إلاَّ في عز من قومه، فلما رأت الرسل ما قد لقي لوط في سببهم ﴿**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**﴾ [هود: ٨١].

فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربةً طمست أعينهم قال: والطمس أن تذهب حتى تستوي، واحتمل مدائنهم حتى سمع أهل سماء الدنيا نبيح كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم قلبها وأمطر الله عليهم حجارةً من سجيل قال: على أهل بواديهم وعلى رعاتهم وعلى مسافريهم، فلم ينفلت منهم إنسان، وقال مجاهد: نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فرفعها حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب وأصوات الدجاج والديكة، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم أتبعوا بالحجارة.

وقال حذيفة بن اليمان: لما أرسلت الرسل إلى قوم لوط لتهلكهم قيل لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات، وطريقهم على إبراهيم قال: فأتوا

إبراهيم فبشروه بها بشروه ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤].

قال: كان مجادلته إياهم أن قال لهم: إن كان فيهم خمسون أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أفرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا: لا، قال فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى انتهى إلى عشرة أو خمسة، فأتوا لوطًا وهو في أرض يعمل فيها فحسبهم ضيفًا، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله فأتوا معه فالتفت إليهم فقال: أما ترون ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قال: ما من الناس أحد شر منهم.

قال: فانتهى بهم إلى أهله فانطلقت العجوز السوء امرأته فأتت قومه فقالت: لقد تضيف لوطًا الليلة قوم ما رأيت قط أحسن وجوهًا ولا أطيب ريحًا منهم، فأقبلوا يهرعون إليه حتى دفعوا الباب ثم كادوا أن يقلبوه عليهم، فقام ملك بجناحه فصفقه دونهم ثم أغلق الباب ثم علوا الأجاجير فجعل يخاطبهم فقال: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٧٨- ٨١].

فطمس جبريل أعينهم فما بقي أحد منهم تلك الليلة حتى عمي قال: فباتوا بشر ليلة عميًا ينتظرون العذاب، قال: وسار بأهله واستأذن جبريل عليه السلام في هلاكهم فأذن له، فارتفع بالأرض التي كانوا عليها فألوى بها حتى سمع أهل السماء الدنيا ضغاء كلابهم، وأوقدوا تحتها نارًا ثم قلبها بهم قال: فسمعت امرأته الوجبة[1] وهي معه فالتفتت فأصابها العذاب.

وذكر ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال: إن الملائكة حين دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم وحرص على كرامتهم، وخالفته امرأته إلى فساق قومه فأخبرتهم أنه ضاف لوطًا أحسن الناس وجهًا وأنضرهم جمالاً وأطيبهم ريحًا فكانت هذه خيانتها التي ذكر الله عز وجل في كتابه.

---

(١) الوجبة: هي صوت الهدة.

وفيه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] قال: والله ما زنتا ولا بغت امرأة نبي قط فقيل له: فما كانت خيانة امرأة نوح وامرأة لوط؟ فقال: أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل على الضيف.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي عمل قوم لوط**»[1].

وعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الأَرْضِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَهَ أَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ**»[2].

وفي «المسند» و«السنن» من حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتلوا الفاعل والمفعول به**» وفي لفظ «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**» وإسناده على شرط البخاري[3].

وحرق اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء: أبوبكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك. وقال سعيد بن المسيب: عندنا على اللوطي الرجم أحصن أولم يحصن سنة ماضية، وهذا يدل على أن ذلك سنة مضى عليها العمل.

وقال الشعبي: يقتل أحصن أَوْ لم يحصن.

وقال بعض العلماء: وإنما قال سعيد بن المسيب: إن ذلك سنة ماضية لقول النبي ﷺ: «**اقتلوا الفاعل والمفعول به**»، ولم يقل محصنًا أو غير محصن» ا.هـ. كلام ابنُ القَيِّم ملّخصًا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٢) أخرجه أحمد والحاكم (٤/ ٣٩٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (٤/ ٥٧)، وغيرهما، وصححه الألباني.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه: أن اللواط يقابله السّحاق عند النساء، وظهوره من علامات يوم القيامة الصغرى أيضًا.

«والسحاق: هو أن تدلك المرأة فرجها بفرج الأخرى، وهو حرامٌ عند جمهور الفقهاء، لِمَا رواه أحمد ومسلم، وأبو داود، والترمذي أنَّ رَسُول الله ﷺ قال: «**لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلاَ المَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ المَرأَةِ، وَلاَ يُفْضِى الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِى ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِى المَرْأَةُ إِلَى المَرْأَةِ فِى الثَّوْبِ الوَاحِدِ**».

وليس في السحاق حد كحدّ الزنا واللواط، ولكن فيه تأديب لأَنَّهُ مباشرة دون إيلاج»[1].

۞۞۞۞۞

(١) «الفقه الواضح» (٢/ ٢٣٠).

الخطبة السادسة والعشرون بعد المائة:

٧ - علامات القيامة الصغرى

[ب] اكتفاءُ الرّجال بالرِّجال

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن خطر فعل قوم لوط، أعاذنا الله تَعَالى منه، بمنّه وكرمه.

عباد الله ...

ويترتب عَلَى عمل قوم لوط عدّة أضرار.

قال الشيخ كشك - رَحِمَهُ الله - في تفسيره[١] ما مختصره: «خلق الله تعالى الناس من

(١) (١٣٥٠ - ١٣٥٦).

ذكر وأنثى، وشرع لهم ما ينظم سلوكهم على طريق مستقيم، فلما انحرفت البشرية عن الصراط السوي وغيرت المنهج الرباني، كان ما كان من عقاب سماوي، فقد سمعنا بمرض سماه البعض لعنة السماء، وهو مرض خطير استشرى كالسم في الأحشاء والنار في الحلفاء، وانتشر في الأوساط الراقية التي عرفت بالمدنية الحديثة، انتشر في أمريكا ودول أوروبا ويسمى (الإيدز).

وقد صدر كتاب يحمل عنوانه اسم هذا المرض، وقد جاء فيه من المعلومات عن هذا المرض ما يعطينا صورة وافية عن كل ما يتعلق به، وكتبه مؤلفه د/ رفعت كمال في صورة سؤال وجواب نحاول التقاط ما يلقي الضوء على أهمية الموضوع وخطورته ولم استحق آل لوط العقاب على فعلتهم تلك: «اكتشفت العلماء وجود مرض الإيدز في عام (١٩٨١)، حيث بلغ عدد المصابين بهذا المرض حتى الآن حوالي (١٢ ألف) مريض، وصل عدد الوفيات بينهم إلى النصف، ويمكن أن يحمل الإنسان عدوى المرض دون أن تظهر عليه أي أعراض، وفي هذه الحالة يمكن أن ينتقل منه العدوى إلى الآخرين عن طريق تداخل سوائل الجسم مثل: الدماء، السائل المنوي، الدموع، اللعاب، والتي يوجد فيها الفيروس المسبب للمرض فتحدث العدوى خلال اللقاء الجنسي، أو نقل الدماء من شخص مريض إلى شخص سليم، أو استعمال محقن واحد في حقن شخصين، وبذلك تنتقل العدوى من شخص لآخر.

فإذا هاجم فيروس المرض الخلايا التي تدافع عن الجسم ضد غزو الميكروبات فإن هذه الخلايا تعجز عن أداء دورها، ويتم تدمير قدرة الجسم على مقاومة الأمراض.

ويحدث لمريض الإيدز تلك الأعراض: تضخم الغدد الليمفاوية مع استمرار هذا التضخم لأكثرمن شهر، ظهور أورام حمراء داكنة في أي مكان بالجسم، وهي تزيد في الحجم، حدوث نقص واضح في وزن الجسم، ويكون ذلك خلال شهرين، فقدان الشهية، الإحساس بالتعب والإرهاق عند القيام بأقل مجهود، ارتفاع في درجة الحرارة، العرق بغزارة خصوصًا أثناء الليل، سعال جاف مصحوب بارتفاع في درجة الحرارة، إحساس بالضيق عند التنفس، الإصابة بالإسهال، ضعف في العضلات، ظهور بعض البثرات، ظهور بقع بيضاء في الفم وهذه البقع تكون سميكة نوعا ما، وتظهر على كل أجزاء الفم من الداخل.

إن العدوى في البيت الواحد تنتقل بين الزوجين خلال اللقاء الجنسي، ومن الأم حامل إلى جنينها، أما الطفل المولود قبل إصابة الأم أو الابن الشاب فإنه لا يصاب بالعدوى.

وتعتبر فترة الحضانة لهذا المرض هي الفترة التي تبدأ من التعرض إلى العدوى، وتنتهي مع ظهور أعراض المرض، وهي تتروح بين عامين وخمسة أعوام، يكون فيها المريض قادرًا على نقل العدوى للآخرين خلال هذه الفترة وقد اتضح أن (٩٠٪) من الحالات التي سجلت في هذا المرض تنقسم إلى مجموعتين:

- **المجموعة الأولى:** هؤلاء المصابون بالشذوذ الجنسي.
- **المجموعة الثانية:** هؤلاء الذين يتعاطون المواد المخدرة عن طريق الحقن في الوريد حيث تستعمل مجموعة منهم حقنة واحدة في حقن المخدر. وتنتقل بذلك العدوى من مريض إلى آخر سليم.

إن آثار هذا المرض لا تقتصر على التأثير الصحي الضار على جسم المريض، بل إن للمرض آثاره النفسية المدمرة: فالناس تهرب من وجه مريض الإيدز، والأهل يرفضون إقامته معهم أو الإشراف على علاجه، وأصحاب الأعمال يفصلون كل من تظهر عليه الأعراض، حتى العاملون في المستشفى، إنهم يتحاشون الاقتراب من هؤلاء المرضى خوفا من انتقال العدوى.

فالرعب من عدوى هذا المرض يصيب من يزاول الشذوذ الجنسي، ومن لا يزاوله، حيث أكدت استطلاعات الرأي العام في أمريكا أن (٣٠٪) من الناس يؤكدون أن هذا المرض سيصبح وباء عالميا، وأن الكل يبحث عن الإجراءات الوقائية التي يمكن أن تحميه من الخطر القادم الغامض حيث يسبب استسلام الجسم للعدوى بلا مقاومة، والخطير في هذا المرض أن المصاب به طول حياته يصبح حاملًا للعدوى.

وقد تأكد أن لهذا الفيروس خاصية محددة هي الهجوم على الخلايا الليمفاوية المعروفة باسم (تي٤) وهي نوع من الكرات البيضاء المتخصصة في مقاومة جراثيم الأمراض، وكذلك بعض أنواع السرطان، وعندما يهاجم الفيروس هذه الخلايا الليمفاوية فإنه يدمر الحامض الخلوي المعروف باسم (دي – ان – ايه) (DNA) وهو الحامل للوراثة في نواة الخلية.

وقد اتضح أن الفيروس يفرز نوعًا من البروتين له قدرة التغلب على الخلية (تي ٤) بحيث تكون الحصيلة هي خروج كميات كبيرة من الفيروسات في فترة وجيزة جدًّا، وقد تأكد أن هذا البروتين يصيب الخلايا الليمفاوية بالشيخوخة المبكرة، مما ينهي حياتها في وقت مبكر.

إن المتتبع لإحصائيات عدد المرضى (بالإيدز) يجد أنها في البلاد التي زاد فيها الترف والفسق حيث يفسدان أخلاق الأمم، ويباعدان بينها وبين منهج الله.

تقول الإحصائيات في فرنسا (٣٠٠) حالة، في ألمانيا الغربية (١٦٢) حالة، في بريطانيا (١٨٤) حالة أما في آسيا فإن الحالات أقل بكثير، أما الرقم الهام الذي يكشف عن مدى انتشار الإيدز في الولايات المتحدة فهو (١٢ ألف) مريض، من هؤلاء مات ستة آلاف والباقون يعانون من المرض بلا شفاء.

ولكن، لماذا ينتشر الإيدز بين الشواذ جنسيًّا؟

يقول الأطباء العاملون في هذا المجال: «إن الخلية التي يهاجمها الفيروس ويعيش بداخلها. وهي الخلية التي تتولى الدفاع عن الجسم، تتراكم بكميات كبيرة بجانب المستقيم، وذلك حتى تدافع عن الجسم إذا ما هاجمه أي ميكروب يتسرب من المستقيم، ولذلك فقد ظهرت حالات الإيدز المتزايدة بين الشباب، وخاصة هذا الشباب الذي يزوال الشذوذ الجنسي».

إذا كان هناك من سمى (الإيدز) بلعنة السماء فقد سبقتهم يا سيدي يا رسول الله بأربعة عشر قرنا من الزمان عندما قررت تلك الحقيقة الناطقة بالحق فقلت: «**لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم**»[1].

بنـيت لهـم مـن الأخـلاق ركـنا ... فخانـوا الـركن فانهـدم اضـطرابا

ولـو حفظـوا سـبيلك كـان نـورا ... وكـان مـن الـنحوس لهـم حجابـا

وكـان جـنابهم فـيها مهيـبا ... وللأخـلاق أجـدر أن تهابـا

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه في «الفتن» (٢٢)، وحسنه الألباني.

... الله ...

ونتقل ذلك البحث ملخصًا من كتاب (القرآن والطب) للدكتور/ محمد وصفي حيث تتمثل تلك الأضرار فيما يلي:

الرغبة عن المرأة:

من شأن اللواطة أن تصرف الرَّجُل عن المرأة، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج، وهي إيجاد النسل، ولو قدر لمثل هذا الرَّجُل أن يتزوج فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا فلا تظفر بالسكن ولا بالمودة ولا بالرحمة التي هي دستور الحياة الزوجية، فتقضي حياتها معذبة معلقة، لا هي متزوجة ولا مطلقة.

التأثير في الأعصاب:

وإن هذه العادة تغزو النفس، وتؤثر في الأعصاب تأثيرًا خاصًا: أحد نتائجه الإصابة بالانعكاس النفسي في خلق الفرد، فيشعر في صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلاً، وينقلب الشعور إلى شذوذ، به ينعكس شعور اللائط انعكاسًا غريبًا فيشعر بميل إلى بني جنسه، وتتجه أفكاره الخبيثة إلى أعضائهم التناسلية.

ولا يقتصر الأمر على إصابة اللائط بالانعكاس النفسي، بل هناك ما تسببه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية في الشخص كذلك، وما تحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة، وعلل نفسية شائنة، تفقده لذة الحياة، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة، فتحيي فيه لوثات وراثية خاصة، وتظهر عليه عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة، وتدعو إلى تسلطها عليه، ومثل هذه الآفات العصبية النفسية، كأمراض السادية، والماسوشية، والفيتشزم، وغيرها.

التأثير على المخ:

واللواط بجانب ذلك يسبب اختلالًا كبيرًا في توازن عقل المرء، وارتباكًا عامًا في تفكيره، وركودا غريبًا في تصوراته، وبلاهة واضحة في عقله، وضعفًا شديدًا في إرادته، وإن ذلك ليرجع إلى قلة الإفرازات الداخلية التي تفرزها الغدة الدرقية، والغدد فوق

الكلى، وغيرها مما يتأثر باللواط تأثرًا مباشرًا، فيضطرب عملها وتختل وظائفها، وإنك لتجد هنالك علاقة وثيقة بين (النيور ستايتا) واللواط، وارتباطًا غريبًا بينهما، فيصاب اللائط بالبله والعبط وشرود الفكر وضياع العقل والرشاد.

السويداء:

واللواط[1] إما أن يكون سببًا في ظهور مرض السويداء أو يغدو عاملاً قويًا على إظهاره وبعثه، ولقد وجد أن هذه الفاحشة وسيلة شديدة التأثير على هذا الداء من حيث مضاعفتها له وزيادة تعقيدها لأعراضه ويرجع ذلك للشذوذ الوظيفي لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم.

عدم كفاية اللواط:

واللواط علة شاذة وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية، لا تقوم بإرضاء المجموع العصبي، شديدة الوطأة على الجهاز العضلي، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن.

وإذا نظرنا إلى فسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التي تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المباشرة، ثم قارنا ذلك بما يحدث في اللواط وجدنا الفرق بعيدًا والبون بين الحالتين شاسعًا، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفقد ملاءمته للوضع الشاذ.

ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه:

وإنك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وجدته سببا في تمزق المستقيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه وفقد السيطرة على المواد البرازية وعدم استطاعة القبض عليها، ولذلك تجد الفاسقين دائمي التلوث بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور.

علاقة اللواط بالأخلاق:

واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسي خطير فتجد جميع من يتصفون به سيئى الخلق

---

(١) تقدم أن الأولى أن يُقال: عمل قوم لوط.

فسدي الطباع، لا يكادون يميزون بين الفضائل والرذائل، ضعيفي الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم، لا يتحرج أحدهم ولا يردعه رادع نفسي عن السطو على الأطفال والصغار واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة وتجرؤ على ارتكاب الجرائم التي نسمع عنها كثيرًا ونطالع أخبارها في الجرائد السيارة وفي غيرها، ونجد تفاصيل حوادثها في المحاكم وفي كتب الطب.

اللواط وعلاقته بالصحة العامة:

واللواط فوق ما ذكرت يصيب مقترفيه بضيق الصدر، ويرزؤهم بخفقان القلب، ويتركهم بحال من الضعف العام، يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض، ويجعلهم نهبة لمختلف العلل والأعصاب.

التأثير على أعضاء التناسل:

ويضعف اللواط كذلك مراكز الإنزال الرئيسية في الجسم، ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية فيه.

ويؤثر على تركيب مواد المني ثم ينتهي الأمر بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال.

التيفود والدوسنطاريا:

ونستطيع أن نقول: إن اللواط يسبب بجانب ذلك العدوى بالحمى التيفودية والدسنطاريا، وغيرهما من الأمراض الخبيثة التي تنتقل بطريقة التلوث بالمواد البرازية المزودة بمختلف الجراثيم، المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض.

أمراض الزنا:

ولا يخفى أن الأمراض التي تنتشر بالزنا يمكن أن تنتشر كذلك بطريقة اللواط، وتصيب أصحابه، فتفتك بهم فتكا ذريعًا، فتبلى أجسامهم، وتحصد أرواحهم.

عباد الله...

مِمَّا تقدم نتبّين حكمة التشريع الإسلامى في تحريم اللواط وتظهر دقة أحكامه في

التنكيل بمقترفيه، والأمر بالقضاء عليهم، وتخليص العالم من شرورهم» ا.هـ.

فالحمد لله عَلَى نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يسأل سائل: كيف يعالج المبتلى نفسه من هذا المرض الفتّاك ؟

ويجيب الإمام ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله - عن هذا السؤال فيقول في كتابه الماتع «الداء والدواء» - ما مختصره :

«**فإن قيل**: مع هذ كله فهل من دواءٌ لهذا الدَّاءِ العضال؟ ورقية لهذا السحرِ القتَّال؟ وما الاحتيال لدفعِ هذا الخيال؟

ولعلَ هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء، والداء الذي طُلِبَ له الدواء.

قيل: نعم الجواب من أصلٍ «**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»(١).

والكلام في دواء هذا الداء من طريقين:

أحدهما: جَسم مادته قبل حصولها.

والثاني: قلعُها بعدَ نزولها، وكلاهما يسيرٌ على من يَسَّره الله عليه، ومتعذَّرٌ على من لم يُعِنْه الله فإنَّ أَزِمَّةَ الأمُور بيديه.

فأما الطريقُ المانع من حصول هذا الداء، فأمران:

أحدهما: غَضُّ البصر كما تقدم، فإنَّ النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، ومن

---

(١) المسند: (٤/ ٢٧٨).

طلق لحظاته دامت حسراتُه، وفي غضِّ البصر عدَّة منَافع:

أحدُها: أنَّه إمتثالٌ لأمر الله الذي هو غايةُ سعادَةِ العبدِ في معَاشِه ومعاده، فليس لعبدِ في دنياهُ وآخرتِهِ أنفعُ من امتثال أوامر ربِّه تَبارَكَ وتعالى، وما سعِد مَن سعِد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامرِه، وما شَقِيَ مَن شَقِيَ في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامرِه.

الثانيةُ: أنَّه يمنعُ مِن وُصولِ أثَر السهم المسموم - الذى لعل فيه هلاكه - إلى قلبه.

الثالثة: أنَّه يُورثُ القلبَ أُنسًا بالله وجمعه على الله، فإنَّ إطلاقَ البصر يفرِّقُ القلب ويشتته ويبعده عن الله، وليس على القلب شيءٌ أضرُ من إطلاقِ البصر، فإنَّهُ يوقعُ الوحشةَ بينَ العبدِ وبين ربِّه.

الرابعة: أنَّه يقوِّي القلبَ ويفرحُه، كما أن إطلاقَ البصر يضعفهُ ويحزنُه.

الخامسة: أنَّه يُكسبُ القلبَ نُورًا، كما أن إطلاقه يُكسبُه ظُلمةً، ولهذا ذَكر سبحانه آية النُّور عقيب الأمر بغضِّ البصر، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

ثُمَّ قال إثر ذَلِكَ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، أي مثلُ نورِه في قلبِ عبدِه المؤمن الَّذِي امتثَل أوامرَه واجتنَب نواهيَه.

السادسة: أنَّهُ يورثُ فراسةً صادقةً يميز بها بين الحقِّ والباطلِ والصادقِ والكاذبِ، وكان شجاعٌ الكرمانيُّ يَقول: مَن عمَّر ظاهره باتِّباع السُّنة وباطنَهُ بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهواتِ، واغتذَى بالحلالِ، لم تخطئ له فراسةٌ.

السابعة: أنَّهُ يُورثُ القلب ثباتًا وشجاعةً وقوةً، ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوَّة.

الثامنة: أنَّهُ يسدُّ على الشيطانِ مدخله من القلب، فإنَّهُ يدخل مع النظرةِ وينفُذ معها الى القلب أسرعَ من نفوذ الهوى في المكان الخالي، فيمثِّل لَهُ صورةَ المنظُور اليه ويزيِّنُها ويجعلُها صنمًا يعكُف عليه القلب ثُمَّ يَعِدُه ويُمنِّيه ويُوقِد على القلب نار الشهوةِ، ويُلقى عليه حَطب المعاصِي الَّتِي لم يكن يتوصَّل اليها بدُون تلك الصُّورةِ، فيصيرُ القلب في اللَّهب.

التاسعةُ: أنه يُفرِغُ القلبَ للفكرةِ في مصَالِحِه والاشتِغال بها وإطلاقِ البصَرِ يُنسِيه ذَلِكَ ويحُولُ بينه وبينها، فتنفَرِطُ عليه أموره ويقعُ في اتِّباعِ هَواهُ وفي الغفلةِ عن ذكرِ ربِّه، قال تَعَالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وإطلاق النَّظرِ يُوجبُ هذهِ الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشرةُ: أنَّ بين العين والقلبِ منفذًا وطريقًا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر، وأن يصلُح بصلاحِه ويفسَدَ بفسادِه، فإذا فسد القلب فسد النَّظرُ، وإذا فسد النظرُ فسد القلبُ، وكذلك في جانبِ الصَّلاح، فإذا خَربت العينُ وفسَدت؛ خرب القلبُ وفسدَ وصارَ كالمزبلةِ التي هي محلُّ النجاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ، فلا يصلُح لسُكنى معرفةِ الله ومحبَّته والإنابةِ إليه، والأُنس به والسُّرور بقربهِ فيه، وإنَّما يسكُن فيه أضدادُ ذَلِكَ.

فهذه إشارةٌ الى بعض فوائدِ غضِّ البَصر تُطلِعُك عَلَى ما وراءَها.

الطريق الثاني المانع من حصول تعلُّقِ القلب: اشتغالُ القلبِ بما يُبعِدُه عن ذَلِكَ ويحُول بينه وبين الوقُوع فيه، وهُو إمَّا خوفٌ مقلِقٌ أو حبٌّ مزعِجٌ، فَمَتَى خَلا القلبُ مِن خَوفِ ما فَوَاتُه أضرُّ عليه من حُصول هذا المحبُوبِ، أو خوفِ ما حصولُه أضرُّ عليه من فوات هذا المحبوب، أو محبَّته ما هو أنفعُ له وخير له من هذا المحبوب، وفواتُه أضرُّ عليه من فواتِ هذا المحبوب، لم يجد بُدًّا من عشق الصُّور.

وشرحُ هذا: أنَّ النَّفْس لا تترك محبوبًا إلَّا لمحبوبٍ أعلى منه أو خشيةِ مكروهٍ حُصولُه أضرُّ عليه مِن فَوات هذا المحبُوب، وهذ يحتاجُ صاحِبُه الى أمرَين إن فقدَهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسِه:

أحدهما: بصيرةٌ صحيحةٌ، يُفرِّقُ بها بين درجاتِ المحبوبِ والمكروه، فيُؤثِرُ أعلى المحبُوبَيْنِ عَلَى أدناهما، ويحتمِلُ أدنى المكروهَين ليخلُص مِن أعلاهما، وهذا خَاصَّةُ العقل، ولا يُعدُّ عَاقلًا مَن كان بضدِّ ذَلِكَ، بل قَدْ تكونُ البهائمُ أحسنَ حالًا منه.

الثاني: قوَّةُ عزم وصبرٍ يتمكَّن به من هذا الفعلِ والتَّركِ، فكثيرًا ما يعرِفُ الرجلُ قدرَ التفاوتِ، ولكن يأتي لَهُ ضعفُ نفسِه وهمَّتِه وعزيمتِه على إيثار الأنفعِ من خِسَّتِه وحرصِه، ووضاعةِ نفسِه وخسَّةِ همَّتِه.

ومثلُ هذا لا ينتفع بنفسِه ولا ينتفع به غيرُه، وقد منع الله سُبْحَانَهُ إمامة الدِّين إلَّا مِن أهل البصَر واليقين، فقال تعالى وبقوله يهتدي المهتدُون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَـمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وهذا هُو الَّذِي ينتفِعُ بعلمِه وينتفِعُ به الناسُ، وضدُّه لا ينتفعُ بعلمه ولا ينتفعُ به غيرُه، ومن النَّاس مَن ينتفعُ بعلمِه في نفسِه ولا ينتفِعُ به غيرُه، فالأوَّلُ يمشِي في نورِه ويمشِي النَّاس في نورِه، والثَّاني قَدْ طُفئ نُورُه فهو يمشي في الظُّلمات، ومَن تَبعَه في ظلمته، والثالثُ يمشِي في نورِه وحدَه» أ.هـ.

۞۞۞۞۞

الخطبة السابعة والعشرون بعد المائة:

٨- علامات القيامة الصغرى

(أ) ردَّةُ أقوام آخر الزَّمان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الصُّغرى - التي لا يعلمها كثير من النَّاس - **«ردَّة أقوام آخر الزمان، والرجوع إلى عبادة الأوثان»**.

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِى الـخَلَصَةِ»** . وَكَانَتْ صَنَمًا تَعْبُدُهَا دَوْسٌ فِى الجَاهِلِيَّةِ بِتَبَالَةَ[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٦).

قال النووي - رحمه الله تعالى - في شرحه هذا الحديث: أما قوله: «أَلَيَاتُ» فبفتح الهمزة واللام ومعناه: أعجازهن، والمراد: يضطربنَّ من الطواف حول ذى الخَلَصَة، أي: يكفرون ويرجعون إلى عبادة الأصنام وتعظيمها.

وأما «تَبَالَة» فهى موضع باليمن وليست تبالة التى يضرب بها المثل، ويقال: أهون على الحجاج من تبالة؛ لأن تلك بالطائف. وأما «ذو الخَلَصَةِ» فهو بيت صنم ببلاد دوس» ا.هـ[1].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالعُزَّى». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2] أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا، قَالَ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَيَبْقَى مَنْ لاَ خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ»[3].

عباد الله ...

من أجل ذَلِكَ؛ يجب عَلَى كل مسلم يريد النجاة من خزي الدُّنْيَا وعذاب الآخرة، أن يتعلَّم ما يصحّ به اعتقاده، ولن يتعلّم ذَلِكَ إلَّا عن طريق أهل العلم الَّذِين فهموا الإسلام بفهم السَّلف الصَّالح، فقد كثر الخلط في هَذِهِ الأيام، ولا نجاة إلَّا بالله تَعَالَى أولًا، ثم بملازمة علماء أهل السُّنة.

وبالجملة: فتطهير الاعتقاد من أدران الشرك والإلحاد، من أوجب ما يتوجّب عَلَى الإنسان.

ومعرفة المسلم لنواقض الشهادتين مهمٌّ جدًّا[4]، لأَنَّهُ لا نجاة للمسلم من الخلود في النار إلَّا بسلامة معتقده من هَذِهِ النواقض العشرة.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٥٤).

(٢) سورة الصف: ٩.

(٣) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٤) للشيخ ابن باز - رَحِمَهُ الله - رسالة مهمة في هذا الشأن، اسمها «العقيدة الصحيحة وما يضادها» فراجعها لزامًا.

ومن الأمور التي أصابت مُعتقد بعض المسلمين في مقتل: الاعتقاد في القبور، وتعلّق القلب به خوفًا ورجاءً، رغبًا ورهبًا، ذلًّا وانكسارًا، دعاءً واستنجادًا!!

عباد الله ...

وَسُئِلَ أَحْمَد ابْنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّنْ يَزُورُ الْقُبُورَ وَيَسْتَنْجِدُ بِالْمَقْبُورِ فِي مَرَضٍ بِهِ أَوْ بِفَرَسِهِ أَوْ بِعِيرِهِ: يَطْلُبُ إزَالَةَ الْمَرَضِ الَّذِي بِهِمْ وَيَقُولُ: يَا سَيِّدِي أَنَا فِي جِيرَتِك أَنَا فِي حَسْبِك فُلَانٌ ظَلَمَنِي فُلَانٌ قَصَدَ أَذِيَّتِي وَيَقُولُ: إنَّ الْمَقْبُورَ يَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَفِيمَنْ يَنْذِرُ لِلْمَسَاجِدِ وَالزَّوَايَا وَالْمَشَايِخِ - حَيِّهِمْ وَمَيِّتِهِمْ - الدَّرَاهِمَ وَالْإِبِلَ وَالْغَنَمَ وَالشَّمْعَ وَالزَّيْتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ يَقُولُ: إنْ سَلِمَ وَلَدِي فَلِلشَّيْخِ عَلَيَّ كَذَا وَكَذَا وَأَمْثَالُ ذَلِكَ. وَفِيمَنْ يَسْتَغِيثُ بِشَيْخِهِ يَطْلُبُ تَثْبِيتَ قَلْبِهِ مِنْ ذَاكَ الْوَاقِعِ ؟ وَفِيمَنْ يَجِيءُ إلَى شَيْخِهِ وَيَسْتَلِمُ الْقَبْرَ وَيُمَرِّغُ وَجْهَهُ عَلَيْهِ وَيَمْسَحُ الْقَبْرَ بِيَدَيْهِ وَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ ؟ وَفِيمَنْ يَقْصِدُهُ بِحَاجَتِهِ وَيَقُولُ: يَا فُلَانٌ بِبَرَكَتِك أَوْ يَقُولُ: قُضِيَتْ حَاجَتِي بِبَرَكَةِ اللَّهِ وَبَرَكَةِ الشَّيْخِ ؟ وَفِيمَنْ يُعْمِلُ السَّمَاعَ وَيَجِيءُ إلَى الْقَبْرِ فَيَكْشِفُ وَيَحُطُّ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْ شَيْخِهِ عَلَى الْأَرْضِ سَاجِدًا. وَفِيمَنْ قَالَ: إنَّ ثَمَّ قُطْبًا غَوْثًا جَامِعًا فِي الْوُجُودِ ؟ أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ وَابْسُطُوا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ.

فَأَجَابَ - رَحِمَهُ الله - : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الدِّينُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاسْتِعَانَتُهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَدُعَاؤُهُ لِجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ١ - ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ: كَانَ أَقْوَامٌ يَدْعُونَ الْمَسِيحَ وَعُزَيْرًا وَالْمَلَائِكَةَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

هؤلاء الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ عِبَادِي كَمَا أَنْتُمْ عِبَادِي وَيَرْجُونَ رَحْمَتِي كَمَا تَرْجُونَ رَحْمَتِي وَيَخَافُونَ عَذَابِي، كَمَا تَخَافُونَ عَذَابِي وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ كَمَا تَتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ. فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ مَنْ يَدْعُو الأَنْبِيَاءَ وَالمَلَائِكَةَ فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُمْ ؟.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا**﴾ [الكهف: ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]. فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ دُعِيَ مَنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالبَشَرِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي مُلْكِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَوْنٌ يُعَاوِنُهُ كَمَا يَكُونُ لِلْمَلِكِ أَعْوَانٌ وظهراء وَأَنَّ الشُّفَعَاءَ عِنْدَهُ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى فَنَفَى بِذَلِكَ وُجُوهَ الشِّرْكِ.

وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَالِكًا وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونُ مَالِكًا وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَالِكًا فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ شَرِيكًا وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ شَرِيكًا وَإِذَا لَمْ يَكُنْ شَرِيكًا فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُعَاوِنًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ سَائِلًا طَالِبًا فَالأَقْسَامُ الأُوَلُ الثَّلَاثَةُ وَهِيَ: المِلْكُ وَالشَّرِكَةُ وَالمُعَاوَنَةُ مُنْتَفِيَةٌ.

وَأَمَّا الرَّابِعُ: فَلَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾ [النجم: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ [السجدة: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا**

الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠] فَإِذَا جُعِلَ مَنْ اتَّخَذَ الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا كَافِرًا فَكَيْفَ مَنْ اتَّخَذَ مَنْ دُونَهُمْ مِنْ الْمَشَايِخِ وَغَيْرِهِمْ أَرْبَابًا؟!

عباد الله ...

ويواصل شيخُ الإسلام - رَحِمَهُ الله - كلامه قائلًا:

وَتَفْصِيلُ الْقَوْلِ: أَنَّ مَطْلُوبَ الْعَبْدِ إنْ كَانَ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إلَّا اللَّهُ تَعَالَى: مِثْلُ أَنْ يَطْلُبَ شِفَاءَ مَرِيضِهِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ أَوْ وَفَاءَ دَيْنِهِ مِنْ غَيْرِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ عَافِيَةَ أَهْلِهِ وَمَا بِهِ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَانْتِصَارَهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَهِدَايَةَ قَلْبِهِ وَغُفْرَانَ ذَنْبِهِ أَوْ دُخُولَهُ الْجَنَّةَ أَوْ نَجَاتَهُ مِنْ النَّارِ أَوْ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَالْقُرْآنَ أَوْ أَنْ يُصْلِحَ قَلْبَهُ وَيُحَسِّنَ خُلُقَهُ وَيُزَكِّيَ نَفْسَهُ.

وَأَمْثَالَ ذَلِكَ: فَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا لَا يَجُوزُ أَنْ تُطْلَبَ إلَّا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ لِمَلَكِ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا شَيْخٍ - سَوَاءٌ كَانَ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا - اغْفِرْ ذَنْبِي وَلَا انْصُرْنِي عَلَى عَدُوِّي وَلَا اشْفِ مَرِيضِي وَلَا عَافِنِي أَوْ عَافِ أَهْلِي أَوْ دَابَّتِي وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَمَنْ سَأَلَ ذَلِكَ مَخْلُوقًا كَائِنًا مَنْ كَانَ فَهُوَ مُشْرِكٌ بِرَبِّهِ مَنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالتَّمَاثِيلَ الَّتِي يُصَوِّرُونَهَا عَلَى صُوَرِهِمْ وَمِنْ جِنْسِ دُعَاءِ النَّصَارَى لِلْمَسِيحِ وَأُمِّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ الْآيَةُ [المائدة: ١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١].

وَأَمَّا مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ فَيَجُوزُ أَنْ يُطْلَبَ مِنْهُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ دُونَ بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ (مَسْأَلَةَ الْمَخْلُوقِ) قَدْ تَكُونُ جَائِزَةً وَقَدْ تَكُونُ مَنْهِيًّا عَنْهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾ [الشرح: ٧، ٨].

وَأَوْصَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ابْنَ عَبَّاسٍ: «**إِذَا سَأَلْت فَاسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْت فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ**»، وَأَوْصَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ: «أَنْ

لا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا» فَكَانَ سَوْطُ أَحَدِهِمْ يَسْقُطُ مِنْ كَفِّهِ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاوِلْنِي إِيَّاهُ
وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يسترقون وَلَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، وَالِاسْتِرْقَاءُ طَلَبُ الرُّقْيَةِ وَهُوَ مِنْ أَنْوَاعِ الدُّعَاءِ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو لَهُ أَخُوهُ بِظَهْرِ الغَيْبِ دَعْوَةً إِلَّا وَكَّلَ اللَّهُ بِهَا مَلَكًا كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ دَعْوَةً قَالَ المَلَكُ: وَلَكَ مِثْلُ ذَلِكَ».

وَمِنْ المَشْرُوعِ فِي الدُّعَاءِ دُعَاءُ غَائِبٍ لِغَائِبٍ وَلِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَطَلَبِنَا الوَسِيلَةَ لَهُ وَأَخْبَرَ بِمَا لَنَا فِي ذَلِكَ مِنْ الأَجْرِ إِذَا دَعَوْنَا بِذَلِكَ فَقَالَ فِي الحَدِيثِ: «إِذَا سَمِعْتُمْ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ العَبْدَ. فَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ لِي الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

وَيُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَطْلُبَ الدُّعَاءَ مِمَّنْ هُوَ فَوْقَهُ وَمِمَّنْ هُوَ دُونَهُ فَقَدْ رُوِيَ طَلَبُ الدُّعَاءِ مِنْ الأَعْلَى وَالأَدْنَى؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَدَّعَ عُمَرَ إِلَى العُمْرَةِ وَقَالَ: «لَا تَنْسَنَا مِنْ دُعَائِك يَا أَخِي»، لَكِنَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَطَلَبِ الوَسِيلَةِ لَهُ ذَكَرَ أَنَّ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ عَشْرًا وَأَنَّ مَنْ سَأَلَ لَهُ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَكَانَ طَلَبُهُ مِنَّا لِمَنْفَعَتِنَا فِي ذَلِكَ، وَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ طَلَبَ مَنْ غَيْرِهِ شَيْئًا لِمَنْفَعَةِ المَطْلُوبِ مِنْهُ، وَمَنْ يَسْأَلُ غَيْرَهُ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ فَقَطْ.

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ أُوَيْسًا القرني وَقَالَ لِعُمَرَ: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَك فَافْعَلْ»، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شَيْءٌ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: اسْتَغْفِرْ لِي، لَكِنْ فِي الحَدِيثِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ذَكَرَ أَنَّهُ حَنِقَ عَلَى عُمَرَ وَثَبَتَ أَنَّ أَقْوَامًا كَانُوا يسترقون وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَرْقِيهِمْ. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ «أَنَّ النَّاسَ لَمَّا أَجْدَبُوا سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ

---

(١) صحيح.

يَسْتَسْقِي لَـهُمْ فَدَعَا اللَّهَ لَـهُمْ فَسُقُوا».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ فَدَعَا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْك بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْك بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا فَيُسْقَوْنَ.

وَفِي السُّنَنِ «أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جَهَدَتْ الأَنْفُسُ وَجَاعَ العِيَالُ وَهَلَكَ المَالُ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْك وَبِك عَلَى اللهِ. فَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ وَقَالَ: وَيْحَك إنَّ اللَّهَ لَا يُسْتَشْفَعُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ». فَأَقَرَّهُ عَلَى قَوْلِهِ: «إنَّا نَسْتَشْفِعُ بِك عَلَى اللَّهِ» وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ «نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْك» ؛ لِأَنَّ الشَّافِعَ يَسْأَلُ المَشْفُوعَ إلَيْهِ وَالعَبْدَ يَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَسْتَشْفِعُ إلَيْهِ وَالرَّبُّ تَعَالَى لَا يَسْأَلُ العَبْدَ وَلَا يَسْتَشْفِعُ بِهِ.

عباد الله ...

ويواصل شيخُ الإسلام رحمه الله كلامه قائلًا: وَأَمَّا زِيَارَةُ القُبُورِ المَشْرُوعَةُ فَهُوَ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى المَيِّتِ وَيَدْعُوَ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى جِنَازَتِهِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ إذَا زَارُوا القُبُورَ أَنْ يَقُولُوا «**السَّلام عليكم أهل الدِّيار من المؤمنين. وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية**»[(١)].

وَرُوِي عن النَّبيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ الرَّجُلِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**»[(٢)]، وَاللَّهُ تَعَالَى يُثِيبُ الحَيَّ إذَا دَعَا لِلْمَيِّتِ المُؤْمِنِ كَمَا يُثِيبُهُ إذَا صَلَّى عَلَى جِنَازَتِهِ: وَهَذَا نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُفْعَلَ ذَلِكَ بِالمُنَافِقِينَ. فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿**وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**﴾ [التوبة: ٨٤]، فَلَيْسَ فِي الزِّيَارَةِ الشَّرْعِيَّةِ حَاجَةُ الحَيِّ إلَى المَيِّتِ وَلَا مَسْأَلَتُهُ وَلَا تَوَسُّلُهُ بِهِ ؛ بَلْ فِيهَا مَنْفَعَةُ الحَيِّ لِلْمَيِّتِ كَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْحَمُ هَذَا بِدُعَاءِ هَذَا وَإِحْسَانِهِ إلَيْهِ وَيُثِيبُ هَذَا عَلَى عَمَلِهِ فَإِنَّهُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

(١) رواه مسلم (٢/ ٦٧١).

(٢) ضعيف.

عليه وآله وسلَّم أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ا.هـ.

عباد الله ...

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

لم ينته كلام شيخ الإسلام بعدُ، ولكن قبل أن نواصل الحديث معه، ننبّه إلى شيء مهم، وهو:

أن بعض من يعتقدون في المقبورين يستندون إلى حديث مكذوب عَلَى النَّبيِّ ﷺ وهو قولهم افتراءً عليه: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»، وهذا كما تقدم وسيأتي إن شاء الله تَعَالى، يصادم الاعتقاد الصحيح.

بل نقول لهؤلاء ما قاله بعض المتصوّفة: «كم من ضريح يُزار، وصاحبه في النار» [1].

عباد الله ...

وفي الجمعة القادمة - إن شاء الله تَعَالى - نُكمل جَواب ابن تيمية - رَحِمَهُ الله - عن السؤال المتقدّم فإلى اللِّقاء.

۞۞۞۞۞

(١) وإن كان صاحب الضريح من أهل الجَنَّة، فهل يرضى أن يُعبد من دون الله، ويلجأ إليه وقت الشدائد؟!! اللَّهُمَّ لا.

الخطبة الثامنة والعشرون بعد المائة:

٩- علامات القيامة الصغرى

(ب) ردة أقوام آخر الزمان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعلى كل مُسلم يُريد النَّجاة من النَّار ودخول الجَنَّة: أن يُطهِّر مُعتقده من أدران الشرك، وسائر نواقض الشهادتين، ويحذر الوقوع في الشرك.

ومن الاعتقادات الشركية: الاستنجاد بالمقبور، والاعتقاد أن الموتى يكشفون الضرّ، ويدفعون البلاء، ويجلبون النفع، وبيدهم الرخاء!!

عباد الله ...

ويواصل شيخُ الإسلام ابن تيمية – رَحِمَهُ الله – إجابته عن السؤال المتقدّم[١]، قائلًا:

وَأَمَّا مَنْ يَأْتِي إِلَى قَبْرِ نَبِيٍّ أَوْ صَالِحٍ أَوْ مَنْ يَعْتَقِدُ فِيهِ أَنَّهُ قَبْرُ نَبِيٍّ أَوْ رَجُلٍ صَالِحٍ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَيَسْأَلُهُ وَيَسْتَنْجِدُهُ فَهَذَا عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

إِحْدَاهَا: أَنْ يَسْأَلَهُ حَاجَتَهُ مِثْلُ أَنْ يَسْأَلَهُ أَنْ يُزِيلَ مَرَضَهُ أَوْ مَرَضَ دَوَابِّهِ أَوْ يَقْضِيَ دَيْنَهُ أَوْ يَنْتَقِمَ لَهُ مِنْ عَدُوِّهِ أَوْ يُعَافِيَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَدَوَابَّهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَهَذَا شِرْكٌ صَرِيحٌ يَجِبُ أَنْ يُسْتَتَابَ صَاحِبُهُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ. وَإِنْ قَالَ أَنَا أَسْأَلُهُ لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إلَى اللَّهِ مِنِّي لِيَشْفَعَ لِي فِي هَذِهِ الْأُمُورِ ؛ لِأَنِّي أَتَوَسَّلُ إلَى اللَّهِ بِهِ كَمَا يُتَوَسَّلُ إلَى السُّلْطَانِ بِخَوَاصِّهِ وَأَعْوَانِهِ فَهَذَا مِنْ أَفْعَالِ الْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ شُفَعَاءَ يَسْتَشْفِعُونَ بِهِمْ فِي مَطَالِبِهِمْ وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر: ٣]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ [السجدة: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فَبَيَّنَ الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ النَّاسِ أَنْ يَسْتَشْفِعُوا إلَى الْكَبِيرِ مِنْ كُبَرَائِهِمْ بِمَنْ يُكَرِّمُ عَلَيْهِ فَيَسْأَلُهُ ذَلِكَ الشَّفِيعُ فَيَقْضِي حَاجَتَهُ: إمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً وَإِمَّا حَيَاءً وَإِمَّا مَوَدَّةً وَإِمَّا غَيْرَ ذَلِكَ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ حَتَّى يَأْذَنَ هُوَ لِلشَّافِعِ فَلَا يَفْعَلُ إلَّا مَا شَاءَ وَشَفَاعَةُ الشَّافِعِ مِنْ إذْنِهِ فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْت اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إنْ شِئْت وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ**».

فَبَيَّنَ أَنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا يُكْرِهُهُ أَحَدٌ عَلَى مَا اخْتَارَهُ كَمَا قَدْ يُكْرِهُ الشَّافِعُ الْمَشْفُوعَ إلَيْهِ وَكَمَا يُكْرِهُ السَّائِلُ الْمَسْئُولَ إذَا أَلَحَّ عَلَيْهِ وَآذَاهُ بِالْمَسْأَلَةِ. فَالرَّغْبَةُ يَجِبُ

(١) يفضل ذكر السؤال بنصه، تذكيرًا للمصلين.

أَنْ تَكُونَ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وَالرَّهْبَةُ تَكُونُ مِنَ اللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَدْ أَمَرَنَا أَنْ نُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّعَاءِ وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ دُعَائِنَا.

وَقَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الضُّلَّالِ: هَذَا أَقْرَبُ إِلَى اللهِ مِنِّي وَأَنَا بَعِيدٌ مِنَ اللهِ لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَدْعُوَهُ إِلَّا بِهَذِهِ الوَاسِطَةِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وَقَدْ رُوِيَ: أَنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ: رَبُّنَا قَرِيبٌ فَنُنَاجِيه أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ(١). وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي سَفَرٍ وَكَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا بَلْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى العِبَادَ كُلَّهُمْ بِالصَّلَاةِ لَهُ وَمُنَاجَاتِهِ وَأَمَرَ كُلًّا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولُوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

ثُمَّ يُقَالُ لِهَذَا الْمُشْرِكِ أَنْتَ إِذَا دَعَوْت هَذَا فَإِنْ كُنْت تَظُنُّ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِك وَأَقْدَرُ عَلَى عَطَاءِ سُؤَالِك أَوْ أَرْحَمُ بِك فَهَذَا جَهْلٌ وَضَلَالٌ وَكُفْرٌ وَإِنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ أَعْلَمُ وَأَقْدَرُ وَأَرْحَمُ فَلِمَ عَدَلْت عَنْ سُؤَالِهِ إِلَى سُؤَالِ غَيْرِهِ ؟ أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا خَرَّجَهُ البُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ القُرْآنِ يَقُولُ: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِأَمْرٍ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ: إِنِّي أَسْتَخِيرُك بِعِلْمِك وَأَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِك وَأَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك العَظِيمِ فَإِنَّك تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ اللَّهُمَّ: إنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ - قَالَ - وَيُسَمِّي**

(١) إسناده صحيح: ذكره رزين، وقال محقق «جامع الأصول»: إسناده صحيح.

. أَمَرَ العَبْدَ أَنْ يَقُولَ: «أَسْتَخِيرُك بِعِلْمِك وَأَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِك وَأَسْأَلُك مِنْ العَظِيمِ».

كُنْت تَعْلَمُ أَنَّهُ أَقْرَبُ إلَى اللهِ مِنْك وَأَعْلَى دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ مِنْك فَهَذَا حَقٌّ ؛ لَكِنْ حَقٌّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ أَقْرَبَ مِنْك وَأَعْلَى دَرَجَةً مِنْك فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنْ يُثِيبَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُعْطِيك لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّك إذَا دَعَوْته كَانَ اللهُ يَقْضِي حَاجَتَك أَعْظَمَ مِمَّا إذَا دَعَوْت أَنْتَ اللهَ تَعَالَى: فَإِنَّك إنْ كُنْت مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَابِ وَرَدِّ الدُّعَاءِ - مَثَلًا مِنْ العُدْوَانِ - فَالنَّبِيُّ وَالصَّالِحُ لَا يُعِينُ عَلَى مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَلَا يَسْعَى فِيمَا يُبْغِضُهُ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَاللهُ أَوْلَى بِالرَّحْمَةِ وَالقَبُولِ.

الله ...

ويواصل شيخ الإسلام - رَحِمَهُ الله - كلامه فيقول:

وَإِنْ قُلْت: هَذَا إذَا دَعَا اللهَ أَجَابَ دُعَاءَهُ أَعْظَمَ مِمَّا يُجِيبُهُ إذَا دَعَوْته. فَهَذَا هُوَ القِسْمُ الثاني: وَهُوَ أَلَّا تَطْلُبَ مِنْهُ الفِعْلَ وَلَا تَدْعُوَهُ وَلَكِنْ تَطْلُبُ أَنْ يَدْعُوَ لَك. كَمَا تَقُولُ لِلْحَيِّ: أُدْعُ لِي وَكَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ - يَطْلُبُونَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الدُّعَاءَ فَهَذَا مَشْرُوعٌ فِي الحَيِّ كَمَا تَقَدَّمَ وَأَمَّا المَيِّتُ مِنْ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ فَلَمْ يُشْرَعْ لَنَا أَنْ نَقُولَ: أُدْعُ لَنَا وَلَا اسْأَلْ لَنَا رَبَّك وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلَا أَمَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ الأَئِمَّةِ وَلَا وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ بَلْ الَّذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُمْ لَمَّا أَجْدَبُوا زَمَنَ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إنَّا كُنَّا إذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إلَيْك بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إلَيْك بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا فَيُسْقَوْنَ. وَلَمْ يَجِيئُوا إلَى قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَائِلِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ أُدْعُ اللهَ لَنَا وَاسْتَسْقِ لَنَا وَنَحْنُ نَشْكُو إلَيْك مِمَّا أَصَابَنَا وَنَحْوَ ذَلِكَ. لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ قَطُّ بَلْ هُوَ بِدْعَةٌ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كَانُوا إذَا جَاءُوا عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ فَإِذَا أَرَادُوا الدُّعَاءَ لَمْ يَدْعُوا اللهَ مُسْتَقْبِلِي القَبْرَ الشَّرِيفَ بَلْ يَنْحَرِفُونَ وَيَسْتَقْبِلُونَ القِبْلَةَ وَيَدْعُونَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

(١) رواه البخاري وغيره.

كَمَا يَدْعُونَهُ فِي سَائِرِ البِقَاعِ.

وَذَلِكَ أَنَّ فِي «المُوطَّأِ» وَغَيْرِهِ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «**لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبَوَيْهَا: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ وَلَكِنْ كُرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»، وَفِي سُنَنِ أَبِي داود عَنْهُ قَالَ: «**لَعَنَ النَّبِيُّ زَوَّارَاتِ القُبُورِ وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**».

وَلِهَذَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا: لَا يَجُوزُ بِنَاءُ المَسْجِدِ عَلَى القُبُورِ.

وَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْذَرَ لِقَبْرٍ وَلَا لِلْمُجَاوِرِينَ عِنْدَ القَبْرِ شَيْئًا مِنْ الأَشْيَاءِ لَا مِنْ دِرْهَمٍ وَلَا مَنْ زَيْتٍ وَلَا مَنْ شَمْعٍ وَلَا مِنْ حَيَوَانٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ نَذْرَ مَعْصِيَةٍ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ**».

وَاخْتَلَفَ العُلَمَاءُ: هَلْ عَلَى النَّاذِرِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ: إِنَّ الصَّلَاةَ عِنْدَ القُبُورِ وَفِي مَشَاهِدِ القُبُورِ مُسْتَحَبَّةٌ أَوْ فِيهَا فَضِيلَةٌ وَلَا إِنَّ الصَّلَاةَ هُنَاكَ وَالدُّعَاءَ أَفْضَلُ مِنْ الصَّلَاةِ فِي غَيْرِ تِلْكَ البُقْعَةِ وَالدُّعَاءِ ؛ بَلْ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ فِي المَسَاجِدِ وَالبُيُوتِ أَفْضَلُ مِنْ الصَّلَاةِ عِنْدَ القُبُورِ - قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ - سَوَاءٌ سُمِّيَتْ «مَشَاهِدَ» أَوْ لَمْ تُسَمَّ.

وَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي المَسَاجِدِ دُونَ المَشَاهِدِ أَشْيَاءَ. فَقَالَ تَعَالَى ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا**﴾ [البقرة: ١١٤]، وَلَمْ يَقُلْ: المَشَاهِدَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ**﴾ [البقرة: ١٨٧]، وَلَمْ يَقُلْ: فِي المَشَاهِدِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ**

يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْمَسْجِدِ تَفْضُلُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَسُوقِهِ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ ضِعْفًا»(١)، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا يُذكر فيه، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»(٢).

وَأَمَّا الْقُبُورُ فَقَدْ وَرَدَ نَهْيُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ اتِّخَاذِهَا مَسَاجِدَ وَلَعَنَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» والطبراني وَغَيْرُهُ فِي تَفَاسِيرِهِمْ وَذَكَرَهُ وَثِيمَةُ وَغَيْرُهُ فِي «قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ» فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قَالُوا: هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ كَانُوا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَاتَّخَذُوا تَمَاثِيلَهُمْ أَصْنَامًا؟ وَكَانَ الْعُكُوفُ عَلَى الْقُبُورِ وَالتَّمَسُّحُ بِهَا وَتَقْبِيلُهَا وَالدُّعَاءُ عِنْدَهَا وَفِيهَا وَنَحْوُ ذَلِكَ هُوَ أَصْلَ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»(٣).

وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ زَارَ قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ قَبْرَ غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ - الصَّحَابَةُ وَأَهْلُ الْبَيْتِ وَغَيْرُهُمْ - أَنَّهُ لَا يَتَمَسَّحُ بِهِ وَلَا يُقَبِّلُهُ؛ بَلْ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِنْ الْجَمَادَاتِ مَا يُشْرَعُ تَقْبِيلُهَا إلَّا الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَاَللَّهِ إنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّك حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُك مَا قَبَّلْتُك.

وَلِهَذَا لَا يُسَنُّ بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ أَنْ يُقَبِّلَ الرَّجُلُ أَوْ يَسْتَلِمَ رُكْنَيْ الْبَيْتِ - اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الْحَجَرَ - وَلَا جُدْرَانَ الْبَيْتِ وَلَا مَقَامَ إبْرَاهِيمَ وَلَا صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَلَا قَبْرَ أَحَدٍ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ. حَتَّى تَنَازَعَ الْفُقَهَاءُ فِي وَضْعِ الْيَدِ عَلَى مِنْبَرِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا كَانَ مَوْجُودًا فَكَرِهَهُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ؛ لِأَنَّهُ بِدْعَةٌ وَذُكِرَ أَنَّ مَالِكًا لَمَّا

---

(١) رواه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه.
(٢) صحيح: رواه ابن ماجه وغيره.
(٣) صحيح.

رَأَى عَطَاءً فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَأْخُذْ عَنْهُ العِلْمَ وَرَخَّصَ فِيهِ أَحْمَد وَغَيْرُهُ ؛ لِأَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَعَلَهُ. وَأَمَّا التَّمَسُّحُ بِقَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَقْبِيلُهُ فَكُلُّهُمْ كَرِهَ ذَلِكَ وَنَهَى عَنْهُ(١)؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا مَا قَصَدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَسْمِ مَادَّةِ الشِّرْكِ وَتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وَهَذَا مَا يُظْهِرُ الفَرْقَ بَيْنَ سُؤَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالرَّجُلِ الصَّالِحِ فِي حَيَاتِهِ وَبَيْنَ سُؤَالِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَفِي مَغِيبِهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي حَيَاتِهِ لَا يَعْبُدُهُ أَحَدٌ بِحُضُورِهِ فَإِذَا كَانَ الأَنْبِيَاءُ - رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَالصَّالِحُونَ أَحْيَاءً لَا يَتْرُكُونَ أَحَدًا يُشْرِكُ بِهِمْ بِحُضُورِهِمْ ؛ بَلْ يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُعَاقِبُونَهُمْ عَلَيْهِ وَلِهَذَا قَالَ المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [المائدة: ١١٧].

وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**»(٢)، وَقَالَ: «**لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»(٣)، وَلَمَّا قَالَتْ الجويرية: «وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ». قَالَ: «**دَعِي هَذَا قُولِي بِالَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ**»(٤). وَقَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»(٥).

وَلَمَّا صَفُّوا خَلْفَهُ قِيَامًا قَالَ: «**لَا تُعَظِّمُونِي كَمَا تُعَظِّمُ الأَعَاجِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»(٦)، وَقَالَ أَنَسٌ: لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لَهُ ؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ. وَلَمَّا سَجَدَ لَهُ مُعَاذٌ نَهَاهُ وَقَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَصْلُحُ السُّجُودُ إِلَّا لله وَلَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**

---

(١) قال الغزالي في «الإحياء» (١/ ٢٧١): المس والتقبيل للمشاهد هو عادة اليهود والنصارى.
(٢) حديث صحيح.
(٣) حديث صحيح.
(٤) حديث صحيح.
(٥) حديث صحيح.
(٦) حديث صحيح.

- مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»[(١)]. وَلَمَّا أُتِيَ عَلِيٌّ بِالزَّنَادِقَةِ الَّذِينَ غَلَوْا فِيهِ وَاعْتَقَدُوا فِيهِ الإِلَهِيَّةَ أَمَرَ بِتَحْرِيقِهِمْ بِالنَّارِ.

فَهَذَا شَأْنُ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَإِنَّمَا يُقِرُّ عَلَى الغُلُوِّ فِيهِ وَتَعْظِيمِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ مَنْ يُرِيدُ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَفَسَادًا كَفِرْعَوْنَ وَنَحْوِهِ وَمَشَايِخِ الضَّلَالِ الَّذِينَ غَرَضُهُمُ العُلُوُّ فِي الأَرْضِ وَالفَسَادُ وَالفِتْنَةُ بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَاتِّخَاذُهُمْ أَرْبَابًا وَالإِشْرَاكُ بِهِمْ مِمَّا يَحْصُلُ بِهِ فِي مَغِيبِهِمْ وَفِي مَمَاتِهِمْ كَمَا أُشْرِكَ بِالمَسِيحِ وَعُزَيْرٍ.

فَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ الفَرْقَ بَيْنَ سُؤَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالصَّالِحِ فِي حَيَاتِهِ وَحُضُورِهِ وَبَيْنَ سُؤَالِهِ فِي مَمَاتِهِ وَمَغِيبِهِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ وَلَا تَابِعِي التَّابِعِينَ يَتَحَرَّوْنَ الصَّلَاةَ وَالدُّعَاءَ عِنْدَ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ وَيَسْأَلُونَهُمْ وَلَا يَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ؛ لَا فِي مَغِيبِهِمْ وَلَا عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَكَذَلِكَ العُكُوفُ.

عباد الله ...

ويواصل شيخ الإسلام - رَحِمَهُ الله - كلامه قائلًا:

وَمِنْ أَعْظَمِ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ الرَّجُلُ بِمَيِّتٍ أَوْ غَائِبٍ كَمَا ذَكَرَهُ السَّائِلُ وَيَسْتَغِيثُ بِهِ عِنْدَ المَصَائِبِ يَقُولُ: يَا سَيِّدِي فُلَانٌ كَأَنَّهُ يَطْلُبُ مِنْهُ إِزَالَةَ ضُرِّهِ أَوْ جَلْبَ نَفْعِهِ وَهَذَا حَالُ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ وَأُمِّهِ وَأَحْبَارِهِمْ وَرُهْبَانِهِمْ وَمَعْلُومٌ أَنَّ خَيْرَ الخَلْقِ وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِقَدْرِهِ وَحَقِّهِ أَصْحَابُهُ: وَلَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؛ لَا فِي مَغِيبِهِ وَلَا بَعْدَ مَمَاتِهِ. وَهَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ يَضُمُّونَ إِلَى الشِّرْكِ الكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ مَقْرُونٌ بِالشِّرْكِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «**عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ**». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا[(٢)]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ**

---

(١) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٧٩٧): رواه أحمد والنسائي بإسناد جيد، ورواته ثقات مشهورون.

(٢) ضعيف مرفوع: ورواه الطبراني بإسناد حسن موقوفًا عَلَى ابن مسعود.

الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وَقَالَ الخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧].

فَمِنْ كَذِبِهِمْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ عَنْ شَيْخِهِ إِنَّ الْمُرِيدَ إِذَا كَانَ بِالْمَغْرِبِ وَشَيْخُهُ بِالْمَشْرِقِ وَانْكَشَفَ غِطَاؤُهُ رَدَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّ الشَّيْخَ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ شَيْخًا. وَقَدْ تُغْوِيهِمْ الشَّيَاطِينُ كَمَا تُغْوِي عُبَّادَ الأَصْنَامِ كَمَا كَانَ يَجْرِي فِي العَرَبِ فِي أَصْنَامِهِمْ وَلِعُبَّادِ الكَوَاكِبِ وَطَلَاسِمِهَا: مِنْ الشِّرْكِ وَالسِّحْرِ كَمَا يَجْرِي لِلتَّتَارِ وَالهِنْدِ وَالسُّودَانِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْمُشْرِكِينَ: مِنْ إِغْوَاءِ الشَّيَاطِينِ وَمُخَاطَبَتِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يَجْرِي لَهُ نَوْعٌ مِنْ ذَلِكَ لَا سِيَّمَا عِنْدَ سَمَاعِ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ يُصِيبُ أَحَدَهُمْ كَمَا يُصِيبُ الْمَصْرُوعَ: مِنْ الإِرْغَاءِ وَالإِزْبَادِ وَالصِّيَاحِ الْمُنْكَرِ وَيُكَلِّمُهُ بِمَا لَا يَعْقِلُ هُوَ وَالحَاضِرُونَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا يُمْكِنُ وُقُوعُهُ فِي هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ.

عباد الله ...

وأما القسم الثالث، فسيأتي الحديث عنه بعد قليل - إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويواصل شيخ الإسلام كلامه فيقول:

وَأَمَّا القِسْمُ الثَّالِثُ: وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ بِجَاهِ فُلَانٍ عِنْدَكَ أَوْ بِبَرَكَةِ فُلَانٍ أَوْ بِحُرْمَةِ فُلَانٍ عِنْدَكَ: افْعَلْ بِي كَذَا وَكَذَا. فَهَذَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ؛ لَكِنْ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَلَفِ الأُمَّةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ بِمِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ وَلَمْ يَبْلُغْنِي عَنْ أَحَدٍ مِنْ العُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مَا أَحْكِيهِ ؛ إلَّا مَا رَأَيْت فِي فَتَاوَى الفَقِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ. فَإِنَّهُ أَفْتَى: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ؛ إلَّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إنْ صَحَّ الحَدِيثُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَمَعْنَى الِاسْتِفْتَاءِ: قَدْ رَوَى النسائي وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَ بَعْضَ

أصحابِهِ أَنْ يَدْعُوَ فَيَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك وَأَتَوَسَّلُ إِلَيْك بِنَبِيِّك نَبِيِّ الرَّحْمَةِ. يَا مُحَمَّدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَتَوَسَّلُ بِك إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي لِيَقْضِيَهَا لِي، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ» [١]، فَإِنَّ هَذَا حَدِيثَ قَدْ اسْتَدَلَّ بِهِ طَائِفَةٌ عَلَى جَوَازِ التَّوَسُّلِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ. قَالُوا: وَلَيْسَ فِي التَّوَسُّلِ دُعَاءُ الْمَخْلُوقِينَ وَلَا اسْتِغَاثَةٌ بِالْمَخْلُوقِ وَإِنَّمَا هُوَ دُعَاءٌ وَاسْتِغَاثَةٌ بِاَللَّهِ ؛ لَكِنْ فِيهِ سُؤَالٌ بِجَاهِهِ كَمَا فِي سُنَنِ ابْنِ ماجه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي دُعَاءِ الْخَارِجِ لِلصَّلَاةِ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْك وَبِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَرًا وَلَا بَطَرًا وَلَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً. خَرَجْت اتِّقَاءَ سَخَطِك وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِك، أَسْأَلُك أَنْ تُنْقِذَنِي مِنْ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ» [٢].

قَالُوا: فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ سَأَلَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْهِ وَبِحَقِّ مَمْشَاهُ إلَى الصَّلَاةِ وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ حَقًّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وَنَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ فَإِنَّ حَقَّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ». وَقَدْ جَاءَ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ: «كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ كَذَا وَكَذَا»، كَقَوْلِهِ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَإِنْ عَادَ فَشَرِبَهَا فِي الثَّالِثَةِ أَو الرَّابِعَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» - قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ ؟ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ» [٣].

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لَيْسَ فِي هَذَا جَوَازُ التَّوَسُّلِ بِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَفِي مَغِيبِهِ ؛ بَلْ إنَّمَا فِيهِ التَّوَسُّلُ فِي حَيَاتِهِ بِحُضُورِهِ كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إنَّا كُنَّا إذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إلَيْك بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٨٥)، وقال عقبه: قال أبو إسحاق: هذا حديث صحيح، ورواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٠٤)، والحديث صححه الشيخ الألباني كما في «المشكاة» (٢٤٩٥).

(٢) **ضعيف**.

(٣) **صحيح**: رواه ابن حبان، وانظر «صحيح الجامع» (٦٣١٣).

إِلَيْك بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا فَيُسْقَوْنَ. وَقَدْ بَيَّنَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَسَّلُونَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ فَيُسْقَوْنَ[١].

وَذَلِكَ التَّوَسُّلُ بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهُ لَهُمْ فَيَدْعُو لَهُمْ وَيَدْعُونَ مَعَهُ وَيَتَوَسَّلُونَ بِشَفَاعَتِهِ وَدُعَائِهِ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - «أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ المَسْجِدَ يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ بِجِوَارِ دَارِ القَضَاءِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتْ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ. فَادْعُ اللَّهَ لَنَا أَنْ يُمْسِكَهَا عَنَّا قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا. اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالظِّرَابِ وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**» قَالَ: وَأَقْلَعَتْ فَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ[٢].

فَفِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: أُدْعُ اللَّهَ لَنَا أَنْ يُمْسِكَهَا عَنَّا. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ: إِنِّي لَأَذْكُرُ قَوْلَ أَبِي طَالِبٍ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ يَقُولُ:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

فَهَذَا كَانَ تَوَسُّلَهُمْ بِهِ فِي الاِسْتِسْقَاءِ وَنَحْوِهِ. وَلَمَّا مَاتَ تَوَسَّلُوا بِالعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا كَانُوا يَتَوَسَّلُونَ بِهِ وَيَسْتَسْقُونَ. وَمَا كَانُوا يَسْتَسْقُونَ بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَلَا فِي مَغِيبِهِ وَلَا عِنْدَ قَبْرِهِ وَلَا عِنْدَ قَبْرِ غَيْرِهِ وَكَذَلِكَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ اسْتَسْقَى بيزيد بْنِ الأَسْوَدِ الجرشي وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَشْفِعُ إِلَيْك بِخِيَارِنَا يَا يَزِيدُ ارْفَعْ يَدَيْك إِلَى اللَّهِ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا وَدَعَوْا فَسُقُوا[٣].

فَلِذَلِكَ قَالَ العُلَمَاءُ: يُسْتَحَبُّ أَنْ يُسْتَسْقَى بِأَهْلِ الصَّلَاحِ وَالخَيْرِ فَإِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَحْسَنَ. وَلَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْ العُلَمَاءِ أَنَّهُ

---

(١) تقدم تقريبًا وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري (١/ ٢٢٤)، ومسلم (٢/ ٦١٤).

(٣) صحيح: انظر «التوسل» للشيخ الألباني (٤٥).

يُشْرَعُ التَّوَسُّلُ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنَّبِيِّ وَالصَّالِحِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَلَا فِي مَغِيبِهِ وَلَا اسْتَحَبُّوا ذَلِكَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ وَلَا فِي الِاسْتِنْصَارِ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَدْعِيَةِ. وَالدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ.

وَالعِبَادَةُ مَبْنَاهَا عَلَى السُّنَّةِ وَالِاتِّبَاعِ لَا عَلَى الْأَهْوَاءِ وَالِابْتِدَاعِ وَإِنَّمَا يُعْبَدُ اللَّهُ بِمَا شَرَعَ لَا يُعْبَدُ بِالْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَـهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَـهُم مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطَّهُورِ»[1].

وللحديث بقية، فإلى اللِّقاء، إن شاء الله تَعَالى.

❖❖❖❖❖

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٨١١)، وغيرهما.

الخطبة التاسعة والعشرون بعد المائة:

١٠- علامات القيامة الصغرى

(جـ) رِدَّة أقوام آخر الزمان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - الاستماع إلى إجابة شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ الله - عن السؤال المتقدّم إليه، وقَدْ تقدم قبلُ نصُّ السؤال[١].

وإطالة النَّفْس في هذا الأمر مهمّ جدًّا؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

---

(١) يُفضل إعادة ذكر السؤال، تذكيرًا للحضور، والمستمعين.

عبد الله ...

يقول شيخ الإسلام - رَحِمَهُ الله -: «وَأَمَّا الرَّجُلُ إذَا أَصَابَتْهُ نَائِبَةٌ أَوْ خَافَ شَيْئًا فَاسْتَغَاثَ بِشَيْخِهِ يَطْلُبُ تَثْبِيتَ قَلْبِهِ مِنْ ذَلِكَ الوَاقِعِ فَهَذَا مِنْ الشِّرْكِ وَهُوَ مِنْ جِنْسِ دِينِ النَّصَارَى فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُصِيبُ بِالرَّحْمَةِ وَيَكْشِفُ الضُّرَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنفال: ٤٠، ٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، فَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ يُدْعَى مِنْ المَلَائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْهُمْ وَلَا تَحْوِيلًا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَنَا أَدْعُو الشَّيْخَ لِيَكُونَ شَفِيعًا لِي فَهُوَ مِنْ جِنْسِ دُعَاءِ النَّصَارَى لِمَرْيَمَ وَالأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ. وَالمُؤْمِنُ يَرْجُو رَبَّهُ وَيَخَافُهُ وَيَدْعُوهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَحَقُّ شَيْخِهِ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ وَيَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ الخَلْقِ قَدْرًا هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَمْرِهِ وَقَدْرِهِ وَأَطْوَعُ النَّاسِ لَهُ وَلَمْ يَكُنْ يَأْمُرُ أَحَدًا مِنْهُمْ عِنْدَ الفَزَعِ وَالخَوْفِ أَنْ يَقُولَ: يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللهِ وَلَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ وَلَا بَعْدَ مَمَاتِهِ ؛ بَلْ كَانَ يَأْمُرُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ وَدُعَائِهِ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَام عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ قَالَهَا إبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَعْنِي وَأَصْحَابُهُ - حِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ: إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ**»(١).

وَفِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمِ البستي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُك وَابْنُ عَبْدِك وَابْنُ أَمَتِك نَاصِيَتِي بِيَدِك مَاضٍ فِيَّ حُكْمُك عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُك أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَك سَمَّيْت بِهِ نَفْسَك أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابِك أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مِنْ خَلْقِك أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَك: أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي: إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله: أَفَلَا نَتَعَلَّمُهُنَّ ؟ قَالَ: «**يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ**»(٢).

وَقَالَ لِأُمَّتِهِ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَذِكْرِ اللَّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ**». فَأَمَرَهُمْ عِنْدَ الكُسُوفِ بِالصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالعِتْقِ وَالصَّدَقَةِ وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ أَنْ يَدْعُوا مَخْلُوقًا وَلَا مَلَكًا وَلَا نَبِيًّا وَلَا غَيْرَهُمْ.

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي سُنَّتِهِ؛ لَمْ يُشْرَعْ لِلْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الخَوْفِ إِلَّا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ: مِنْ دُعَاءِ اللهِ وَذِكْرِهِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَكَيْفَ يَعْدِلُ المُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ عَمَّا شَرَعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى بِدْعَةٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ تُضَاهِي دِينَ المُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى ؟.

فَإِنْ زَعَمَ أَحَدٌ أَنَّ حَاجَتَهُ قُضِيَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ ؛ وَأَنَّهُ مُثِّلَ لَهُ شَيْخُهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَعُبَّادُ الكَوَاكِبِ وَالأَصْنَامِ وَنَحْوُهُمْ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ يَجْرِي لَهُمْ مِثْلُ هَذَا كَمَا قَدْ تَوَاتَرَ ذَلِكَ عَمَّنْ مَضَى مِنْ المُشْرِكِينَ وَعَنْ المُشْرِكِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ. فَلَوْلَا ذَلِكَ مَا عُبِدَتْ الأَصْنَامُ وَنَحْوُهَا قَالَ الخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ**﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٩١)، وصححه الألباني.

عباد الله ...

ويواصل شيخ الإسلام كلامه قائلًا:

وَيُقَالُ: إنَّ أَوَّلَ مَا ظَهَرَ الشِّرْكُ فِي أَرْضِ مَكَّةَ بَعْدَ إبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ مِنْ جِهَةِ «عَمْرِو بنِ لحي الخزاعي» الَّذِي رَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ وَغَيَّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ قَالُوا: إنَّهُ وَرَدَ الشَّامَ فَوَجَدَ فِيهَا أَصْنَامًا بِالْبَلْقَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهَا فِي جَلْبِ مَنَافِعِهِمْ وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ فَنَقَلَهَا إلَى مَكَّةَ وَسَنَّ لِلْعَرَبِ الشِّرْكَ وَعِبَادَةَ الأَصْنَامِ.

وَالأُمُورُ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ: مِنْ الشِّرْكِ وَالسِّحْرِ وَالقَتْلِ وَالزِّنَا وَشَهَادَةِ الزُّورِ وَشُرْبِ الخَمْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ: قَدْ يَكُونُ لِلنَّفْسِ فِيهَا حَظٌّ مِمَّا تَعُدُّهُ مَنْفَعَةً أَوْ دَفْعَ مَضَرَّةٍ وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَقْدَمَتْ النُّفُوسُ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي لَا خَيْرَ فِيهَا بِحَالِ وَإِنَّمَا يُوقِعُ النُّفُوسَ فِي الْمُحَرَّمَاتِ الجَهْلُ أَوْ الحَاجَةُ فَأَمَّا العَالِمُ بِقُبْحِ الشَّيْءِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ فَكَيْفَ يَفْعَلُهُ وَالَّذِينَ يَفْعَلُونَ هَذِهِ الأُمُورَ جَمِيعَهَا قَدْ يَكُونُ عِنْدَهُمْ جَهْلٌ بِمَا فِيهِ مِنْ الفَسَادِ وَقَدْ تَكُونُ بِهِمْ حَاجَةٌ إلَيْهَا: مِثْلُ الشَّهْوَةِ إلَيْهَا وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا مِنْ الضَّرَرِ أَعْظَمُ مِمَّا فِيهَا مِنْ اللَّذَّةِ وَلَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ لِجَهْلِهِمْ أَوْ تَغْلِبُهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ حَتَّى يَفْعَلُوهَا وَالهَوَى غَالِبًا يَجْعَلُ صَاحِبَهُ كَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْ الحَقِّ شَيْئًا فَإِنَّ حُبَّك لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ.

وَلِهَذَا كَانَ العَالِمُ يَخْشَى اللَّهَ وَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ سَأَلْت أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ**﴾ [النِّسَاء:١٧] الآيَةُ، فَقَالُوا: كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ وَكُلُّ مَنْ تَابَ قَبْلَ الْمَوْتِ فَقَدْ تَابَ مِنْ قَرِيبٍ. وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ البَسْطِ لِبَيَانِ مَا فِي الْمَنْهِيَّاتِ مِنْ الْمَفَاسِدِ الغَالِبَةِ وَمَا فِي الْمَأْمُورَاتِ مِنْ الْمَصَالِحِ الغَالِبَةِ بَلْ يَكْفِي الْمُؤْمِنَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ لِمَصْلَحَةٍ مَحْضَةٍ أَوْ غَالِبَةٍ وَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ مَفْسَدَةٌ مَحْضَةٌ أَوْ غَالِبَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ العِبَادَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ لِحَاجَتِهِ إلَيْهِمْ وَلَا نَهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ بِخِلَابَةٍ عَلَيْهِمْ بَلْ أَمَرَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَنَهَاهُمْ عَمَّا فِيهِ فَسَادُهُمْ وَلِهَذَا وَصَفَ نَبِيَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّهُ ﴿**يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ**﴾ [الأعراف: ١٥٧].

عباد الله ...

ويواصل شيخ الإسلام كلامه قائلًا:

وَأَمَّا التَّمَسُّحُ بِالقَبْرِ - أَيَّ قَبْرٍ كَانَ - وَتَقْبِيلُهُ وَتَمْرِيغُ الخَدِّ عَلَيْهِ فَمَنْهِيٌّ عَنْهُ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا بَلْ هَذَا مِنَ الشِّرْكِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا**﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ كَانُوا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَأَنَّهُمْ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ مُدَّةً ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَصَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ. لَا سِيَّمَا إِذَا اقْتَرَنَ بِذَلِكَ دُعَاءُ المَيِّتِ وَالِاسْتِغَاثَةُ بِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ وَبَيَانُ مَا فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَبَيَّنَّا الفَرْقَ بَيْنَ «الزِّيَارَةِ البِدْعِيَّةِ» الَّتِي تُشْبِهُ أَهْلُهَا بِالنَّصَارَى و«الزِّيَارَةِ الشَّرْعِيَّةِ».

وَأَمَّا وَضْعُ الرَّأْسِ عِنْدَ الكُبَرَاءِ مِنَ الشُّيُوخِ وَغَيْرِهِمْ أَوْ تَقْبِيلُ الأَرْضِ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ الأَئِمَّةِ فِي النَّهْيِ عَنْهُ بَلْ مُجَرَّدُ الِانْحِنَاءِ بِالظَّهْرِ لِغَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْهِيٌّ عَنْهُ. فَفِي «المُسْنَدِ» وَغَيْرِهِ «أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا مُعَاذُ ؟**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْتهمْ فِي الشَّامِ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ وَيَذْكُرُونَ ذَلِكَ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ فَقَالَ: «**كَذَبُوا يَا مُعَاذُ لَوْ كُنْت آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدِ لَأَمَرْت المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مَنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا، يَا مُعَاذُ أَرَأَيْت إنْ مَرَرْت بِقَبْرِي أَكُنْت سَاجِدًا؟** قَالَ: لَا، قَالَ: «**لَا تَفْعَلْ هَذَا**» [(١)]، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

بَلْ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ: «أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ قَاعِدًا مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ فَصَلَّوْا قِيَامًا فَأَمَرَهُمْ بِالجُلُوسِ وَقَالَ: «**لَا تُعَظِّمُونِي كَمَا تُعَظِّمُ الأَعَاجِمُ بَعْضَهَا بَعْضًا**». وَقَالَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**». فَإِذَا كَانَ قَدْ نَهَاهُمْ مَعَ قُعُودِهِ - وَإِنْ كَانُوا قَامُوا فِي الصَّلَاةِ - حَتَّى لَا يَتَشَبَّهُوا بِمَنْ يَقُومُونَ لِعُظَمَائِهِمْ وَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ سَرَّهُ القِيَامُ لَهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَكَيْفَ بِمَا فِيهِ مِنْ

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣)، وصححه الألباني.

سُجُودِ لَهُ وَمِنْ وَضْعِ الرَّأْسِ وَتَقْبِيلِ الأَيَادِي، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ خَلِيفَةُ اللهِ عَلَى الأَرْضِ - قَدْ وَكَّلَ أَعْوَانًا يَمْنَعُونَ الدَّاخِلَ مِنْ تَقْبِيلِ الأَرْضِ وَيُؤَدِّبُهُمْ إِذَا قَبَّلَ أَحَدٌ الأَرْضَ.

وَبِالجُمْلَةِ: فَالقِيَامُ وَالقُعُودُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ حَقٌّ لِلْوَاحِدِ المَعْبُودِ: خَالِقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا كَانَ حَقًّا خَالِصًا لِلهِ لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِ فِيهِ نَصِيبٌ: مِثْلُ الحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَالَ أَيْضًا: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**»(١).

فَالعِبَادَةُ كُلُّهَا لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ**﴾ [البينة: ٥]، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ الله يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَأَنْ تناصحوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ**»، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لِلهِ هُوَ أَصْلُ العِبَادَةِ.

وَنَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ الشِّرْكِ دِقِّهُ وَجُلِّهُ وَحَقِيرِهُ وَكَبِيرِهُ. حَتَّى إِنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَ عَنْهُ أَنَّهُ نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ وَقْتَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَوَقْتَ غُرُوبِهَا بِأَلْفَاظٍ مُتَنَوِّعَةٍ: تَارَةً يَقُولُ: «**لَا تَحَرَّوْا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبَهَا**». وَتَارَةً يَنْهَى عَنْ الصَّلَاةِ بَعْدَ طُلُوعِ الفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَبَعْدَ العَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ وَتَارَةً: يَذْكُرُ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ طَلَعَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الكُفَّارُ وَنَهَى عَنْ الصَّلَاةِ فِي هَذَا الوَقْتِ لِمَا فِيهِ مِنْ مُشَابَهَةِ المُشْرِكِينَ فِي كَوْنِهِمْ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ فِي هَذَا الوَقْتِ وَأَنَّ الشَّيْطَانَ يُقَارِنُ الشَّمْسَ حِينَئِذٍ لِيَكُونَ السُّجُودُ لَهُ فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَظْهَرُ شِرْكًا وَمُشَابَهَةً لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ هَذَا. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُخَاطِبَ بِهِ أَهْلَ الكِتَابِ: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤]، وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ اتِّخَاذِ بَعْضِهِمْ

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٢٠٤٢).

بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَنَحْنُ مَنْهِيُّونَ عَنْ مِثْلِ هَذَا ؛ وَمَنْ عَدَلَ عَنْ هَدْيِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهَدْيِ أَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَـهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ هَدْيِ النَّصَارَى فَقَدْ تَرَكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ.

وَأَمَّا قَوْلُ القَائِلِ: انْقَضَتْ حَاجَتِي بِبَرَكَةِ اللهِ وَبَرَكَتِك. فَمُنْكَرٌ مِنَ القَوْلِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُقْرَنُ بِاللهِ فِي مِثْلِ هَذَا غَيْرُهُ حَتَّى إِنَّ قَائِلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**»، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»، فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الفَجْرِ بِالحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ سَمَاءٍ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟**» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: قَالَ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوَاكِبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوَاكِبِ**».

وَالأَسْبَابُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ أَسْبَابًا لَا تُجْعَلُ مَعَ اللهِ شُرَكَاءَ وَأَنْدَادًا وَأَعْوَانًا.

وَقَوْلُ القَائِلِ: بِبَرَكَةِ الشَّيْخِ قَدْ يَعْنِي بِهَا دُعَاءَهُ. وَأَسْرَعُ الدُّعَاءِ إِجَابَةً دُعَاءُ غَائِبٍ لِغَائِبٍ. وَقَدْ يَعْنِي بِهَا بَرَكَةَ مَا أَمَرَهُ بِهِ وَعَلَّمَهُ مِنْ الخَيْرِ. وَقَدْ يَعْنِي بِهَا بَرَكَةَ مُعَاوَنَتِهِ لَهُ عَلَى الحَقِّ وَمُوَالَاتِهِ فِي الدِّينِ وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَهَذِهِ كُلُّهَا مَعَانٍ صَحِيحَةٌ. وَقَدْ يَعْنِي بِهَا دُعَاءَهُ لِلْمَيِّتِ وَالغَائِبِ ؛ إِذْ اسْتِقْلَالُ الشَّيْخِ بِذَلِكَ التَّأْثِيرِ أَوْ فِعْلُهُ لِمَا هُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ أَوْ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَيْهِ أَوْ غَيْرُ قَاصِدٍ لَهُ: مُتَابَعَتُهُ أَوْ مُطَاوَعَتُهُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ البِدَعِ المُنْكَرَاتِ وَنَحْوِ هَذِهِ المَعَانِي البَاطِلَةِ. وَالَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ: أَنَّ العَمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَدُعَاءِ المُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ: هُوَ نَافِعٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ.

عباد الله ...

ويواصل شيخ الإسلام - رَحِمَهُ الله - جوابه عن السؤال المتقدّم، فيقول بأحسن عبارة:

وَأَمَّا سُؤَالُ السَّائِلِ عَنْ «القُطْبِ الغَوْثِ الفَرْدِ الجَامِعِ». فَهَذَا قَدْ يَقُولُهُ طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ وَيُفَسِّرُونَهُ بِأُمُورٍ بَاطِلَةٍ فِي دِينِ الإِسْلَامِ: مِثْلُ تَفْسِيرِ بَعْضِهِمْ: أَنَّ «الغَوْثَ» هُوَ

الَّذِي يَكُونُ مَدَدُ الخَلَائِقِ بِوَاسِطَتِهِ فِي نَصْرِهِمْ وَرِزْقِهِمْ حَتَّى يَقُولَ: إِنَّ مَدَدَ المَلَائِكَةِ وَحِيتَانِ البَحْرِ بِوَاسِطَتِهِ. فَهَذَا مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالغَالِيَةِ فِي عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَهَذَا كُفْرٌ صَرِيحٌ يُسْتَتَابُ مِنْهُ صَاحِبُهُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ المَخْلُوقَاتِ لَا مَلَكٌ وَلَا بَشَرٌ يَكُونُ إِمْدَادُ الخَلَائِقِ بِوَاسِطَتِهِ وَهَذَا كَانَ مَا يَقُولُهُ الفَلَاسِفَةُ فِي «العُقُولِ العَشْرَةِ» الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا المَلَائِكَةُ وَمَا يَقُولُهُ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ وَنَحْوَ ذَلِكَ كُفْرٌ صَرِيحٌ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ.

وَكَذَلِكَ عَنَى بِالغَوْثِ مَا يَقُولُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّ فِي الأَرْضِ ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا يُسَمُّونَهُمْ «النُّجَبَاءَ» فَيُنْتَقَى مِنْهُمْ سَبْعُونَ هُمْ «النُّقَبَاءُ» وَمِنْهُمْ أَرْبَعُونَ هُمْ «الأَبْدَالُ» وَمِنْهُمْ سَبْعَةٌ هُمْ «الأَقْطَابُ» وَمِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ هُمْ «الأَوْتَادُ» وَمِنْهُمْ وَاحِدٌ هُوَ «الغَوْثُ» وَأَنَّهُ مُقِيمٌ بِمَكَّةَ وَأَنَّ أَهْلَ الأَرْضِ إِذَا نَابَتْهُمْ نَائِبَةٌ فِي رِزْقِهِمْ وَنَصْرِهِمْ فَزِعُوا إِلَى الثَّلَاثِمِائَةِ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا وَأُولَئِكَ يَفْزَعُونَ إِلَى السَّبْعِينَ وَالسَّبْعُونَ إِلَى الأَرْبَعِينَ وَالأَرْبَعُونَ إِلَى السَّبْعَةِ وَالسَّبْعَةُ إِلَى الأَرْبَعَةِ وَالأَرْبَعَةُ إِلَى الوَاحِدِ. وَبَعْضُهُمْ قَدْ يَزِيدُ فِي هَذَا وَيُنْقِصُ فِي الأَعْدَادِ وَالأَسْمَاءِ وَالمَرَاتِبِ ؛ فَإِنَّ لَـهُمْ فِيهَا مَقَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةً حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ عَلَى الكَعْبَةِ وَرَقَةٌ خَضْرَاءُ بِاسْمِ غَوْثِ الوَقْتِ وَاسْمِ خَضِرِهِ - عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ: إِنَّ الخَضِرَ هُوَ مَرْتَبَةٌ وَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ خَضِرًا فَإِنَّ لَـهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلَيْنِ - وَهَذَا كُلُّهُ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ وَلَا قَالَهُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ وَلَا أَئِمَّتِهَا وَلَا مِنْ المَشَايِخِ الكِبَارِ المُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ لِلاقْتِدَاءِ بِهِمْ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ رَبِّ العَالَمِينَ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كَانُوا خَيْرَ الخَلْقِ فِي زَمَنِهِمْ وَكَانُوا بِالمَدِينَةِ وَلَمْ يَكُونُوا بِمَكَّةَ.

وَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ حَدِيثًا فِي «هِلَالٍ» غُلَامِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ وَأَنَّهُ أَحَدُ السَّبْعَةِ. وَالحَدِيثُ بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ المَعْرِفَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ رَوَى بَعْضَ هَذِهِ الأَحَادِيثِ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «حِلْيَةِ الأَوْلِيَاءِ» وَالشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السلمي فِي بَعْضِ مُصَنَّفَاتِهِ فَلَا تَغْتَرَّ بِذَلِكَ. فَإِنَّ فِيهِ الصَّحِيحَ وَالحَسَنَ وَالضَّعِيفَ وَالمَوْضُوعَ وَالمَكْذُوبَ الَّذِي لَا خِلَافَ بَيْنَ العُلَمَاءِ فِي أَنَّهُ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ. وَتَارَةً يَرْوِيهِ عَلَى عَادَةِ بَعْضِ أَهْلِ الحَدِيثِ الَّذِينَ يَرْوُونَ مَا سَمِعُوا وَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ صَحِيحِهِ وَبَاطِلِهِ وَكَانَ أَهْلُ الحَدِيثِ لَا يَرْوُونَ مِثْلَ هَذِهِ الأَحَادِيثِ ؛ لِمَا

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ».

وَبِالجُمْلَةِ: فَقَدْ عَلِمَ المُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ أَنَّ مَا يَنْزِلُ بِالمُسْلِمِينَ مِنْ النَّوَازِلِ فِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ: مِثْلُ دُعَائِهِمْ عِنْدَ الاِسْتِسْقَاءِ لِنُزُولِ الرِّزْقِ وَدُعَائِهِمْ عِنْدَ الكُسُوفِ وَالاِعْتِدَادِ لِرَفْعِ البَلَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ إنَّمَا يَدْعُونَ فِي ذَلِكَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ قَطُّ أَنْ يَرْجِعُوا بِحَوَائِجِهِمْ إلَى غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ بَلْ كَانَ المُشْرِكُونَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَدْعُونَهُ بِلَا وَاسِطَةٍ فَيُجِيبُهُمْ اللَّهُ أَفَتَرَاهُمْ بَعْدَ التَّوْحِيدِ وَالإِسْلَامِ لَا يُجِيبُ دُعَاءَهُمْ إلَّا بِهَذِهِ الوَاسِطَةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اسْتَسْقَى لِأَصْحَابِهِ بِصَلَاةٍ وَبِغَيْرِ صَلَاةٍ وَصَلَّى بِهِمْ لِلاِسْتِسْقَاءِ وَصَلَاةَ الكُسُوفِ وَكَانَ يَقْنُتُ فِي صَلَاتِهِ فَيَسْتَنْصِرُ عَلَى المُشْرِكِينَ وَكَذَلِكَ خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ بَعْدَهُ وَكَذَلِكَ أَئِمَّةُ الدِّينِ وَمَشَايِخُ المُسْلِمِينَ وَمَا زَالُوا عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ. وَهَذَا يُقَالُ: ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ مَا لَهَا مِنْ أَصْلٍ (بَابُ النصيرية) و(مُنْتَظَرُ الرَّافِضَةِ) و(غَوْثُ الجُهَّالِ): فَإِنَّ النصيرية تَدَّعِي فِي البَابِ الَّذِي لَـهُمْ مَا هُوَ مِنْ هَذَا الجِنْسِ أَنَّهُ الَّذِي يُقِيمُ العَالَمَ فَذَاكَ شَخْصُهُ مَوْجُودٌ؛ وَلَكِنَّ دَعْوَى النصيرية فِيهِ بَاطِلَةٌ. وَأَمَّا مُحَمَّدُ ابْنُ الحَسَنِ المُنْتَظَرُ وَالغَوْثُ المُقِيمُ بِمَكَّةَ وَنَحْوُ هَذَا: فَإِنَّهُ بَاطِلٌ لَيْسَ لَهُ وُجُودٌ.

وَكَذَلِكَ مَا يَزْعُمُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّ القُطْبَ الغَوْثَ الجَامِعَ يَمُدُّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَيَعْرِفُهُمْ كُلَّهُمْ وَنَحْوَ هَذَا؛ فَهَذَا بَاطِلٌ. فَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَمْ يَكُونَا يَعْرِفَانِ جَمِيعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا يَمُدَّانِهِمْ فَكَيْفَ بِهَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ المُغْتَرِّينَ الكَذَّابِينَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ إنَّمَا عَرَفَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ رَآهُمْ مَنْ أُمَّتِهِ بِسِيمَاءِ الوُضُوءِ وَهُوَ الغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مَنْ لَا يُحْصِيهِ إلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَأَنْبِيَاءُ

الَّذِينَ هُوَ إِمَامُهُمْ وَخَطِيبُهُمْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَكْثَرَهُمْ ؛ بَلْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُم مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، وَمُوسَى لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الخَضِرَ وَالخَضِرُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مُوسَى ؛ بَلْ لَمَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى قَالَ لَهُ الخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِك السَّلَامُ ؟ فَقَالَ لَهُ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ: نَعَمْ[١]. وَقَدْ كَانَ بَلَغَهُ اسْمُهُ وَخَبَرُهُ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ عَيْنَهُ. وَمَنْ قَالَ: إنَّهُ نَقِيبُ الأَوْلِيَاءِ أَوْ أَنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ كُلَّهُمْ فَقَدْ قَالَ البَاطِلَ» ا.هـ.

عباد الله ...

لم تنته إجابةُ شيخ الإسلام – رَحِمَهُ الله – بَعْدُ، لها بقيّة في غاية الأهمية، نلتقي معها بعد قليل، إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويواصل شيخ الإسلام ابن تيمية – رَحِمَهُ الله – كلامه الجيِّد وردَّه المتين، فيقول:

وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ المُحَقِّقُونَ: أَنَّهُ[٢] مَيِّتٌ وَأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ الإِسْلَامَ وَلَوْ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَيُجَاهِدَ مَعَهُ كَمَا أَوْجَبَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ وَلَكَانَ يَكُونُ فِي مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ وَلَكَانَ يَكُونُ حُضُورُهُ مَعَ الصَّحَابَةِ لِلْجِهَادِ مَعَهُمْ وَإِعَانَتِهِمْ عَلَى الدِّينِ أَوْلَى بِهِ مِنْ حُضُورِهِ عِنْدَ قَوْمٍ كُفَّارٍ لِيُرَقِّعَ لَهُمْ سَفِينَتَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ مُخْتَفِيًا عَنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَهُوَ قَدْ كَانَ بَيْنَ المُشْرِكِينَ وَلَمْ يَحْتَجِبْ عَنْهُمْ.

ثُمَّ لَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ وَأَمْثَالِهِ حَاجَةٌ لَا فِي دِينِهِمْ وَلَا فِي دُنْيَاهُمْ ؛ فَإِنَّ دِينَهُمْ أَخَذُوهُ

---

(١) حديث صحيح.

(٢) يعني الخضر عليه السلام.

عَنْ الرَّسُولِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الَّذِي عَلَّمَهُمْ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَقَالَ لَـهُمْ نَبِيُّهُمْ: «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ**»، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِذَا نَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ إِنَّمَا يَحْكُمُ فِيهِمْ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ.

فَأَيُّ حَاجَةٍ لَـهُمْ مَعَ هَذَا إِلَى الخَضِرِ وَغَيْرِهِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَخْبَرَهُمْ بِنُزُولِ عِيسَى مِنْ السَّمَاءِ وَحُضُورِهِ مَعَ المُسْلِمِينَ وَقَالَ: «**كَيْفَ تَهْلِكُ أُمَّةٌ أَنَا فِي أَوَّلِهَا وَعِيسَى فِي آخِرِهَا**».

فَإِذَا كَانَ النَّبِيَّانِ الكَرِيمَانِ اللَّذَانِ هُمَا مَعَ إِبْرَاهِيمَ مُوسَى وَنُوحٌ أَفْضَلَ الرُّسُلِ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَمْ يَحْتَجِبُوا عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ لَا عَوَامِّهِمْ وَلَا خَوَاصِّهِمْ فَكَيْفَ يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَـهُمْ. وَإِذَا كَانَ الخَضِرُ حَيًّا دَائِمًا فَكَيْفَ لَمْ يَذْكُرْ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ قَطُّ وَلَا أَخْبَرَ بِهِ أُمَّتَهُ وَلَا خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ.

وَقَوْلُ القَائِلِ: إِنَّهُ نَقِيبُ الأَوْلِيَاءِ. **فَيُقَالُ لَهُ**: مَنْ وَلَّاهُ النِّقَابَةَ وَأَفْضَلُ الأَوْلِيَاءِ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ وَلَيْسَ فِيهِمْ الخَضِرُ. وَعَامَّةُ مَا يُحْكَى فِي هَذَا البَابِ مِنْ الحِكَايَاتِ بَعْضُهَا كَذِبٌ وَبَعْضُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى ظَنِّ رَجُلٍ: مِثْلُ شَخْصٍ رَأَى رَجُلًا ظَنَّ أَنَّهُ الخَضِرُ وَقَالَ: إِنَّهُ الخَضِرُ كَمَا أَنَّ الرَّافِضَةَ[1] تَرَى شَخْصًا تَظُنُّ أَنَّهُ الإِمَامُ المُنْتَظَرُ المَعْصُومُ أَوْ تَدَّعِي ذَلِكَ وَرُوِيَ عَنْ الإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ قَالَ - وَقَدْ ذُكِرَ لَهُ الخَضِرُ - مَنْ أَحَالَك عَلَى غَائِبٍ فَمَا أَنْصَفَك. وَمَا أَلْقَى هَذَا عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ إِلَّا الشَّيْطَانُ. وَقَدْ بَسَطْنَا الكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ.

وَأَمَّا إِنْ قَصَدَ القَائِلُ بِقَوْلِهِ «القُطْبُ الغَوْثُ الفَرْدُ الجَامِعُ» أَنَّهُ رَجُلٌ يَكُونُ أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ فَهَذَا مُمْكِنٌ لَكِنْ مِنْ المُمْكِنِ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ فِي الزَّمَانِ اثْنَانِ مُتَسَاوِيَانِ فِي الفَضْلِ وَثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَلَا يُجْزَمُ بِأَلَا يَكُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَفْضَلُ النَّاسِ إِلَّا وَاحِدًا وَقَدْ تَكُونُ جَمَاعَةٌ بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ وَتِلْكَ الوُجُوهُ إِمَّا مُتَقَارِبَةٌ وَإِمَّا مُتَسَاوِيَةٌ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ فِي الزَّمَانِ رَجُلٌ هُوَ أَفْضَلُ أَهْلِ الزَّمَانِ فَتَسْمِيَتُهُ بـ «القُطْبِ الغَوْثِ

---

(١) الرافضة: الشيعة الإمامية.

جَامِع» بِدْعَةٌ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ وَلَا تَكَلَّمَ بِهَذَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَمَا زَالَ السَّلَفُ يَظُنُّونَ فِي بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ أَفْضَلُ أَوْ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ وَلَا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ هَذِهِ الأَسْمَاءَ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ؛ لَا سِيَّمَا أَنَّ مِنَ الْمُنْتَحِلِينَ لِهَذَا الِاسْمِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ أَوَّلَ الأَقْطَابِ هُوَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ثُمَّ يَتَسَلْسَلُ الأَمْرُ إِلَى مَا دُونَهُ إِلَى بَعْضِ مَشَايِخِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهَذَا لَا يَصِحُّ لَا عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَلَا عَلَى مَذْهَبِ الرَّافِضَةِ. فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ؟ وَالحَسَنُ عِنْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ قَدْ قَارَبَ سِنَّ التَّمْيِيزِ وَالِاحْتِلَامِ.

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الأَكَابِرِ مِنْ الشُّيُوخِ الْمُنْتَحِلِينَ لِهَذَا: أَنَّ «القُطْبَ الفَرْدَ الغَوْثَ الجَامِعَ» يَنْطَبِقُ عِلْمُهُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتُهُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَعْلَمُ مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ اللَّهُ. وَزَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ كَذَلِكَ وَأَنَّ هَذَا انْتَقَلَ عَنْهُ إِلَى الحَسَنِ وَتَسَلْسَلَ إِلَى شَيْخِهِ. فَبَيَّنْت أَنَّ هَذَا كُفْرٌ صَرِيحٌ وَجَهْلٌ قَبِيحٌ وَأَنَّ دَعْوَى هَذَا فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كُفْرٌ؛ دَعْ مَا سِوَاهُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ [الأنعام: ٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ [الأعراف: ١٨٨]الآيَةُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا**﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآيَةُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله**﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٢٧، ١٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [القصص: ٥٦].

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَرَنَا أَنْ نُطِيعَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠]، وَأَمَرَنَا أَنْ نَتَّبِعَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]، وَأَمَرَنَا أَنْ نُعَزِّرَهُ وَنُوَقِّرَهُ وَنَنْصُرَهُ وَجَعَلَ لَهُ مِنَ الحُقُوقِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ حَتَّى أَوْجَبَ عَلَيْنَا أَنْ يَكُونَ أَحَبَّ

النَّاسِ إِلَيْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَهْلِينَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١).

وَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي فَقَالَ: «لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْك مِنْ نَفْسِك»، قَالَ: فَلَأَنْتَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي قَالَ: «الآنَ يَا عُمَرُ»(٢).

وَقَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»(٣).

وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ حُقُوقَهُ الَّتِي لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحُقُوقَ رُسُلِهِ وَحُقُوقَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَمَا بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]. فَالطَّاعَةُ لله وَالرَّسُولِ وَالْخَشْيَةُ وَالتَّقْوَى لله وَحْدَهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، فَالإِيتَاءُ لله وَالرَّسُولِ وَالرَّغْبَةُ لله وَحْدَهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، لِأَنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَأَمَّا الحسب فَهُوَ لله وَحْدَهُ كَمَا قَالَ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وَلَمْ يَقُلْ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

---

(١) حديث صحيح.
(٢) حديث صحيح.
(٣) حديث صحيح.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أَيْ حَسْبُكَ اللهُ وَيَكْفِي مَنْ اتَّبَعَك مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ بِهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ كَلِمَةُ إبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ».

عباد الله ...

إلى هنا انتهى جوابُ شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ الله - عن السؤال المتقدّم ذكره.

وبانتهاء الجواب، نأتي إلى ختام خطبة اليوم، سائلًا المولى - جلّت قدرته - أن يجعلنا وإيَّاكم مِمَّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

الخطبة الثلاثون بعد المائة:

١١- علامات القيامة الصغرى

ظهور الجهل

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الصغرى «ظهور الجهل».

ففي «الصحيحين» عن أنسٍ رَضِي الله عَنْهُ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ[1] وَيَظْهَرَ الجَهْلُ، وَيَفْشُوَ الزِّنَا، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَذْهَبَ الرِّجَالُ وَتَبْقَى النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قَيِّمٌ وَاحِدٌ»[2].

(١) وفي رواية: «أن يَقِلَّ العلم».
(٢) رواه البخاري (٨١)، ومسلم (١٦/ ٢٢١).

قَالَ ابن حجر - رَحِمَهُ الله - في شرحه هٰذا الحديث، ما مختصره :

قوله ﷺ : «أن يَقِل العلم» وفي رواية مسلم «أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ» يُحتمل أن يكون المراد بقلته: أول العلامة، وبرفعه: آخرها، أو أُطلقت القلّة وأريد بها العدم كما يطلق العدم ويراد به القلّة، وهذا أليق لاتحاد المخرج.

قوله: «وتكثر النِّسَاء» قيل: سببه أن الفتن تكثر فيكثر القتل في الرجال لأنهم أهل حرب دون النِّسَاء.

وقال أبو عبد الملك: هو إشارة إلى كثرة الفتوح فتكثر السبايا فيتخذ الرجل الواحد عدة موطوءات.

قلت[1]: وفيه نظر، والظاهر أنها علامة محضة لا لسبب آخر، بل يُقدّر الله في آخر الزمان أن يقلّ مَن يولد مِن الذكور ويكثر مَن يولد مِن الإناث، وكون كثرة النِّسَاء مِن العلامات مناسبة لظهور الجهل ورفع العلم.

وقوله: «لِخَمْسِينَ» يحتمل أن يراد به حقيقة هذا العدد أو يكون مجازًا عن الكثرة، ويؤيده أن في حديث أبي موسى «وترى الرَّجل الواحد يتبعه أربعون امرأة».

قوله: «القَيِّمُ» أي مَن يقوم بأمرهن، واللام للعهد إشعارًا بما هو معهود من كون الرجال قوامين على النِّسَاء، وكأن هذه الأمور الخمسة خُصّت بالذِّكر لكونها مُشعرة باختلال الأمور التي يحصل بحفظها صلاح المعاش والمعاد وهي الدِّين؛ لأن رفع العلم يخلّ به، والعقل لأن شرب الخمر يخلّ به، والنَّسب لأن الزنا يخلّ به، والنفس والمال لأن كثرة الفتن تخل بهما.

قال الكرماني: وإنما كان اختلال هذه الأمور مؤذنًا بخراب العالم؛ لأن الخلق لا يُتركون هملًا، ولا نبيّ بعد نبيِّنا صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، فيتعيّن ذَلِكَ.

وقال القرطبي في «المفهم»: في هذا الحديث علم من أعلام النبوّة، إذ أخبر عن أمور ستقع فوقعت خصوصًا في هذه الأزمان.

وقال القرطبي في «التذكرة»: يُحتمل أن يُراد بالقيِّم مَن يقوم عليهنَّ سواء كُنَّ

---

(١) الكلام لابن حجر - رَحِمَهُ الله - .

موطوءات أم لا، ويحتمل أن يكون ذلك يقع في الزمان الذي لا يبقى فيه مَن يقول: «الله الله» فيتزوج الواحد بغير عدد جهلًا بالحكم الشرعي.

قلت[١]: وقد وُجد ذَلِكَ مِن بعض أُمراء التركمان وغيرهم مِن أهل هذا الزمان مع دعواه الإسلام، والله المستعان» ا.هـ[٢].

عباد الله ...

ومِمَّا سبق يتبيَّن لنا فضلُ العلم، وذمّ الجهل.

قَالَ الراغب: الجهلُ عَلَى ثلاثة أضْرُب:

الأوّل: هو خلوُّ النَّفْس من العلم.

الثَّاني: اعتِقَادُ الشَّيءِ بخلَافِ مَا هُوَ عَليهِ.

الثَّالِثُ: فِعلُ الشَّيءِ بِخلاف مَا حَقُّهُ أن يُفعَلَ، سَواءٌ اعتَقدَ فِيهِ اعتِقَادًا صَحيحًا أو فَاسِدًا، كَمَن يَترُكُ الصَّلاةَ مُتَعمِّدًا، وعلى ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالى: ﴿**قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [البقرة: ٦٧]، فَجَعل فِعلَ الهُزُوِ جهلًا[٣].

وقال: الإنسانُ في الجَهلِ عَلَى أربعةِ مَنَازِلَ:

الأوَّلُ: مَن لا يَعتقدُ اعتِقَادًا لا صَالحًا ولا طَالحًا، فأمرُهُ في إرشَادِهِ سَهلٌ إذَا كان لَهُ طَبعٌ سَليمٌ، فإنَّهُ كَلوحٍ أبيضَ لم يَشغَلهُ نَقشٌ، وكأرضٍ بَيضاءَ لم يُلقَ فيهَا بذرٌ، ويُقالُ لَهُ باعتبَارِ العِلمِ النَّظريِّ: غُفلٌ، وباعتِبَارِ العِلمِ العَمليِّ: غُمرٌ، ويُقالُ لَهُ: سَليمُ الصَّدرِ.

والثَّاني: مُعتَقِدٌ لرأيٍ فَاسِدٍ، لَكنَّهُ لم يَنشأ عَليهِ، ولَم يَترَبَّ بِهِ، واستِنزَالُهُ عَنهُ سَهلٌ. وإن كانَ أصْعَبَ مِنَ الأوَّلِ، فإنَّهُ كَلوحٍ يَحتاجُ فيهِ إلى مَحوٍ وكتَابةٍ، وكأرضٍ يَحتاجُ فيهَا إلى تَنظِيفٍ، ويُقَالُ لَهُ: غَاوٍ وضَالٌّ.

والثَّالثُ: مُعتَقِدٌ لِرَأيٍ فَاسدٍ قَدْ رَانَ عَلَى قَلبِهِ، وتَرَاءَت له صِحَّتُهُ، فرَكَنَ إليه لِجهلِهِ وضَعفِ نَحيزَتِهِ، مِمَّن وصفَهُمُ الله تَعَالى بِقولِهِ: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ**

---

(١) الكلام لابن حجر - رَحِمَهُ الله - .

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢١٥، ٢١٦) باختصار.

(٣) «المفردات» (١٠٢).

الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، فَهَذَا ذُو داءٍ أعيَا الأطبَّاءَ، فَمَا كُلُّ داءٍ لَهُ دواءٌ، فَلَا سبيلَ إلى تَنبُّهِهِ وتَهذيبِهِ.

كَمَا قِيلَ لِحَكيمٍ يَعِظُ شَيخًا جَاهِلًا: مَا تَصنَعُ؟ فَقَالَ: أغسِلُ مِسحًا لعَلَّهُ يَبيَضُّ.

والرَّابع: مُعتقِدٌ اعتِقَادًا فَاسِدًا عُرِفَ فَسَادُهُ، أو تمكَّنَ مِن مَعرِفَتِهِ، لكِنَّهُ اكتَسَبَ دَنيَّةً بِرَأسِهِ، وكُرسِيًّا لِرِئَاسَتِهِ، فَهُو يُحَامي عَلَيها، فَيُجادِلُ بِالبَاطِلِ لِيُدحِضَ بِهِ الحَقَّ، ويَذُمُّ أَهلَ العِلمِ ليَجُرَّ إلى نَفسِهِ، الخَلْقَ، ويُقَالُ لَهُ: فَاسِقٌ ومُنَافِقٌ، وهُوَ مِن الموصُوفِينَ بِالاستِكبَارِ والتَّكبُّرِ في نَحوِ قَولِهِ تَعَالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥]، فَنبَّهَ تَعَالى أنهم يُنكِرُون ما يَقُولُونَهُ لمعرِفَتهم بِبُطلانِهِ، لكِن يَستكبِرُونَ عَن التِزَامِ الحَقِّ وذَلِكَ حَالُ إبليسَ فِيمَا دُعِيَ إليهِ مِنَ السُّجُودِ لآدَمَ عَلَيهِ السَّلام[١].

عباد الله ...

والجهل شرٌّ كُلّه، وعاقبة أمره خُسرًا، نسأل الله العافية.

قَالَ ابنُ القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «أهْلُ الجَهْلِ والظُّلمِ الَّذِين جَمَعُوا بين الجَهْلِ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، والظُّلم باتِّباع أهوائِهِمُ الَّذِين قَالَ الله تَعَالى فِيهِم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]. وهؤلاء قسمان:

أحدهما: الَّذِين يَحسَبُون أنَّهُم عَلَى عِلمٍ وهُدًى وهُم أهلُ الجَهْلِ والضَّلَالِ، فَهَؤُلاء أهلُ الجَهلِ المُركَّبِ الَّذِين يَجْهَلُون الحَقَّ ويُعَادُونَهُ ويُعَادُونَ أهلَهُ، ويَنْصُرُون البَاطِلَ ويُوَالُون أهلَهُ، ﴿وهُم يَحسَبُون أنَّهُم عَلَى شيءٍ ألا أنَّهُم هُمُ الكَاذِبُون﴾ [المجادلة ١٨]، فَهُم لاعتِقَادِهِم الشَّيء عَلَى خِلافِ مَا هُو عَلَيهِ بِمَنزِلَةِ رَائِي السَّرابِ الَّذِي ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، وهَكَذَا هَؤُلاء؛ أعْمَالُهُم وعُلُومُهُم بِمَنزِلَةِ السَّرابِ الَّذِي يَكُونُ صَاحِبُهُ أحوَجَ مَا هُوَ إليه، وَلَمْ يَقْتَصِر عَلَى مُجَرَّدِ الخَيْبَةِ والحِرْمَانِ كَمَا هُو الحَالُ فيمَن أمَّ السَّرابَ فَلَم يَجِدهُ مَاءً، بل انضَافَ إلى ذَلِكَ أنَّهُ وَجَدَ عِندَهُ أحْكَمَ الحَاكِمين وأعْدَلَ العَادِلين سُبْحَانَهُ وَتَعَالى، فَحَسَبَ لَهُ مَا عِندهُ مِنَ العِلمِ والعَمَلِ فَوفَّاهُ

---

(١) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (١٣١، ١٣٢).

إِيَّاهُ بِمَثَاقِيلِ الذَّرِّ، وقَدِمَ إلى مَا عَمِلَ مِن عَمَلٍ يَرجُو نَفعَهُ فَجَعلَهُ هَبَاءً مَنثُورًا، إذ لم يَكُن خَالِصًا لِوَجْهِهِ ولا على سُنَّة رَسُولِه ﷺ، وصَارَت تِلكَ الشُّبهَاتُ البَاطِلَةُ الَّتِي كَانَ يَظُنُّها عُلومًا نَافِعةً كَذَلِك هَبَاءًا مَنثُورًا فَصَارَت أعمَالُهُ وعُلُومُهُ (هكذا).

وَالقِسمُ الثَّاني من هذا الصَّنفِ: أَصْحَابُ الظُّلُماتِ وهُمُ المُنْغَمِسُونَ في الجَهْلِ بِحَيثُ قَدْ أَحَاطَ بِهِم مِن كُلِّ وَجْهٍ، فَهُم بِمَنزلَةِ الأنْعَامِ بَل هُم أَضَلُّ سَبِيلًا، فَهَؤُلاء أَعْمَالُهُم التي عَمِلُوها على غَيْرِ بَصيرَةٍ، بَل بِمُجَرَّدِ التَّقليدِ واتِّبَاعِ الآبَاءِ مِنْ غَيْرِ نُورٍ مِنَ الله تَعَالى. كَظُلُماتٍ عَديدةٍ، وهِيَ ظُلمَةُ الجَهْلِ، وظُلْمَةُ الكُفْرِ، وظُلْمَةُ الظُّلم، واتِّبَاعِ الهَوَى. وظُلمَةُ الشَّكِّ والرَيبِ، وظُلمَةُ الإعْرَاضِ عَنِ الحَقِّ الَّذِي بَعَثَ الله تَعَالى به رُسُلَهُ صَلَوَاتُ الله وسَلامُهُ عَلَيْهِم، والنُّورُ الَّذِي أَنْزَلَهُ مَعَهُم لِيُخرجُوا به النَّاس مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ، فإنَّ المُعْرِضَ عما بَعَثَ الله تَعَالى به مُحَمَّدًا ﷺ مِن الهُدى ودين الحقِّ يَتقلَّبُ في خَمْسِ ظُلُماتٍ: قَولُهُ ظُلْمَةٌ، وعَمَلُهُ ظُلْمَةٌ، ومَدْخَلُهُ ظُلْمَةٌ، ومَخرَجُهُ ظُلْمَةٌ، ومَصِيرُهُ إلى الظُّلمَةِ، وقَلبُهُ مُظلِمٌ، وَوَجْهُهُ مُظْلِمٌ، وَكَلامُهُ مُظْلِمٌ، وحَالُهُ مُظْلِمٌ، وإذَا قَابلَت بَصِيرتُهُ الخُفَّاشِيَّةُ مَا بَعَثَ الله بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِن النُّورِ جَدَّ في الهَرَبِ مِنْهُ، وكَادَ نُورُهُ يَخطَفُ بَصَرَهُ فَهَرَبَ إلى ظُلُمَاتِ الآرَاءِ الَّتِي هِيَ بِهِ أَنْسَبُ وأَوْلى كَما قِيلَ:

خَفَافِيشُ أَعْشَاهَا النَّهَار بِضَوئِهِ ... وَوَافَقَهَا قِطْعٌ مِنَ اللَّيْل مُظلمُ

فَإذَا جَاءَ إلى زُبَالَةِ الأفْكَارِ ونُخَالَةِ الأذْهَانِ جَالَ ومَالَ، وأَبْدَى وأَعَادَ، وقَعْقَعَ وفَرْقَعَ، فَإذَا طَلَعَ نُورُ الوَحْي وشَمْسُ الرِّسَالَةِ انْحجَرَ في حُجرَةِ الحَشَرَاتِ» ا.هـ[1].

عباد الله ...

وللجاهل علامات يُعرف بها:

قَالَ أبو الدَّرداء رَضِيَ الله عَنْهُ: «علامةُ الجاهلِ ثلاثٌ: العُجْبُ، وكثرةُ المنطقِ فِيما لا يَعنِيه، وأن ينهى عن شيءٍ ويأتِيَهُ» ا.هـ[2].

فمن كانت فيه هَذِهِ العلامات، فاحذروه، وارفضوه.

---

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية عَلَى غزو المعطِّلة والجهمية» (١٥ - ١٧) باختصار.
(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٤٣).

قَالَ عليٌّ رَضِيَ الله عَنْهُ:

فَـــلا تَـــصْحَب أخَـــا الجَهـــل وإيَّـــــــــاكَ وإيَّـــــــــاهُ

يُقَــــاسُ المَـــــرءُ بالمَـــــرءِ إذا مَـــــا المَـــــرءُ مَاشَـــــاهُ

قِـــــيَاسَ الـــــنَّعلِ بالـــــنَّعلِ إذا مَـــــا الـــــنَّعلُ حَـــــاذَاهُ

وللـــــشَّيءِ عَلَـــــى الـــــشَّيءِ مَقَايـــــــــيسٌ وأشْـــــــبَاهُ

وللقَلـــــبِ عَلَـــــى القَلـــــبِ دَلـــــيلٌ حِـــــينَ يَلقَـــــاهُ[١]

اللَّهُمَّ علِّمنا ماجَهِلنا، وانفعنا بها عَلَّمتنا، واهدِنا واهْدِ بِنا، واجعلنا سببًا لَمن هتدى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يسأل سأل: هل للجهل دواء؟

ويجيب عن هذا السؤال (سابقُ البَربريُّ) - رَحِمَهُ الله - فيقول:

الجهـــــلُ داءٌ قاتِـــــلٌ وشـــــفاؤُهُ أمـــــرانِ في التركـــــيبِ مُـــــتَّفِقَانِ

نـــصٌّ مِـــن القُـــرآنِ أو مـــن سُـــنَّةٍ وطبـــيبُ ذَاكَ العـــالِمُ الرَّبانـــي[٢]

فسُؤال أهلِ العلمِ الربانيين هو الشفاء النَّافع، والدواء الناجع.

فالزموا - عباد الله - غرز العلماء الربانيين، قبل أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل.

قال تَعَالَى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وعن ابْنَ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلاً أَصَابَهُ جُرْحٌ فِي رَأْسِهِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ

---

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ٥٦٤).

(٢) «فتح المجيد» (٣١٧).

أَصَابَهُ احْتِلاَمٌ، فَأُمِرَ بِالإِغْتِسَالِ فَاغْتَسَلَ فَكُزَّ[١] فَمَاتَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**قَتَلُوهُ قَتَلَـهُمُ اللَّهُ أَفَلَمْ يَكُنْ شِفَاءَ العِيِّ[٢] السُّؤَالُ**»[٣].

وقال الشَّعبيُّ - رَحِمَهُ الله -: «جالسوا العلماء، فإنكم إن أحسنتم حَمِدُوكم، وإن أسأتم تأوّلوا لكم وعذروكم، وإن أخطأتم لم يُعَنِّفوكم، وإن جَهِلتُم علّموكم، وإن شهدوا لكم نَفَعُوكُم»[٤].

۞۞۞۞۞

---

(١) **فَكُزَّ**: الكُزازة: داء يتولّد من شدّة البرد، وقيل: هو نفس البرد.

(٢) هو الجهل.

(٣) **حسن**: رواه ابن ماجه، وانظر «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٧٠).

(٤) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٣٠).

الخطبة الحادية والثلاثون بعد المائة:

(١٢) علامات القيامة الصغرى

رفع العلم

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريكَ لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الصُّغرى «رفع العلم»، فقد تقدَّم معنا: أن النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ وَيَظْهَرَ الجَهْلُ وَيَفْشُوَ الزِّنَا وَيُشْرَبَ الخَمْرُ وَيَذْهَبَ الرِّجَالُ وَتَبْقَى النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قَيِّمٌ وَاحِدٌ» (١).

وقد تقدَّم - بفضل الله تعالى - شرحه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

عباد الله ...

كيف يُرفع العلم؟

يجيب عن هذا السؤال النَّبيُّ ﷺ .

فعَن عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما قال: قال رَسُول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا، يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[(١)].

قال ابن حجر: قوله: «لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا» أي: محوًا من الصدور، وكان تحديث النبيّ ﷺ بذلك في حجّة الوداع كما رواه أحمد والطبراني من حديث أبي أُمامة قال: لما كان في حجّة الوداع قال النبيُّ ﷺ : «خُذُوا العِلْمَ قَبْلَ أَنْ يُقبض - أو يُرفع». فقال أعرابيٌّ: كيف يُرفع؟ فقَالَ: «ألا إِنَّ ذَهَابَ العِلْمِ ذهابُ حَمَلَتُهُ» ثلاث مرات.

قال ابن المنيّر: محو العلم من الصدور جائز في القدرة، إلّا أنَّ هذا الحديث دلّ على عدم وقوعه ا.هـ.[(٢)].

وقال **الإمام النووي** - رحمه الله تعالى - : «هذا الحديث بيّن أن المراد بقبض العلم ليس هو محوه من صدور حفَّاظه، ولكن معناه أن يموت حملته، ويتخذ الناس جُهَّالًا يحكمون بجهالاتهم فيضلّون ويضلّون» ا.هـ[(٣)].

وقال **ابن حجر** - رحمه الله تعالى - : «وفي هذا الحديث: الحثّ على حفظ العلم، والتحذير من ترئيس الجهلة، وفيه: أن الفتوى هي الرئاسة الحقيقية، وذم من يقدر عليها بغير علم.

واستدلّ الجمهور على القول بخلوِّ الزَّمان على مجتهد، ولله الأمر يفعل ما يشاء» ا.هـ[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٣٥).
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ١٦٩).
(٤) «فتح الباري» (١/ ٢٣٥، ٢٣٦).

وقال النَّوويّ - رحمه الله - : «وفي هذا الحديث: الحثّ على حفظ العلم وأخذه عن أهله، واعتراف العالم للعالم بالفضيلة» ا.هـ[١].

عباد الله ...

ويمكننا حصر الحديث - هنا - في ثلاثة أمور:

الأول: الحثّ على حفظ العلم:

«والعِلمُ النَّافعُ هُو مَا كَانَ ضَبطَ نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وفَهمَ مَعَانيهَا والتَّقيُّدَ في ذَلِكَ بِالمأثُورِ عَنِ الصَّحابَةِ والتَّابعينَ وتَابِعيهم في مَعَانِي القُرآنِ وَالحديثِ، وفِيما وَرَدَ عَنهُم مِن الكَلامِ مِنْ مَسَائِلِ الحَلالِ والحَرَامِ والزُّهدِ والرَّقَائِقِ والمَعَارِفِ وغَيرِ ذَلِكَ.

والاجْتهَادِ عَلَى تَمييزِ صَحِيحهِ مِنْ سَقِيمهِ أوَّلًا، ثُمَّ الاجتِهَادِ عَلَى مَعرفَةِ مَعَانيهِ وتَفهُّمِهِ ثَانيًا، وهَذَا العِلمُ النَّافعُ يدُلُّ عَلَى أمرَينِ:

أحَدُهُما: مَعرِفَةُ الله ومَا يَستحِقُّهُ مِنَ الأَسْمَاءِ الحُسنَى والصِّفاتِ العُلَى والأفعَالِ البَاهِرَةِ، وذَلكَ يَستَلزِمُ إجلَالهُ وإعظَامَهُ، وخَشيَتَهُ ومَهَابتَهُ، ومَحبَّتَهُ ورَجَاءَهُ، والتَّوكُّلَ عَليهِ والرِّضَا بِقضَائِهِ والصَّبرَ عَلَى بَلائِهِ.

والأمرُ الثَّاني: المَعرفَةُ بِمَا يُحِبُّهُ ويرضَاهُ، ومَا يَكرَهُهُ ويَسخطُهُ مِنَ الاعتِقَادَاتِ، والأعمالِ الظَّاهِرةِ والبَاطِنَةِ والأقْوَالِ» ا.هـ[٢].

الأمر الثاني: بيان فضل العلماء:

لما أخبر الله - سبحانه وتعالى - ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة، قالوا له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٠- ٣٢].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ١٦٩).

(٢) «فضل علم السلف على الخلف» لابن رجب الحنبلي (١٥٠، ١٥١).

وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء.

قال الإمام ابن القيِّم - رحمه الله - عقب ذكره لهذه القصّة:

«**وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه:**

أحدها: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ردَّ على الملائكة لما سألوه: كيفَ يجعل في الأرضِ من هم أطوَعُ له منه؟ فقال: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾، فأجابَ سؤالَهم بأَنَّهُ يعلمُ من بواطنِ الأمور وحقائقها ما لا يعلمونهُ، وهو العليمُ الحكيم، فظَهَرَ من هذا الخليفَة من خيارِ خَلقِهِ ورُسلِهِ وأنبيائِهِ وصالحي عبادِهِ والشهداء والصِّدِّيقين والعلماءِ وطبقاتِ أهل العلم والإيمانِ مَن هو خيرٌ من الملائكةِ، وظَهَرَ مِن إبليسَ من هو شرُّ العالمين، فأخرَجَ سُبْحَانَهُ هذا وهذا، والملائكة لم يكُن لها علمٌ لا بهذا ولا بهذا، ولا بما في خَلقِ آدمَ وإسكانِهِ الأرضَ من الحِكَمِ الباهرة.

الثاني: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لما أراد إظهار تَفضيلِ آدم وتَمييزِهِ فَضَّلَهُ وميَّزَهُ عليهم بالعلم، فعلَّمَهُ الأسماء كلَّها، ﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ٣١].

جاء في التَّفسير: أنَّهُم قالوا: لن يخلُقَ ربُّنا خَلقًا هو أكرَمُ عليه منَّا، فَظَنُّوا أنَّهُم خيرٌ وأفضلُ مِن الخليفَةِ الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنَهُم بعلمِ ما علَّمهُ لهذا الخليفة أقرُّوا بالعجزِ وجَهلِ ما لم يَعلموهُ، فقالوا: ﴿**سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة: ٣٢]، فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصَّهُ به من العلم، فقال: ﴿**يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ**﴾ [البقرة: ٣٣] أقروا له بالفضل.

الثالث أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لما عرَّفُهم فضل آدمَ بالعلمِ وعجزهم عن معرفَةِ ما علَّمَهُ قال لهم: ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٣]، فعرفهم سُبْحَانَهُ نفسه بالعلمِ، وأنه أحاطَ علمًا بظاهرهم وباطنهم وبغيبِ السَّموات والأرض، فتعرَّفَ اليهم بصِفَة العلم، وعرَّفهُم فضلَ نبيِّه وكليمِهِ بالعلمِ وعجزهم عمَّا آتاه آدمَ مِن العلم، وكفى بهذا شرفًا للعلم.

الرابع: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ جعل في آدم مِن صفات الكمالات ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يُظهر لملائكته فضله وشرفه، فأظهر لهم أحسن ما فيه

وهو علمُه، فدلّ على أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم، ونظير هذا ما فعله بنبيِّه يوسف عليه السلام لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهلِ مصر مِن علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذ قدَّمه ومكَّنه وسلَّم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته، ولما ظهر له حسنُ صورة علمه وجمالُ معرفته أطلقه من الحبس ومكَّنه في الأرض، فدلّ على أنَّ صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسِّيَّة ولو كانت أجمل صورة.

وهذا وجه مستقل في تفضيل العلم مضافٌ إلى ما تقدّم» ا.هـ[١].

عباد الله ...

وممّا يدلّ على شرف العلم وأهله، الحديث التالي:

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الأَنَّمارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ:**

عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ عند الله.

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ.

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ عند الله.

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ وهُما في الوزرِ سَوَاءٌ»[٢].

قال الإمامُ ابن القيِّم - رحمه الله - عقب ذكره لهذا الحديث:

«فقسَّم النَّبيَّ ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام:

الأوَّل: خيرهم مَن أوتي علمًا ومالًا فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله.

---

(١) «تنقيح الإفادة من مفتاح دار السعادة» للشيخ/ سليم الهلالي (٨٨ - ٩٠).
(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨).

الثاني: ويليه في المرتبة من أُوتي علما ولم يؤت مالًا وإن كان أجرهما سواء فذلك إنَّما كان بالنية وإلا فالمنفق المتصدق فوقهُ بدرجة الإنفاق والصدقة، والعالِمِ الَّذِي لا مال له إنَّما ساواه في الأجر بالنِّيَّة الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد.

الثالث: من أوتي مالا ولم يؤت علما، فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله لأنَّ ماله طريق إلى هلاكه فلو عدمه لكان خيرًا له فإِنَّهُ أعطى ما يتزوَّدُ به إلى الجَنَّة فجعله زادًا له إلى النار.

الرابع: مَن لم يؤتَ مالا ولا علما ومن نيَّتهُ أَنَّهُ لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله، فهذا يلي الغني الجاهل في المرتبة ويساويه في الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها، وهو القول الَّذِي لم يقدر على غيره.

فقسَّم السُّعداء قسمين، وجَعَلَ العلم والعَمَلَ بموجبِهِ سببَ سعادتهما، وقسَّم الأشقياءَ قسمين وجعل الجهل وما يَتَرَتَّبُ عليه سبَبَ شقاوتهما، فعادت السَّعادةُ بجملتها إلى العلمِ وموجبِهِ، والشقاوةُ بجملتها إلى الجَهلِ وثمرتِهِ» ا.هـ[١].

فينبغي على العلماء: صيانة العلم الذي حملوه.

ولله دَرُّ عليّ بن عبد العزيز القاضي الجُرجانيّ - رحمه الله - حين قال:

يَقُولُونَ لي: فِيكَ انقبَاضٌ، وإنَّمَا	رَأوا رَجلاً عَن مَوقِفِ الذُّل أحْجَمَا
أرَى النَّاسَ مَن دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُم	ومَن أكْرَمَتهُ النَّفس أُكْرِمَا
ولَم أقْضِ حَقَّ العِلمِ إنْ كَانَ كُلَّمَا	بَدَا طَمَعٌ صَيَّرتُهُ لِي سُلَّمَا
وَمَا كُلُّ بَرقٍ لاحِ لي يَستفِزُّني	ولا كُلَّ مَن لاقَيْتُ أرْضَاهُ مُنْعِمًا
إذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أرَى	ولكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحتمِلُ الظَّمَا
أُنَهْنِهُهَا عَن بَعضِ مَا لا يَشِينُهَا	مَخَافَةَ أقْوَال العِدَا فِيمَ أوْلِمَا
ولَم أبْتَذِل في خِدمَةِ العِلمِ مُهجَتِي	لأخْدِمَ مَن لاقَيْتُ لَكِن لأُخْدَمَا
أأَشْقَى بِهِ غَرسًا وأجْنِيهِ ذِلَّةً	إذًا فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أحْزَمَا

---

(١) «تنقيح الإفادة» (٢٨٦، ٢٨٧).

ولَـو أنَّ أهْـلَ العِلـمِ صَـانُوهُ صَـانَهُم … ولَـو عَظَّمُـوهُ فِي الـنُّفُوسِ لَعُظِّمَـا
ولَكِـن أهَانُـوهُ فَهَـانَ ودَنَّسُوا … مُحَـيَّاهُ بالأطْمَـاعِ حَتَّـى تَجَهَّمَـا[1]

أسأل الله تعالى أن يرزقني وإيَّاكم العلم النَّافع والعمل الصالح.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم..

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والأمر الثالث: مكانة الفتوى في الإسلام:

إن الإفتاء منصب كبير، وهو في نفس الوقت شرف لمن يقوم به - إن كان أهلًا - ومسئولية.

لذلك كان الله تعالى يتولَّ الإفتاء بنفسه، قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، فأفتى الله عَزَّ وَجَلَّ بنفسه، ونسب الإفتاء لذاته المقدَّسة. فالمعنى يوقّع بالنيابة عن الله تعالى.

وقد صنَّف الإمامُ ابن القيم - رحمه الله - في هذا الشأن كتابًا برأسه، أسماه «**إعلام الموقعين عن ربّ العالمين**».

عباد الله ...

إن القول على الله بلا علم أعظم من الشِّرك بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «فذكر سبحانه المحرَّمات

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماورديّ (٩٢).

الأربع مبتدئًا بالأسهل ثم ما هو أصعب منه، ثم كذلك حتى ختمها بأعظمها وأشدّها، وهو القول عليه بلا علم» ا.هـ[١].

لذا هاب السَّلف الصَّالح الفُتيا...

فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى - وهو من التابعين - قال: أدركتُ عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم من أحد يُحدِّث بحديث إلَّا ودّ أن أخاه كفاه إيَّاه، ولا يُستفتى عن شيء إلَّا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا[٢].

وسُئِل مالك - رحمه الله - في مسألةٍ، فقال: لا أدري.

فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة.

فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]؟ فالعلم كلّه ثقيل، وبخاصة ما يُسأل عنه يوم القيامة[٣].

عباد الله ...

وأختم خطبة اليوم بكلام للإمام أحمد - رحمه الله - يكتب بماء الذهب...

قال - رحمه الله - : «لا ينبغي للرجل أن ينصّب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

الأولى: أن تكون له نيّة، فمن لم يكن له نيّة لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور.

الثانية: أن يكون له علم وحلم ووقار[٤].

الثالثة: أن يكون قويًا على ما هو فيه وعلى معرفته، بمعنى أن يكون متمكنًا من العلوم الشرعية، قادرًا على معرفتها والإحاطة بها.

الرابعة: الكفاية، وإلَّا مضغه الناس، ويقصد بالكفاية: الاستغناء عن الناس[٥].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٨).

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٤٩).

(٣) «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٤).

(٤) قال الفرَّاء: «أدب النفس، ثم أدب الدرس».

(٥) قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: «مَن أراد أن يأكل الخبز بالعلم فلتبكِ عليه البواكي».

الخامسة: معرفة الناس» [(١)]. أي: يعرف الناس وحيلهم وألاعيبهم، لئلَّا يغتر بأقوالهم أو مكرهم.

عباد الله ...

وبعد أن بان لكم الطريق، فإياكم وأدعياء العلم، لا تستفتونهم فيضلونكم.

واسمعوا إلى قول ابن مسعود رضي الله عنه وهو يقول: «لا يزال الناس بخير ما أخذوا من أكابرهم، فإذا أخذوا عن أصاغرهم وشرارهم هلكوا».

قال ابن المبارك: الأصاغر: أهل البدع. وقيل: من لا علم عنده.

اللَّهمَّ إنَّا نسألك علمًا نافعًا، وعملًا متقبلًا



(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ١٩٩).

الخطبة الثانية والثلاثون بعد المائة:

علامات القيامة الصغرى

(أ) خروج الدجالين أدعياء النبوة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الصغرى: «خروج الدَّجالين أدعياء النبوة».

عباد الله ...

وقد ورد في خروج هؤلاء أحاديث كثيرة، منها:

(١) عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاَثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي»[1].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) وعن أبي هُرَيْرَةَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ يَأْتُونَكُمْ مِنَ الأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لاَ يُضِلُّونَكُمْ وَلاَ يَفْتِنُونَكُمْ»[(١)].

(٣) وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ: «إِنَّ فِي البَحْرِ شَيَاطِينَ مَسْجُونَةً أَوْثَقَهَا سُلَيْمَانُ يُوشِكُ أَنْ تَخْرُجَ فَتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ قُرْآنًا»[(٢)].

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه هذا الحديث: «معناه: تقرأ شيئًا ليس بِقُرآن وتقول إنَّه قرآن لتغر به عَوَام الناس فلا يغترون» ا.هـ[(٣)].

وقد ظهر من هؤلاء الأدعياء جماعة، منهم:

- مسيلمة الكذاب.
- الأسود العَنسي.

أما مسيلمة الكذَّاب؛ فقد ادَّعى النبوّة على عهد رسول الله ﷺ في بني حنيفة.

قال ابن إسحاق: «وقد كان تكلَّم في عهد رسول الله ﷺ الكذَّابان مُسيلمة بن حبيب باليمامة في بني حنيفة، والأسود بن كعب العَنسي بصنعاء».

وقدم مسيلمة المدينة وافدًا إلى رسول الله ﷺ فسمعه النبي ﷺ وهو يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعتُه!! فقال له ﷺ: «**لو سألتني هذا العود** - لعرجون في يده - **ما أعطيتكه، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، إني أراك الذي أريتُ فيه ما رأيت**».

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام كأن في يديه سوارين من ذهب، فأهمَّه شأنهما، فأوحى الله إليه في المنام: انفخهما، فنفخهما فطارا، فأوَّلهما بكذابين يخرجان، وهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة، وهكذا وقع فإنهما ذهبا وذهب أمرُهما - كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يخطب

(١) رواه مسلم (٧).
(٢) رواه مسلم (٧)، وله حكم المرفوع، لأن مثله لا يقال من قبل الرأي.
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ٧٢).

الناس على منبره وهو يقول: «أيها الناس، إني قد رأيتُ ليلة القدر، ثم أنسيتها، ورأيتُ في ذراعيّ سوارين من ذهب، فكرهتهما، فنخفتهما فطارا، فأوّلتهما هذين الكذّابين: صاحب اليمن، وصاحب اليمامة»[1].

وروى البخاري في «صحيحه»: أن مسيلمة كتب إلى رسول الله ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم...

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله!! سلام عليك، أما بعد..

فإني قد أُشركت معك في الأمر، فلك المدر ولي الوبر.

وفي رواية: فلكم نصف الأرض، ولنا نصفها، ولكن قريشًا قوم يعتدون.

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم...

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب، سلامٌ على مَن اتَّبع الهُدى، أمّا بعد...

فإن الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

ولما مات رسول الله ﷺ زعم مسيلمة أنَّهُ استقل بالأمر من بعده، أي أخذ الأرض كلها بمدرها ووبرها، وكان يقول:

خذي الدف يا هذه والعبي وبُثّي محاسن هذا النبي

تولى نبيّ بني هاشم وقام نبيّ بني يعرب!!

فلم يعش بعدها إلّا قليلًا، فدقّت عنُقه، وقطع الله دابره.

هذا؛ وقد ادّعى مسيلمة أن قُرآنًا ينزل عليه!!

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[2]: «لما قدمت وفود بني حنيفة على الصدّيق رضي الله عنه قال لهم: أسمعونا شيئًا من قرآن مسيلمة.

فقالوا: أوتعفينا يا خليفة رسول الله.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٨٦) من طريق ابن إسحاق.

(٢) في «البداية والنهاية» (٥/ ٣٢، ٣٣).

فقال: لابد من ذَلِكَ.

فقالوا: كان يقول: «يا ضفدع بنت الضفدعين نقّي كما تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء وذنبك في الطين».

وكان يقول: «والمبذرات زرعًا والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمنًا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والناعي فواسوه، والباغي فناووه».

وذكروا أشياء من هذه الخرافات التي يأنف من قولها الصبيان وهم يلعبون.

فيقال: إن الصِّدِّيق قال لهم: ويحكم أين كان يذهب بقولكم؟ إن هذا الكلام لم يخرج من إل.

وكان يقول: «والفيل وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل».

وكان يقول: «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسد من رطب ولا يابس».

وقوله: «لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى».

وأشياء من هذا الكلام السخيف الركيك البارد السمج، وقد أورد أبو بكر ابن الباقلاني - رحمه الله - في كتابه «إعجاز القرآن» أشياء من كلام هؤلاء الجهلة المتنبئين كمسيلمة وطليحة والأسود وسجاح وغيرهم مما يدل على ضعف عقولهم وعقول مَن اتبعهم على ضلالهم ومحالهم.

وقد روينا عن عمرو بن العاص: «أنه وفد إلى مسيلمة في أيام جاهليته فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين؟

فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة.

فقال: وما هي؟

قال: أنزل عليه: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

قال: ففكر مسيلمة ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليَّ مثلها.

فقال له عمرو: وما هي؟

فقال مسيلمة: «ياوبر ياوبر إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر».

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟

فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب».

وقال سيف بن عمر عن خليد بن زفر النمري عن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة فقال: أين مسيلمة؟

فقال: مه، رسول الله.

فقال: لا حتى أراه.

فلما جاء قال: أنت مسيلمة؟

فقال: نعم.

قال: من يأتيك؟

قال: رجس.

قال: أفي نور أو في ظلمة؟

فقال: في ظلمة.

فقال: أشهد أنك كذَّاب وأن محمدًا صادق، ولكن كذَّاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر، واتبعه هذا الأعرابي الجلف - لعنه الله - حتى قتل معه يوم عقربًا، لا رحمه الله».

عباد الله ...

وحاول مسيلمة أن يتشبّه بالنبيّ ﷺ فادَّعى أن له أيضًا معجزات كمعجزات النبيّ ﷺ فماذا حدث؟

قال ابن كثير: وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبي ﷺ، بلغه أن رسول الله

ﷺ بصق في بئر فغزر ماؤه، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفي أخرى فصار ماؤه أُجاجًا، وتوضأ وسقى بوضوئه نخلا فيبست وهلكت، وأتى بولدان يبرك عليهم، فجعل يمسح رءوسهم، فمنهم من قرع رأسه ومنهم من لثغ لسانه، ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي[١].

عباد الله ...

ولم يُمهل الله تعالى هذا الدَّجال الخبيث، فقد قيَّض الله له مَن عَجَّل به إلى النار.

لما تُوفيّ رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، ذرّ قَرن الفتنة، وزاد خطرها، وكثر الناس حول مسيلمة، واستعد الخبيث لخوض معركة شاملة حاسمة ضد المسلمين، كما ارتدت بعض القبائل الأخرى في أماكن متفرقة، وعظم الخَطب، وتفاقم الخطر، فكان ولابد من تأديب المجرمين، وتقليم أظافرهم، واجتثاث جذورهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ونهض أبو بكر الصديق رضي الله عنه كالأسد الهصور فعقد أحد عشر لواءً لتأديب المرتدين، وإطفاء الفتن التي اندلعت في أماكن شتى، وفعلًا قام بالأمر على أحسن ما يكون، فعادت القبائل إلى أحضان الإسلام، ورفرفت راية التوحيد الخالص على ربوع البلاد.

فبعث رضي الله عنه خالد بن الوليد لتأديب المرتدين والقضاء على مسيلمة الكذاب، وأوعب معه المسلمون، وعلى الأنصار ثابت بن قيس، فسار لا يمرّ بأحد من المرتدين إلا نكّل بهم، وقد اجتاز بخيول لأصحاب سجاح فشردهم وأمر بإخراجهم من جزيرة العرب، وأردف الصدِّيق خالدًا بسرية لتكون ردءًا له من وراءه، وقد كان بعث قبله إلى مسيلمة «عكرمة بن أبي جهل» و«شرحبيل بن حسنة» فلم يقاوما بني حنيفة، لأنهم في نحو أربعين ألفًا من المقاتلة، فعجّل عكرمة قبل مجيء صاحبه شرحبيل فناجزهم فنكب، فانتظر خالدًا، فلما سمع مسيلمة بقدوم خالدًا عسكر بمكان يقال له عقربًا، في طرف اليمامة والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثّهم، فحشد له أهل

---

(١) «البداية» (٥/ ٣٣).

اليمامة، وجعل على مجنبتي جيشه المحكم بن الطفيل، والرَّجال بن عُنفوة بن نهشل.

وكان الرَّجال هذا صديقه الذي شهد له أَنَّهُ سمع رسول الله ﷺ يقول: إنه قد أشرك معه مسيلمة بن حبيب في الأمر. فكان هذا الملعون من أكبر من أضلّ أهل اليمامة، حتى اتبعوا مسيلمة، لعنهما الله.

وقد كان الرَّجال هذا قد وفد إلى النبي ﷺ وقرأ البقرة، وجاء زمن الرِّدة إلى أبي بكر فبعثه إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الله ويثبتهم على الإسلام، فارتد مع مسيلمة وشهد له بالنبوة.

قال سيف بن عمر عن طلحة عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه: «كنتُ يومًا عند النبي ﷺ في رهط معنا الرَّجال بن عفوة، فقال ﷺ: «**إن فيكم رجلًا ضرسه في النار أعظم من أُحُد**»، فهلك القوم وبقيتُ أنا والرَّجال، وكنتُ متخوّفًا لها، حتى خرج الرَّجال مع مسيلمة، وشهد له بالنبوة، فكانت فتنة الرَّجال أعظم من فتنة مسيلمة»، رواه ابن إسحاق عن شيخ عن أبي هريرة.

وقرب خالد وجعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة، وقد مرَّت المقدمة في الليل بنحو من أربعين، وقيل: ستين فارسًا، عليهم مجاعة بن مرارة، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له في بني تميم، وبني عامر، وهو راجع إلى قومه فأخذوهم، فلما جيء بهم إلى خالد عن آخرهم فاعتذروا إليه فلم يصدقهم، وأمر بضرب أعناقهم كلهم سوى مجاعة، فإنه استبقاه مقيدًا عنده - لعلمه بالحرب والمكيدة - وكان سيِّدًا في قومه، شريفًا مطاعًا.

ويقال: إن خالدًا لما عرضوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في بني حنيفة؟

قالوا: نقول منا نبيّ ومنكم نبي.

فقتلهم إلا واحدًا اسمه سارية، فقال له: أيها الرجل إن كنت تريد غدًا بعدول هذا خيرًا أو شرًّا فاستبق هذا الرجل - يعني مجاعة بن مرارة - فاستبقاه خالدًا مقيدًا، وجعله في الخيمة مع امرأته، وقال: استوصي به خيرًا.

فلما تواجه الجيشان قال مسيلمة لقومه: اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحهن غير خطيَّات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم.

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرق على اليمامة، فضرب به

عسكره، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس، والعرب على راياتها، ومجاعة بن مرارة مقيّد في الخيمة مع أم تميم امرأة خالد.

فاصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وهموا بقتل أم تميم، حتى أجارها مجاعة وقال: نعمت الحرّة هذه.

وقد قُتل الرَّجال بن عُنفوة - لعنه الله - في هذه الجولة، قتله زيد بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم تذامر الصحابة بينهم، وقال ثابت بن قيس: بئس ما عودتم أقرانكم، ونادوا من كل جانب: أخلصنا يا خالد.

فخلصت ثلة من المهاجرين والأنصار، وحمى البراء بن معرور... وأخذ يثور كما يثور الأسد، وقاتلت بنو حنيفة قتالًا لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السِّحر اليوم.

وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تحنّط وتكفّن، فلم يزل ثابتًا حتى قُتل هناك.

وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نُؤتى من قِبلك؟

قال: بئس حامل القرآن أنا إذًا.

وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم، واضربوا في عدوّكم، وامضوا قُدمًا.

وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجّتي، فقُتل شهيدًا رضي الله عنه.

وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بأفعالكم، وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب رضي الله عنه.

وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم، وسار لجبال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصّفين ودعا للبراز، وقال: أنا ابن الوليد العَود، أنا ابن عامر وزيد.

ثم نادى بشعار المسلمين، وكان شعارهم يومئذٍ «يا محمداه».

وجعل لا يبرز لهم أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله.

ودارت رحى المسلمين ثم اقترب من مسيلمة فعرض عليه النصف[١] والرجوع إلى الحق، فجعل شيطان مسيلمة يلوي عنقه، لا يقبل منه شيئًا، وكلما أراد مسيلمة يقارب من الأمر صرفه عنه شيطانه، فانصرف عنه خالد وقد ميّز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكل بني أب على رايتهم، يقاتلون تحتها، حتى يعرف الناس من أين يؤتون، وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبرًا لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوّهم حتى فتح الله عليهم، وولى الكفار الأدبار، واتبعوهم يقتلون في أقفائهم، ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاءوا حتى ألجؤوهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم محكم اليمامة - وهو حكم بن الطفيل لعنه الله - بدخولها، فدخلوها وفيها عدوّ الله مسيلمة لعنه الله، وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر محكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، وقال البراء[٢] بن مالك: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة.

فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة، حتى خلصوا إلى مسيلمة لعنه الله، وإذا هو واقف في ثلمة جدار كأنه جمل أورق، وهو يريد يتساند، ولا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه، فتقدم إليه وَحْشِيّ بن حَرب مولى جبير ابن مطعم - قاتل حمزة - فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دُجانة سِمَّاك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط، فنادت امرأة من القصر: واأمير المؤمنيناه، قتله العبد الأسود.

فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة قريبًا من عشرة آلاف مقاتل، وقيل: أحد وعشرون ألفًا.

---

(١) النصف: الإنصاف، والمراد والله أعلم: أن يعترف بكذبه على الله وعلى الناس.

(٢) أخو أنس بن مالك رضي الله عنهما.

وقُتل من المسلمين ستمائة، وقيل: خمسمائة، والله أعلم، وفيهم من سادات الصحابة وأعيان الناس.

وخرج خالد ومعه مجاعة بن مرارة يرسف في قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرفه بمسيلمة، فلما مرّوا بالرَّجال بن عنفوة قال له خالد: أهذا هو؟

قال: لا، والله هذا خير منه، هذا الرَّجال بن عنفوة.

قال سيف بن عمر: ثم مرّوا برجل أصفر أخنس، فقال: هذا صاحبكم؟

فقال خالد: قبحكم الله، على اتباعكم هذا.

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، ثم عزم على غزو الحصون، ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار، فخدعه مجاعة فقال: إنها ملأى رجالًا مماثلة فهلم فصالحني عنها، فصالحه خالد لما رأى المسلمين من الجهد وقد كلّوا من كثرة الحروب والقتال، فقال: دعني حتى أذهب إليهم ليوافقوني على الصلح.

فقال: اذهب.

فسار إليهم مجاعة فأمر النساء أن يلبسن الحديد ويبرزن على رؤوس الحصون، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس، فظنهم كما قال مجاعة، فانتظر الصلح، فصالحهم على البيضاء والصفراء والحلقة واكداع ونصف الرقيق.

وقيل لخالد: إن مجاعة قد خدعك.

فقال له: يا مجاعة خدعتني.

فقال: وإنهم قومي وقد أفنيتهم فلا تلمني على ذَٰلِكَ.

وقد قال ضرار بن الأزور رضي الله عنه في غزوة اليمامة:

فلو سألت عنا جنوب لأخبرت	**عشية سالت عقرباء وملهم**
وسال بفرع الواد حتى ترقرقت	**حجارته فيه من القوم بالدم**
عشية لا تغني الرماح مكانها	**ولا النبل إلا المشرفيُّ المصمم**

فإن تبتغي الكفار غير مسيلم جنوبٌ فإني تابع الدين مسلم
أجاهدُ إذا كان الجهاد غنيمة ولله بالمرء المجاهد أعلم

وقد قال خليفة بن خيّاط، ومحمد بن جرير، وخلقٌ من السَّلف: وكانت وقعة اليمامة في سنة إحدى عشرة، وقال ابن نافع: في آخرها.

وقال الواقدي وآخرون: كانت وقعة اليمامة في سنة ثنتي عشرة، والجمع بينهما أن ابتدأها في سنة إحدى عشرة، والفراغ منها في سنة عشرة، والله أعلم[1].

عباد الله ...

وبهذه الموقعة المباركة تم القضاء على أسطورة الكذب ودولة الخرافة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويَحسُن بنا في هذا المقام أن ننقل كلامًا جيِّدًا ومتينًا للإمام القُرطبي رحمه الله.

قال رحمه الله عقب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداء وخبر، أي لا أحد أظلم.

﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ أي اختلق.

﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ فزعم أنه نبي.

﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نزلت في رحمان اليمامة - أي مسيلمة - والأسود العنسي،

(١) «البداية» (٥/ ٢٩ - ٣٢) باختصار.

وسجاح زوج مسيلمة، كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه.

قال قتادة: بلغنا أن الله أنزل هذا في مسيلمة، وقاله ابن عباس.

قلت: ومن هذا النَّمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص.

وقد جاء فيما ينقلون: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون» [١]، ويستدلون على هذا بالخضر، وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم[٢].

وهذا القول زندقة وكفر، يُقتل به قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، فإنه يلزم منه هد الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ [٣].

عباد الله ...

وفي الخطبة القادمة، نواصل الحديث عن بعض المتنبئين، نكشف زيفهم، ونبيِّن عوارهم، ونذكر مآلهم ومصيرهم، تذكرة للمتقين، وتحذيرًا للمجرمين..

فإلى الملتقى إن شاء الله تعالى.

---

(١) عن وابصة بن معبد أن رسول الله ﷺ قال له: «**جئت تسأل عن البر والإثم**»، قال: قُلت: نعم، قال: فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال: «**استفتِ نفسك، واستفت قلبك يا وابصة**» ثلاثًا، «**البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»، رواه أحمد وغيره، وحسنه النووي.

(٢) الخضر عليه السلام كان نبيًّا ولم يكن وليًّا - على الراجح - كما ذكرتُ ذلك في كتابنا «قصص القرآن»، وراجع قصة حياة الخضر في قصص الأنبياء لابن كثير.

(٣) «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٦، ٣٧).

الخطبة الثالثة والثلاثون بعد المائة:

من علامات القيامة الصغرى

(ب) خروج الدجالين أدعياء النبوة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تكلمنا في الخطبة الماضية عن «مسيلمة الكذاب» واليوم إن شاء الله تعالى نتكلم عن دَعِيٍّ آخر على شاكلته، وهو «**الأسود العنسي**» قبّحه الله ولعنه.

عباد الله ...

مَن هو الأسود العنسي؟

هو عبهلة بن كعب بن غوث، من بلد يقال لها: كهف حنان باليمن. وكنيته: الأسود العنسي- لعنه الله.

خروجه - لعنه الله:

كانت اليمن قديمًا لحمير، وكانت ملوكهم يسمّون التبابعة، ثم إن ملك الحبشة بعث أميرين من قواده وهما: أبرهة الأشرم، وأرياط، فتملكا له اليمن من حِمير، وصار ملكها للحبشة، ثم اختلف هذان الأميران فقُتل أرياط واستقل أبرهة بالنيابة، وبنى كنيسة سماها «القليس» لارتفاعها، وأراد أن يصرف حج العرب إليها دون الكعبة، فجاء بعض قريش فأحدث[١] في هذه الكنيسة، فلما بلغه ذلك حلف ليخربن بيت مكة، فسار إليه ومعه الجنود والفيل محمود، فكان من أمرهم ما قص الله في كتابه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

فرجع أبرهة ببعض من بقي من جيشه في أسوأ حال وشرّ خيبة، وما زال تسقط أعضاؤه أنملة أنملة، فلما وصل إلى صنعاء انصدع صدره فمات.

فقام بالملك بعده ولده «بلسيوم بن أبرهة» ثم أخوه «مسروق بن أبرهة» ... ثم ثار سيف بن ذي يزن الحميري فذهب إلى قيصر ملك الروم يستنصره عليهم، فأبى ذلك عليه لما بينه وبينهم من الاجتماع في دين النصرانية، فسار إلى كسرى ملك الفرس فاستغاث به وله معه مواقف ... ثم اتفق الحال على أن بعث معه ممن بالسحون من طائفة تقدمهم رجل منهم يقال له: «وهرز» فاستنقذ ملك اليمن من الحبشة، وكسر «مسروق ابن أبرهة» وقتله ودخلوا إلى صنعاء، وقرروا «سيف بن ذي يزن» في الملك على عادة آبائه، وجاءت العرب تهنئه من كل جانب، غير أن لكسرى نوابًا على البلاد، فاستمر الحال على ذلك حتى بعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام ثم هاجر إلى المدينة، فلما كتب كتبه إلى الآفاق يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فكتب في جملة ذلك إلى كسرى ملك الفرس:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس[٢]، سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله

---

(١) أحدث: تغوّط.

(٢) في رواية: عظيم فارس.

ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر مَن كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

فلما جاءه الكتاب قال: ما هذا؟

قالوا: هذا كتاب جاء من عند رجل بجزيرة العرب يزعم أنه نبي.

فلما فتح الكتاب فوجده قد بدأ باسمه قبل اسم كسرى، فغضب كسرى غضبًا شديدًا وأخذ الكتاب فمزقه قبل أن يقرأه[1]، وكتب إلى عامله على اليمن وكان اسمه باذام أما بعد؛ فإذا جاءك كتابي هذا فابعث من قِبَلك أميرٌ إلى هذا الرجل الذي بجزيرة العرب الذي يزعم أنه نبي فابعثه إلي في جامعة.

فلما جاء الكتاب إلى «باذام» بعث من عنده أميرين عاقلين وقال: اذهبا إلى هذا الرجل فانظرا ما هو، فإن كان كاذبًا فخذاه في جامعة حتى تذهبا به إلى كسرى، وإن كان غير ذلك فارجعا إلي فأخبراني ما هو حتى أنظر في أمره.

فقدما على رسول الله ﷺ إلى المدينة فوجداه على أسدِّ الأحوال وأرشدها، ورأيا منه أمورًا عجيبة يطول ذكرها، ومكثا عنده شهرًا حتى بلغا ما جاءا له ثم تقاضاه الجواب بعد ذَلِكَ، فقال لهما: **«ارجعا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربي قد قتل الليلة ربه»**.

فأرّخا ذلك عندهما ثم رجعا سريعًا إلى اليمن فأخبرا «باذام»، بما قال لهما، فقال: احصوا تلك الليلة، فإن ظهر الأمر كما قال فهو نبيّ، فجاءت الكتب من عند ملكهم أنه قد قتل كسرى في ليلة كذا وكذا، لتلك الليلة، وكان قد قتله بنوه.

وقام بالملك بعده ولده «يزدجرد» وكتب إلى «باذام» أن خذ لي البيعة من قِبَلك، واعمد إلى ذلك الرجل فلا تهنه وأكرمه، فدخل الإسلام في قلب «باذام» وذريته من أبناء فارس ممن باليمن، وبعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، فبعث إليه رسول الله ﷺ بنيابة اليمن بكمالها، فلم يعزله عنها حتى مات، فلما مات استناب ابنه «شهر بن باذام»

---

(١) وفي رواية: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مزّق الله ملكه»، انظر «زاد المعاد» (٣/ ٦٨٩)، و«نصب الراية» (٤/ ٤٢١).

على صنعاء وبعض مخاليف، وبعث طائفة من أصحابه نوابًا على مخاليف أخر، فبعث أولًا في سنة عشر عليًا وخالدًا، ثم أرسل معاذًا وأبا موسى الأشعري، وفرق عمالة اليمن بين جماعة من الصحابة، فمنهم «شهر بن باذام»، و«عامر بن شهر الهمذاني» على همذان، و«أبو موسى» على مأرب، و«خالد بن سعيد بن العاص» على عامر نجران ورفع وزبيد، و«يعلى بن أمية» على نجران، وعلى بلاد حضرموت «زياد بن لبيد»، وعلى السكاسك «عكاشة بن مور بن أخضر»، وعلى السكون «معاوية بن كندة»، وبعث «معاذ ابن جبل» معلما لأهل البلدين اليمن وحضرموت يتنقل من بلد إلى بلد، ذكره سيف بن عمر، وذلك كله في سنة عشر، في آخر حياة رسول الله ﷺ، فبينما هم على ذلك إذ نجم هذا اللعين الأسود العنسي.

والتفّ حوله سبعمائة مقاتل، وكتب إلى عمّال النبي ﷺ: «أيها المتمردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه، ثم ركب فتوجه إلى نجران فأخذها بعد عشر ليال من مخرجه، ثم قصد إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا فغلبه الأسود وقتله وكسر جيشه من الأبناء واحتل بلدة صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه، ففر معاذ بن جبل من هنالك واجتاز بأبي موسى الأشعري فذهبا إلى حضرموت، وانحاز عمال رسول الله ﷺ إلى الطاهر، ورجع عمر بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسي وجعل أمره يستطير استطارة الشرارة، وكان جيشه يوم لقي شهرًا سبعمائة فارس، وأمراؤه: قيس بن عبد يغوث ومعاوية بن قيس ويزيد بن محرم بن حصن الحارثي ويزيد بن الأفكل الأزدي، واشتد ملكه واستغلظ أمره وارتد خلق من أهل اليمن، وعامله المسلمون الذين هناك بالتقية، وكان خليفته على مذحج: عمرو بن معديكرب، وأسند أمر الجند إلى قيس بن عبد يغوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الديلمي وداذويه، وتزوج بامرأة شهر بن باذام وهي ابنة عم فيروز الديلمي واسمها زاذ، وكانت امرأة حسناء جميلة، وهي مع ذلك مؤمنة بالله ورسوله محمد ﷺ ومن الصالحات.

قال سيف بن عمر التميمي: وبعث رسول الله ﷺ كتابه حين بلغه خبر الأسود

العنسي مع رجل يقال له: وبر بن يحنس الديلمي يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة الاسود العنسي ومصاولته.

وقام معاذ بن جبل بهذا الكتاب أتم القيام، وكان قد تزوّج امرأة من السكون يقال لها: رملة، فحزبت عليه السكون لصبره فيهم، وقاموا معه في ذلك وبلغوا هذا الكتاب إلى عمال النبي ﷺ ومن قدروا عليه من الناس، واتفق اجتماعهم بقيس بن عبد يغوث أمير الجند، وكان قد غضب على الأسود واستخف به وهم بقتله، وكذلك كان أمر فيروز الديلمي قد ضعف عنده أيضا، وكذا داوذيه، فلما أعلم وبر بن يحيس قيس بن عبد يغوث وهو قيس بن مكشوح كان كأنما نزلوا عليه من السماء، ووافقهم على الفتك بالأسود، وتوافق المسلمون على ذلك وتعاقدوا عليه، فلما أيقن ذلك في الباطن أطلع شيطان الأسود للأسود على شيء من ذَلِكَ، فدعا قيس بن مكشوح فقال له: يا قيس ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟

قال: يقول: عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل وصار في العز مثلك، مال ميل عدوك وحاول ملكك وأضمر على الغدر، إنه يقول: يا أسود يا أسود يا سوآه يا سوآه، فطف به وخذ من قيس أعلاه وإلا سلبك وقطف مسك[1].

فقال له قيس وحلف له فكذب: وذي الخمار لأنت أعظم في نفسي وأجلّ عندي من أن أحدث بك نفسي.

فقال له الأسود: ما إخالك تكذب الملك، فقد صدق الملك وعرف الآن أنك تائب عما اطلع عليه منك.

ثم خرج قيس من بين يديه فجاء إلى أصحابه فيروز وداذويه، وأخبرهم بما قال له ورد عليه، فقالوا: إنا كلنا على حذر فما الرأي؟

فبينما هم يشتورون إذ جاءهم رسوله فأحضرهم بين يديه فقال: ألم أشرفكم على قومكم؟

قالوا: بلى.

---

(١) كذا في «البداية»، ولعلها قلبك.

قال: فماذا يبلغني عنكم؟

فقالوا: أقلنا مرتنا هذه.

فقال: لا يبلغني عنكم فأقيلكم.

قال: فخرجنا من عنده ولم نكد وهو في ارتياب من أمرنا ونحن على خطر، فبينما نحن في ذلك إذ جاءتنا كتب من عامر بن شهر أمير همدان وذي ظليم وذي كلاع وغيرهم من أمراء اليمن يبذلون لنا الطاعة والنصر على مخالفة الأسود، وذلك حين جاءهم كتاب رسول الله ﷺ يحثهم على مصاولة الأسود العنسي، فكتبنا اليهم ألا يحدثوا شيئًا حتى نبرم الأمر.

قال قيس: فدخلت على امرأته ازاذ فقلت: يا ابنة عمي قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك، قتل زوجك وطأطأ في قومك القتل وفضح النساء، فهل عندك ممالأة عليه؟

قالت: على أي أمر؟

قلت: إخراجه.

قالت: أَو قتله؟

قلت: أو قتله.

قالت: نعم والله، ما خلق الله شخصًا هو أبغض إليَّ منه، فما يقوم لله علي حق، ولا ينتهي له عن حرمة، فإذا عزمتم أخبروني أعلمكم بها في هذا الأمر.

قال: فأخرج فإذا فيروز وداذويه ينتظراني يريدون أن يناهضوه، فما استقر اجتماعه بهما حتى بعث إليه الأسود فدخل في عشرة من قومه فقال: ألم أخبرك بالحق وتخبرني بالكتابة[1]؛ إنه يقال: يا سوأة يا سوأة، إن لم تقطع من قيس يده يقطع رقبتك العليا، حتى ظن قيس أنه قاتله. فقال: إنه ليس من الحق أن أهلك وأنت رسول الله، فقتلي أحب إلي من موتات أموتها كل يوم، فرّق له وأمره بالانصراف.

---

(١) كذا في «البداية»، وفي نسخة: بالكذابة.

فخرج إلى أصحابه فقال: اعملوا عملكم، فبينما هم وقوف بالباب يشتورون إذ خرج الأسود عليهم وقد جمع له مائة ما بين بقرة وبعير، فقام وخط خطًّا وأقيمت من ورائه وقام دونها، فنحرها غير محبسة ولا معقلة ما يقتحم الخط منها شيء، فجالت إلى أن زهقت أرواحها.

قال قيس: فما رأيت أمرًا كان أفظع منه، ولا يومًا أوحش منه، ثم قال الأسود: أحق ما بلغني عنك يا فيروز؟ لقد هممت أن أنحرك فألحقك بهذه البهيمة، وأبدي له الحربة.

فقال له فيروز: اخترتنا لصهرك وفضلتنا على الأبناء، فلو لم تكن نبيًّا ما بعنا نصيبنا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الآخرة والدنيا؟! فلا تقبل علينا أمثال ما يبلغك، فأنا بحيث تحب.

فرضي عنه وأمره بقسم لحوم تلك الأنعام، ففرقها فيروز في أهل صنعاء ثم أسرع اللحاق به فإذا رجل يحرضه على فيروز ويسعى إليه فيه، واستمع له فيروز فإذا الأسود يقول: أنا قاتلهِ غدًا وأصحابه، فاغد علي به. ثم التفت فإذا فيروز، فقال: مه، فأخبره فيروز بما صنع من قسم ذلك اللحم، فدخل الأسود داره ورجع فيروز إلى أصحابه، فأعلمهم بما سمع وبما قال وقيل له، فاجتمع رأيهم على أن عاودوا المرأة في أمره فدخل أحدهم - وهو فيروز - إليها فقالت: إنه ليس من الدار بيت إلا والحرس محيطون به غير هذا البيت، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق فإذا أمسيتم فانقبوا عليه من دون الحرس وليس من دون قتله شيء، وإني سأضع في البيت سراجًا وسلاحًا.

فلما خرج من عندها تلقاه الأسود فقال له: ما أدخلك على أهلي! ووجأ رأسه، وكان الأسود شديدًا، فصاحت المرأة فأدهشته عنه، ولولا ذلك لقتله، وقالت: ابن عمي جاءني زائرًا.

فقال: اسكتي لا أبالك قد وهبتُه لك.

فخرج على أصحابه فقال: النجاء النجاء وأخبرهم الخبر، فحاروا ماذا يصنعون، فبعثت المرأة إليهم تقول لهم: لا تنثنوا عما كنتم عازمين عليه.

فدخل عليها فيروز الديلمي فاستثبت منها الخبر، ودخلوا إلى ذلك البيت فنقبوا

من داخله بطائن ليهون عليهم النقب من خارج، ثم جلس عندها جهرة كالزائر، فدخل الأسود فقال: وما هذا؟ فقالت: إنه أخي من الرضاعة وهو ابن عمي، فنهره وأخرجه، فرجع إلى أصحابه.

فلما كان الليل نقبوا ذلك البيت فدخلوا فوجدوا فيه سراجا تحت جفنة، فتقدم إليه فيروز الديلمي والأسود نائم على فراش من حرير قد غرق رأسه في جسده وهو سكران يغط، والمرأة جالسة عنده، فلما قام فيروز على الباب أجلسه شيطانه وتكلم على لسانه وهو مع ذلك يغط، فقال: ما لي ومالك يا فيروز؟ .

فخشي إن رجع يهلك وتهلك المرأة، فعاجله وخالطه وهو مثل الجمل، فأخذ رأسه فدق عنقه ووضع ركبتيه في ظهره حتى قتله، ثم قام ليخرج إلى أصحابه ليخبرهم، فأخذت المرأة بذيله وقالت: أين تذهب عن حرمتك؟ فظنت أنها لم تقتله، فقال: أخرج لأعلمهم بقتله، فدخلوا عليه ليحتزُّوا رأسه، فحركه شيطانه فاضطرب فلم يضبطوا أمره، حتى جلس اثنان على ظهره وأخذت المرأة بشعره وجعل يبربر بلسانه، فاحتز الآخر رقبته، فخار كأشد خوار ثور سمع قط، فابتدر الحرس إلى المقصورة فقالوا: ما هذا؟ ما هذا؟

فقالت المرأة: النبي يوحي إليه، فرجعوا وجلس قيس وداذويه وفيروز يأتمرون كيف يعلمون أشياعهم؟ فاتفقوا على أنه إذا كان الصباح ينادون بشعارهم الذي بينهم وبين المسلمين، فلما كان الصباح قام أحدهم - وهو قيس - على سور الحصن فنادى بشعارهم، فاجتمع المسلمون والكافرون حول الحصن، فنادى قيس - ويقال وبر بن يحنس الأذان - : أشهد أن محمدًا رسول الله، وأن عبهلة كذاب، وألقى إليهم رأسه، فانهزم أصحابه وتبعهم الناس يأخذونهم ويرصدونهم في كل طريق يأسرونهم وظهر الإسلام وأهله وتراجع نواب رسول الله ﷺ إلى أعمالهم، وتنازع أولئك الثلاثة في الإمارة ثم اتفقوا على معاذ بن جبل يصلي بالناس.

وكتبوا بالخبر إلى رسول الله ﷺ وقد أطلعه الله على الخبر من ليلته، كما قال سيف ابن عمر التميمي عن أبي القاسم الشنوي عن العلاء بن زيد عن ابن عمر: أتى الخبر إلى النبي ﷺ من السماء الليلة التي قتل فيها العنسي ليبشرنا فقال: «**قتل العنسي البارحة قتله**

رجل مبارك من أهل بيت مباركين»، قيل: ومَن؟ قال: «فيروز فيروز».

وقد قيل: إن مدة مُلكه منذ ظهر إلى أن قتل ثلاثة أشهر، ويقال: أربعة أشهر، فالله أعلم.

وقال سيف بن عمر عن المستنير عن عروة عن الضحاك عن فيروز قال: قتلنا الأسود وعاد أمرنا في صنعاء كما كان إلا أنا أرسلنا إلى معاذ بن جبل فتراضينا عليه فكان يصلي بنا في صنعاء فوالله ما صلى بنا إلا ثلاثة أيام حتى أتانا الخبر بوفاة رسول الله ﷺ، فانتقضت الأمور وأنكرنا كثيرًا مما كنا نعرف واضطربت الأرض[١].

قال ابن كثير: وقد قدمنا أن خبر العنسي جاء إلى الصديق في أواخر ربيع الأول بعد ما جهز جيش أسامة، وقيل: بل جاءت البشارة إلى المدينة صبيحة توفي رسول الله ﷺ، والأول أشهر والله أعلم.

والمقصود: أنه لم يجئهم فيما يتعلق بمصالحهم واجتماع كلمتهم وتأليف ما بينهم والتمسك بدين الإسلام إلّا الصديق رضي الله عنه، وسيأتي إرساله إليهم من يمهد الأمور التي اضطربت في بلادهم ويقوي أيدي المسلمين ويثبت أركان دعائم الإسلام فيهم، رضي الله عنهم»[٢].

عباد الله ...

وبقتل الأسود انتهت دولة الدجل الثانية، وظهر أمر الله وهم كارهون، والحمد لله رب العالمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

(١) «البداية والنهاية» (٥/ ٩ - ١٤) بتصرف.

(٢) المرجع السابق.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد تقدَّم أن القرطبيّ رحمه الله قال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣]، قال: نزلت في رحمان اليمامة والأسود العنسي وسجاح زوج مسيلمة، كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه.

وقال الإمام الطبري في تفسيره للآية: «لا خلاف بين الجميع أن مسيلمة والعنسيّ الكذابين، ادّعيا على الله كذبًا أنه بعثهما نبيين، وقال كل واحد منهما: إنّ الله أوحى إليه، وهو كاذب في قيله. فإذ كان ذلك كذلك، فقد دخل في هذه الآية كل من كان مختلقًا على الله كذبًا، وقائلا في ذلك الزمان وفي غيره: «أوحى الله إليَّ»، وهو في قيله كاذب، لم يوح الله إليه شيئًا.

فأما التنزيل، فإنه جائز أن يكون نزل بسبب بعضهم، وجائز أن يكون عني به جميعُ المشركين من العرب، إذ كان قائلو ذلك منهم، فلم يغيّروه. فعيّرهم الله بذلك، وتوعّدهم بالعقوبة على تركهم نكيرَ ذلك، ومع تركهم نكيرَه هم بنبيه محمد ﷺ مكذبون، ولنبوّته جاحدون، ولآيات كتاب الله وتنزيله دافعون، فقال لهم جل ثناؤه: «ومن أظلم ممن ادّعى عليّ النبوّة كاذبًا»[١]، وقال: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾، ومع ذلك يقول: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فينقض قولَه بقوله، ويكذب بالذي تحققه، وينفي ما يثبته. وذلك إذا تدبره العاقلُ الأريب علم أن فاعله من عقله عديم.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، قال: زعم أنه لو شاء قال مثله، يعني الشعر.

---

(١) هذا القول بالمعنى.

فكأنّ ابن عباس في تأويله هذا على ما تأوّله، يوجِّه معنى قول قائل: ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ إلى: سأنزل مثل ما قال الله من الشعر، وكذلك تأوّله السدي» ا.هـ[١].

عباد الله ...

والدجَّالون الكذَّابون كُثر اليوم:

منهم مَن يشكك في كتاب الله تعالى.

ومنهم مَن يُنكر الحدود الشرعيَّة ويتهمها بالقسوة والرجعية.

ومنهم مَن يُطالب بمساواة المرأة بالرجل في الميراث.

ومنهم مَن يُنكر عذاب القبر ونعيمه.

ومنهم مَن يقول: إذا سَمحتُم للرجل بأربع نسوة فلماذا لا تسمحون للمرأة بأربع رجال!!

ومنهم مَن قال: إنَّ تقبيل المرأة الأجنبية لا حرج فيه ولا إثم!!

ومنهم[٢] مَن قال: لا داعي للذهاب إلى مكة للحج، فالشيطان موجود في كل مكان، وبإمكانك أن ترجمه وأنت مكانك.

ومنهم من قال: إن بإمكان الوليّ أن يخلق جنينًا في بطن المرأة!! وهذه دعوة للإباحية والزنا.

وهؤلاء للأسف من هذه الأُمّة - يعني من بني جلدتنا - يتكلمون بألسنتنا، بل وهناك مَن أنكر نصوصًا قاطعة في القرآن[٣]!!

وهؤلاء لا يرفعوا رؤوسهم إلَّا في غياب العلم الصحيح، ورحم الله الإمام الشافعي حين قال: «لولا أصحابُ المحابر لخطبت الزَّنادقةُ على المنابر».

فأفيقوا - عباد الله - وافقهوا دينكم، والزموا غَرز العلماء، حتى تعبدوا الله على بصيرة، وتموتوا وأنتم على الصراط المستقيم.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣٠١، ٣٠٢).
(٢) هو حسن الترابي، انظر «مجلة الفرقان الكويتية» العدد (٨٠) ص ٤٩.
(٣) ومنهم مَن أنكر الأحاديث الصحيحة وردّها بعقله الكليل، وفهمه السقيم.

الخطبة الرابعة والثلاثون بعد المائة:

علاماتُ القيامة الصُّغرى

تكلُّم الرّويبضة في أمور العامة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

من علامات القيامة الصُّغرى: نطق الرويبضة في أمر العامة.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ؛ يُصَدَّقُ فِيهَا الكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ».

قِيلَ يا رسول الله: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟

قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ يتكلَّم فِي أَمْرِ العَامَّةِ»[(١)].

وفي رواية لأحمد والحاكم: قيل: يا رسول الله وما الرويبضة؟ قال: «**السفيه يتكلم في أمر العامة**».

قال الجَوهريُّ: الرُّويبضة: التافه الحقير.

وقال ابن الأثير: التافه الحقير الخسيس.

وقال الشيخ حمود التويجري: «وقد تحصل من الأحاديث مع كلام أهل اللغة أن الرويبضة هو: السَّفيه، الفاسق، التافه، الوضيع، الحقير الخسيس» ا.هـ[(٢)].

أقول: ولما تكلَّم هذا الصِّنفُ المذكور في أمور العامَّة، حلّ البلاء، وهاجت فتنٌ عمياء، ووقعت حروب، وحلّت خطوب، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [النساء: ٨٣].

قال الناصر في «الانتصاف»[(٣)]: «في هذه الآية تأديب لكلّ مَن يحدّث بكل ما سمع، وكفى به كذبًا، وخصوصًا عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء والمقيمين في نحر العدوّ، وما أعظم المفسدة في لهج العامة بكلّ ما يسمعون من أخبارهم، خيرًا أو غيره» ا.هـ.

عباد الله ...

إن ظهور الرّويبضات بلاءٌ متناسل، لذا يجب الضرب على أيدي المتعالمين، وتنفير الناس عنهم، وتحذير الناس منهم.

وفي الحديث - كذلك - وجوب كشف المتعالمين، والتحذير من الجهل وأهله، وبيان فضل العلم وأهله.

---

(١) رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرك» وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ/ مصطفى العدوي في «الأشراط الصغرى للساعة» (٢٧): صحيح لشواهده.

(٢) «إتحاف الجماعة» (٢، ٣٦).

(٣) انظر «الانتصاف» (١/ ٥٤٠) على حاشية الكشّاف.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - : «ذمّ الله سُبْحَانَهُ أهلَ الجهل في مواضع كثيرة من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. فلم يقتصِر سُبْحَانَهُ على تشبيهِ الجهَّال بالأنعامِ حتى جعلهُم أضلّ سبيلًا منهم وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، أخبر أنَّ الجهَّال شرُّ الدَّواب عندهُ على اختلافِ أصنافها من الحميرِ والسِّباعِ والكلاب والحشراتِ وسائرِ الدَّوابِّ، فالجهَّالُ شرٌّ منهم، وليس على دينِ الرُّسل أضرُّ من الجهَّال بل أعداؤهم على الحقيقة.

وقال تعالى لنبيِّه وقد أعاذَهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال كليمهُ موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقال لأوَّلِ رسلهِ نوحٍ عليه السَّلام: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فهذه حالُ الجاهلين عندَهُ والأوَّلُ حالُ أهلِ العلم عندهُ.

وأخبرَ سُبْحَانَهُ عن عقوبَتِهِ لأعدائهِ أنَّهُ منعهم علمَ كتابهِ ومعرفَته وفقهَهُ، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وأمر نبيَّهُ بالإعراضِ عنهُم فقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأثنى على عباده بالإعراضِ عنهم ومتاركَتِهم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وكلُّ هذا يدلُّ على قُبح الجهلِ عندَهُ وبغضِهِ للجهلِ وأهلِهِ، وهو كذلك عندَ النَّاسِ فإنَّ كلَّ أحدٍ يتبرَّأُ منه وإن كان فيه» ا.هـ[١].

عباد الله ...

«إنَّ العلم حياةٌ ونورٌ، والجهلُ موتٌ وظلمةٌ، والشرُّ كلُّه سَببهُ عَدَمُ الحياةِ والنُّور،

---

(١) «تنقيح الإفادة من مفتاح دار السعادة» للشيخ سليم الهلالي (٩٠، ٩١).

والخَير كلُّهُ سببه النور والحياةُ، فإنَّ النُّور يكشفُ عن حقائقِ الأشياءِ، ويُبِّين مراتبها، والحياةُ هي المُصحِّحَةُ لصفاتِ الكمال الموجبَةُ لتسديد الأقوال والأعمال، فكلّما تصرَّف من الحياة فهو خير كلُّه كالحياءِ الَّذِي سَببُهُ كمالُ حياةِ القَلبِ، وتصوُّره حقيقةِ القُبح ونَفرَتُه منه، وضدُّه الوقاحَةُ والفُحشُ وسبَبُهُ موتُ القَلبِ وعدمُ نَفرتِهِ مِن القبيحِ، وكالحياءِ الَّذِي هو المطرُ الَّذِي به حياةُ كلِّ شيءٍ.

قال تَعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَـهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُـهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، كان مَيتًا بالجهلِ قلبُهُ فأحياهُ بالعلم، وجعل له من الإيمان نورًا يمشى به في الناس.

وقال تَعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّـكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

وقال تَعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تَعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَـاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فأخبر أنَّهُ روحٌ تَحصُلُ به الحياةُ، ونورٌ يحصلُ به الإضاءَةُ والإشراقُ، فجمعَ بَيْنَ الأصلين: الحياة والنور.

وقال تَعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تَعالى: ﴿فَآمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال تَعَالَى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

وقال تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. فضرب سُبحَانَهُ مثلا لنوره الَّذِي قذفه في قلب المؤمن، وقال في آخر الآية: ﴿نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يعنى نور الإيمان على نور القرآن.

وقد جمع الله سُبحَانَهُ بَيْنَ ذكر هذين النُّورين وهما الكتابُ والإيمانُ في غيرِ موضع من كتابه كقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ففضل الله الإيمان ورحمته القرآن.

وقوله تَعَالَى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال في آية النور: ﴿نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ وهو نور الإيمان على نور القُرآنِ.

وفي حديث النوَّاس بن سمعان رضى الله عنه عن النَّبي ﷺ: «إنَّ الله ضَرَب مثلًا صِراطًا مُستقيمًا وعلى كَتِفَي الصِّراط دارانِ لهما أبوابٌ مُفتَّحةٌ على الأبوابِ ستورٌ وداعٍ يدعو على الصِّراط وداعٍ يَدعو فَوقَهُ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلام وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، والأبوابُ الَّتِي على كتفي الصِّراط حدودُ الله، فلا يَقَع أحدٌ في حدود الله حتى يَكشفَ السِّتر، والذي يَدعو من فوقهِ: واعظُ ربِّه» (١).

---

(١) صحيح.

وقال حذيفة حدَّثنا رسولُ الله : «أنَّ الأمانة نَزلت في جذرِ قلوبِ الرِّجال ثُمَّ نزلَ القرآن فعلموا من الإيمان ثُمَّ علموا من القرآن»[1].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِى يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِى لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِى يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِى لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلاَ رِيحَ لَهَا».

فجعل الناس أربعة أقسام:

الأوّل: أهلَ الإيمان والقرآن، وهم خيارُ الناس.

الثاني: أهلُ الإيمان الذين لا يقرءون القرآن، وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء.

والأشقياء قسمان:

أحدهما: من أوتيَ قُرآنا بلا إيمان، فهو منافقٌ.

والثاني: مَن لا أُوتيَ قرآنا ولا إيمانا.

والمقصود: أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله في قلب من يشاء من عِبَادِهِ، وأنَّهما أصل كل خير في الدنيا والآخرة، وعلمهما أجلُّ العلوم وأفضلها، بل لا علم في الحقيقة ينفعُ صاحبه إلَّا علمُهما؛ ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]»[2].

عباد الله ...

«إن الله سُبحَانَهُ جعل صَيدَ الكلبِ الجاهل مَيتةً يحرُمُ أكلُها، وأباحَ صَيدَ الكلبِ المُعلَّم.

وهذا أيضًا من شرَفِ العلم أنَّهُ لا يُباحُ إلَّا صَيدُ الكلبِ العالم، وأمَّا الكلبُ الجاهلُ فلا يحلُّ أكلُ صَيده؛ فدلَّ على شرَفِ العلمِ وفضلهِ، قال الله تَعَالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ

(١) متفقٌ عليه.

(٢) «تنقيح الإفادة» (٩١ - ٩٥).

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]. ولولا مَزيَّةُ العلمِ والتَّعليمِ وشَرَفُهما كان صَيدُ الكلبِ المعلَّم والجاهلِ سواء»[١].

أسأل الله تعالى أن يُعلِّمنا ما جهلنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فمما ينبغي التنبيه عليه:

أن الفتوى في النوازل السياسية[٢] قاصرة على المجتهد - يعني ليست لعوام الناس - ولا حتى لطلبة العلم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «العَالِمِ بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وأقوال الصحابة فهو المجتهد في النوازل، فهذا النوع الذي يسوغ لهم الإفتاء، ويسوغ استفتاؤهم، ويتأدَّى بهم فرضُ الاجتهاد، وهم الذين قال فيهم رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» اهـ.

وبيان أنه لا يُفتى في دقائق الجهاد[٣] إلَّا هو، وأنه يحرّم استفتاء طلبة العلم فيها - فضلًا عن غيرهم - مهما زعموا أنهم فقهاء الواقع.

قال ابن تيمية - رحمه الله - : «وفي الجملة فالبحث في هذه الدقائق - أي: دقائق أحكام الجهاد - من وظيفة خواصّ أهل العلم...» اهـ.

وبيان أنه لو أفتى فيها من ليس في رتبة العالِم المجتهد: أفسد البلاد، وأرهق العباد،

(١) المصدر السابق (٩٥، ٩٦).

(٢) كالحروب التي تدور رحاها بين دولة كافرة ودولة مسلمة مثلًا، وكذلك ما يستجدّ من مستجدات على الصعيد الدولي والعالمي.

(٣) مثلًا.

لأن العالِم يشمّ الفتنة قبل وقوعها، وأما غيره فلا يعرفها إلّا إذا وقع فيها، وقد لا يعرفها.

قال الحسن البصري - رحمه الله - : «إن هذه الفتنة إذا أقبلت عرفِها كل عالِم، وإذا أدبرت عرفها كلّ جاهل[١]» ا.هـ[٢].

فحذار حذار من الخوض فيما ليس لنا به علم.

نسأل الله الهداية والثبات عليها.



(١) ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٦٥).

(٢) «مدارك النظر في السياسة بين التطبيقات الشرعيّة والانفعالات الحماسية» لعبد المالك الرمضاني (ص٥).

الخطبة الخامسة والثلاثون بعد المائة:

(أ) كثرة التبرج بين يدي الساعة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة: كثرة التبرج بين يدي السَّاعة.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**»[1].

---

(١) رواه مسلم.

عباد الله ...

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث: قوله: «**قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ**» هم غلمان ولي الشرطة.

أما **الكَاسِيَات العَارِيَات** ففيه أوجه:

أحدها: معناه كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها.

الثاني: كاسيات من الثياب عاريات من فعل الخير والاهتمام لآخرتهن والاعتناء بالطاعات.

الثالث: تكشف شيئًا من بدنها إظهارًا لجمالها فهنَّ كاسيات عاريات.

الرابع: يلبسن ثيابًا رقاقًا تصف ما تحتها، كاسيات عاريات في المعنى.

وأما **مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ**: فقيل: زائغات عن طاعة الله تعالى، وما يلزمهن من حفظ الفروج وغيرها، ومميلات يعلمن غيرهن مثل فعلهن، وقيل: مائلات متبخترات في مشيتهن مميلات أكتفاهن، وقيل: مائلات يتمشطن المشطة الميلاء، وهي مشطة البغايا معروفة لهن مميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة.

وقيل: مائلات: إلى الرجال، مميلات لهم بما يبدين من زينتهن وغيرها.

وأما **رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ**: فمعناه: يعظمن رؤوسهن بالخمر والعمائم وغيرها مما يلف على الرأس حتى تشبه أسنمة الإبل البخت، هذا هو المشهور في تفسيره...

وهناك أقوال أُخر في الحديث» ا.هـ.

عباد الله ...

الحجاب: كُلُّ ما يسترُ المطلوب، ويمنعُ من الوصول إليه فهو حجابٌ، كالسِّترِ والبَّوابِ والجسمِ، والعَجز والمَعصِيَة[1].

وفي هذا العصر ارتفعت أصواتُ المجرمين، وعلا نهيقُ الضالين ينادون بتعرِّي المرأة وخلع حجابها، وصدرت فتاوى عمياء من بعض المتعالين يفسّرون فيها آيات

(١) «الكليات» للكفويّ (٣٦٠).

الحجاب بمفاهيم عجيبة تضحك الثّكلى.

ولا ريب أن هذه الأصوات النشاز ترمي بسهم الشيطان، قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾ [الأعراف: ٢٧].

وهذا الهجوم من الشيطان وأعوانه على مواقع الفضيلة وجد - للأسف - آذانًا صاغية، وقلوبًا جاهزة، وبيوتًا مستعدة لخلع الفضيلة، فترنّح الكثير تحت أقدام المفسدين، ونال الشيطان ما تمنّى، ﴿**لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ**﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

فعمّت البلوى، وأصبحت الحشمة غريبة في وسط أهلها، وأصبح الرجوع إليها دعوة للتطرف والتزمّت والتشدّد، وعودة إلى عصر البداوة والصحراء.

وانهزم المسلمون أمام تيار الإلحاد، وانكسروا أمام الكفار، وتلاشت عزتهم، وسقطت مكانتهم، وذهبت دولتهم، وما ربُّك بظلَّام للعبيد.

عباد الله ...

إن الحجاب فريضة شرعيّة وضرورة بشرية.

وقَد نصَّ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمية - رَحِمَهُ الله - عَلَى وجُوبِ احتجَابِ المرَأةِ عَنِ الرِّجَالِ الأجَانِبِ فَقَال في الفَتَاوى المَطبُوعَة أخِيرًا (ص١١٠ ج٢ من الفقه و٢٢ مِن المَجمُوع): «وَحَقِيقَةُ الأَمْرِ: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الزِّينَةَ زِينَتَيْنِ: زِينَةً ظَاهِرَةً وَزِينَةً غَيْرَ ظَاهِرَةٍ وَجَوَّزَ لَهَا إبْدَاءَ زِينَتِهَا الظَّاهِرَةَ لِغَيْرِ الزَّوْجِ وَذَوِي المَحَارِمِ. وَكَانُوا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ آيَةُ الحِجَابِ كَانَ النِّسَاءُ يَخْرُجْنَ بِلَا جِلْبَابٍ يَرَى الرَّجُلُ وَجْهَهَا وَيَدَيْهَا وَكَانَ إذْ ذَاكَ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تُظْهِرَ الوَجْهَ وَالكَفَّيْنِ وَكَانَ حِينَئِذٍ يَجُوزُ النَّظَرُ إلَيْهَا لِأَنَّهُ يَجُوزُ لَهَا إظْهَارُهُ ثُمَّ لَـمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ الحِجَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ**﴾ حَجَبَ النِّسَاءَ عَنْ الرِّجَالِ».

ثُمَّ قَال: و«الجِلْبَابُ» هُوَ المُلَاءَةُ وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ الرِّدَاءَ وَتُسَمِّيهِ العَامَّةُ الإِزَارَ وَهُوَ الإِزَارُ الكَبِيرُ الَّذِي يُغَطِّي رَأْسَهَا وَسَائِرَ بَدَنِهَا.

ثُمَّ قَال: «فَإِذَا كُنَّ مَأْمُورَاتٍ بِالجِلْبَابِ لِئَلَّا يُعْرَفْنَ وَهُوَ سَتْرُ الوَجْهِ أَوْ سَتْرُ الوَجْهِ بِالنِّقَابِ: كَانَ الوَجْهُ وَاليَدَانِ مِنْ الزِّينَةِ الَّتِي أُمِرَتْ أَلَّا تُظْهِرَهَا لِلْأَجَانِبِ فَمَا بَقِيَ يَحِلُّ لِلْأَجَانِبِ النَّظَرُ إِلَّا إِلَى الثِّيَابِ الظَّاهِرَةِ» ا.هـ.

وقدْ سَاقَ الشَّيخُ مُحَمَّدٌ الأمينُ الشَّنقيطِيُّ أدِلَّةَ وُجُوبِ الحِجابِ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ على النَّحوِ التَّالي:

١- قَولُهُ تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ**﴾: أنهنَّ يَستُرونَ بِهَا جَميعَ وجُوهِهِنَّ، ولا يَظهرُ مِنهنَّ شَيءٌ إلَّا عَينٌ واحِدةٌ تُبصِرُ بِهَا، وممَّن قَالَ بِهِ ابنُ مَسعُودٍ، وابنُ عَبَّاسٍ، وعُبيدةُ السَّلمانيُّ وغَيرهُم.

٢- قَولُهُ تَعَالى: ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾، مِن أنَّ استقْرَاءَ القُرآنِ يَدلُّ على أنَّ مَعنَى ﴿**إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ المُلاءَةُ فَوقَ الثِّياب، وأنَّهُ لا يَصحُّ تفسيرُ ﴿**إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ بالوَجهِ والكَفينِ.

وأنَّ عَامَّةَ المُفسِّرينَ مِنَ الصَّحابةِ فَمَن بَعدَهُم فَسَّروا الآيةَ مَعَ بَيَانِهِم سَببَ نُزُولِهَا، بِأنَّ نِسَاءَ أهلِ المَدينةِ كُنَّ يَخْرُجنَ باللَّيلِ لِقضاءِ حَاجَتِهنَّ خَارِجَ البُيُوتِ، وكَانَ بالمدينةِ بَعضُ الفُسَّاقِ يَتعرَّضُونَ للإمَاءِ، ولا يَتعرَّضُونَ للحرَائِرِ، وكَانَ بَعضُ نِساءِ المُؤمِنينَ يَخْرُجنَ في زِيٍّ لَيسَ مُتَميِّزًا عَن زِيِّ الإمَاءِ، فَيتعَرَّضُ لَهُنَّ أُولئِكَ الفُسَّاقُ بالأذَى ظَنًّا مِنهُم أنَّهُنَّ إمَاءٌ، فأمَرَ الله نَبيَّهُ ﷺ أن يَأمُرَ أزوَاجَهُ وبَنَاتهُ ونساءَ المُؤمِنينَ أن يَتَمَيَّزنَ في زِيِّهِنَّ عَن زِيِّ الإمَاءِ، وذَلكَ بأن يُدنِينَ عَليهنَّ مِن جَلابِيبِهنَّ، فإذَا فَعَلنَ ذَلِكَ وَرَآهُنَّ الفُسَّاقُ، عَلِمُوا أنهُنَّ حرائِرُ، ومَعرفَتُهُم بأنَّهُنَّ حَرائِرُ لا إمَاءٌ هُوَ مَعنَى قَولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ**﴾ فَهِي مَعرفَةٌ بالصِّفةِ لا بالشَّخصِ.

وهَذَا التَّفسيرُ مُنسَجِمٌ مَعَ ظَاهِرِ القُرآنِ كَما تَرَى.

وفي الجُملة: فَلَا إشْكَالَ في أَمْرِ الحَرائِرِ بِمُخالَفَةِ زِيِّ الإمَاءِ لِيهَابَهنَّ الفُسَّاقُ، ودَفْعُ ضَرَرِ الفُسَّاقِ عَنِ الإمَاءِ لازِمٌ، ولَهُ أسْبَابٌ أُخَرُ لَيسَ مِنهَا إدنَاءُ الجَلابِيبِ[1].

وقَالَ أيضًا: وإذَا عَلِمتَ أنَّ حُكمَ آيةِ الحِجَابِ عَامٌّ، وأنَّ ما ذَكرنَا مَعَهَا مِنَ الآياتِ

---

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٥٨٦ - ٥٨٨).

فِيهِ الدِّلالَةُ عَلَى احْتِجَابِ جَمِيعِ بَدَنِ المرأَةِ عَنِ الرِّجالِ الأجَانِبِ[١]، عَلِمتَ أَنَّ القُرآن دلَّ عَلَى الحِجَابِ، ولَو فَرَضْنَا أَنَّ آيَةَ الحِجَابِ خَاصَّةٌ بِأزوَاجِهِ ﷺ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُنَّ خَيرُ أُسوةٍ لِنِساءِ المُسلمينَ في الآدابِ الكَرِيمةِ المُقتضِيةِ للطَّهَارَةِ التَّامَّة وعَدَمِ التَّدَنُّسِ بِأنجَاسِ الرِّيبَةِ، فَمَن يُحاوِلُ مَنْعَ نِسَاءِ المُسلمينَ - كَالدُّعاةِ لِلسُّفُورِ والتَّبرُّجِ والاختِلَاطِ اليَومَ - مِنَ الاقْتِدَاءِ بِهِنَّ فِي هَذَا الأَدَبِ السَّماوِيِّ الكَرِيمِ المُتضمِّنِ سَلَامَةَ العِرضِ والطَّهَارَةَ مِنْ دَنَسِ الرِّيبَةِ غَاشٌّ لأُمَّة مُحَمَّد ﷺ مَرِيضُ القَلبِ - كما ترى.

واعلم أَنَّهُ مَعَ دَلالَةِ القُرآنِ عَلَى وُجُوبِ احْتِجَابِ المَرأَةِ عَنِ الرِّجَالِ الأجَانِبِ، قَدْ دَلَّت على ذَلِكَ أيضًا أحَادِيثُ نَبويَّةٌ.

٣- فَمِنْ ذَلِكَ ما أَخْرَجَهُ الشَّيخَانِ فِي صَحِيحيهِمَا وغَيرهمَا مِنْ حَدِيثِ عُقبَةَ بن عَامِرٍ الجُهَنِيِّ رضي اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إيَّاكُم والدُّخُولَ عَلَى النِّساءِ**»، فَقَال رَجلٌ مِن الأنْصَار: يا رسول الله أَفَرَأيْتَ الحَمْوَ؟ قال: «**الحَمْوُ المَوْتُ**». أخرَجَ البُخَارِيُّ هَذَا الحَدِيثَ فِي كِتاب «النكاح»، في باب: لا يَخْلُونَّ رَجلٌ بِامْرَأةٍ إِلَّا ذُو مَحْرَمٍ... إلخ. ومُسلمٌ في كتاب «السَّلام»، في باب: تَحريمِ الخَلوَةِ بِالأجنبيَّة والدُّخُول عَلَيهَا، فَهَذَا الحَدِيثُ الصَّحِيحُ صَرَّح فِيهِ النَّبيُّ ﷺ بِالتَّحذيرِ الشَّدِيدِ مِنَ الدُّخُول عَلَى النِّسَاءِ، فَهُو دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى مَنْعِ الدُّخُولِ عَليهِنَّ وسُؤالِهِنَّ مَتاعًا إِلَّا مِن وَراءِ حِجَابٍ؛ لأنَّ مَن سَألها مَتاعًا لَا مِن وَرَاءِ حِجَابٍ فَقَد دَخَلَ عَلَيهَا، والنَّبيُّ ﷺ حَذَّرَهُ مِن الدُّخُول عَلَيهَا، ولَمَّا سَألَهُ الأنْصَارِيُّ عَن الحَمْوِ الَّذِي هُو قَرِيبُ الزَّوجِ الَّذِي لَيْسَ مَحْرَمًا لِزَوجَتِهِ، كَأخِيهِ وابنِ أخِيهِ وعَمِّه وابن عَمِّه ونَحو ذَلِكَ، قال له ﷺ: «**الحَمْوُ المَوتُ**»، فَسَمَّى ﷺ دُخُولَ قَرِيبِ الرَّجُلِ عَلَى امْرَأتِهِ وهُوَ غَيرُ مَحرَم لها بِاسْمِ المَوْتِ، ولا شَكَّ أَنَّ تِلكَ العِبارَةَ هِي أَبْلَغُ عِبَارَات التَّحذِير؛ لأنَّ المَوتَ هُوَ أَفْظَعُ حَادِثٍ يَأتِي على الإنْسان في الدُّنيا.

فَتَحذيرُهُ ﷺ هَذَا التَّحذِيرَ البَّالِغَ مِنْ دُخُولِ الرِّجَالِ عَلَى النِّساءِ، وتَعبِيرُهُ عَنْ دُخُولِ القَرِيبِ عَلَى زَوجَةِ قَرِيبِهِ بِاسْمِ المَوْتِ، دَلِيلٌ صَحِيحٌ نَبَوِيٌّ عَلَى أَنَّ قَولَهُ تَعَالَى:

---

(١) هذا خلاف بين العلماء، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، عَامٌّ فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ - كما ترى - إِذْ لَو كَانَ حُكْمُهُ خَاصًّا بِأَزْوَاجِهِ ﷺ لَمَّا حَذَّرَ الرِّجال هَذَا التَّحذِيرَ البَالِغَ العَامَّ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ، وظَاهِرُ الحَديثِ التَّحذيرُ مِن الدُّخُول عليهنَّ ولَو لَم تَحصُلِ الخُلوَةُ بَينَهُما، وهُوَ كَذَلِكَ، فَالدُّخُولُ عَلَيهِنَّ والخَلْوَةُ بِهِنَّ كِلاهُمَا مُحَرَّمٌ تَحرِيمًا شَدِيدًا بِانْفِرَادِهِ، كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّ مُسلِمًا - رَحِمَهُ الله - أَخْرَجَ هَذَا الحَدِيثَ فِي بَابِ تَحرِيمِ الخَلوَةِ بِالأَجْنَبِيَّة والدُّخُولِ عَلَيهَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ كِلَيهِمَا حَرامٌ.

وقَالَ ابنُ حَجَر فِي «فَتْح البَاري»، فِي شَرْحِ الحَديثِ المَذْكُورِ: «**إِيَّاكم والدُّخُولَ**»، بِالنَّصبِ على التَّحذِير، وهُوَ تَنبِيهُ المُخَاطَبِ عَلَى مَحذُورٍ لِيَتَحرَّزَ عَنْهُ؛ كَمَا قِيلَ: إِيَّاكَ والأسد.

وتَقْدِيرُ الكَلَام: اتَّقُوا أَنْفُسَكُم أَنْ تَدْخُلوا على النِّسَاء، وتَضَمَّن مَنْعُ الدُّخُولِ مَنْعَ الخَلوَةِ بِهَا بِطَرِيقِ الأَوْلَى.

٤- وعَن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالت: يَرْحَمُ الله نِساءَ المُهاجِراتِ الأُوَلَ، لَمَّا أَنْزَلَ الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمرنَ بِهَا[(١)].

وَعَن صَفِيَّة بِنتِ شَيبَةَ: «أَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهَا - كَانَت تَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، أَخَذْنَ أُزُرَهُنَّ فَشَقَقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الحَوَاشِي، فَاخْتَمرنَ بِهَا، انْتَهى مِنْ صَحِيحِ البُخَارِيِّ[(٢)].

وقَالَ ابنُ حَجرٍ فِي «الفَتْحِ» فِي شَرحِ هَذَا الحَدِيثِ: «قَولُهُ: فَاخْتَمرنَ، أي غَطَّيْنَ وُجُوههنَّ، وصِفَةُ ذَلِكَ أَنْ تَضَعَ الخِمَارَ عَلَى رَأسِهَا وتَرْمِيهِ مِنَ الجَانِبِ الأَيمَنِ عَلَى العَاتِقِ الأَيسَرِ، وهُوَ التَّقَنُّعُ.

قَالَ الفَرَّاءُ: كَانُوا فِي الجَاهلِيَّةِ تُسدِلُ المَرْأَةُ خِمَارَهَا مِنْ وَرَائِهَا وتَكشِفُ مَا قُدَّامَهَا فَأُمِرنَ بِالاستتار». انْتَهى مَحَلُّ الغَرَضِ مِنْ «فَتْحِ البَارِي».

وهذَا الحَدِيثُ الصَّحِيحُ صَرِيحٌ فِي أَنَّ النِّسَاءَ الصَّحَابِيَّاتِ المَذْكُورَاتِ فِيهِ فَهِمنَ أَنَّ

---

(١) رواه البخاري (الفتح ٨ / ٤٧٥٨، ٤٧٥٩)، والمروط: جمع مرط، وهو الإزار.

(٢) رواه البخاري (الفتح ٨/ ٤٧٥٩).

مَعْنَى قَولِهِ تَعَالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، يَقْتَضِي سَتْرَ وُجُوهِهِنَّ، وأنَّهُنَّ شَقَقنَ أُزُرهُنَّ فَاختمرنَ، أي: سَتَرنَ وُجُوهَهُنَّ بها امْتِثَالًا لأمْرِ الله في قَولِهِ تَعَالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، الْمُقْتَضِي سَتْرَ وُجُوهِهِنَّ، وبِهَذَا يَتَحقَّقُ الْمُنْصِفُ: أنَّ احْتِجَابَ المَرأةِ عَنِ الرِّجَالِ وسَتْرَهَا وَجْهَهَا عَنْهُم ثَابتٌ في السُّنَّة الصَّحيحةِ الْمُفسِّرَةِ لِكتَابِ الله تَعَالى، وقَد أثْنَت عَائِشَةُ رَضِي الله عَنْهَا عَلى تَلك النِّسَاءِ بِمُسارعتِهِنَّ لامْتِثَالِ أَوَامِرِ الله في كِتَابِهِ، ومَعلُوم أنهُنَّ مَا فَهِمنَ سَترَ الوُجُوه مِن قَولِهِ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، إلَّا مِن النَّبيِّ ﷺ لأنَّهُ مَوجودٌ وهُنَّ يَسألَنهُ عَنْ كُلِّ مَا أَشْكَلَ عَليهِنَّ في دِينهِنَّ، والله جلَّ وعَلَا يَقُول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فَلَا يُمْكِنُ أنْ يُفَسِّرنَهَا مِن تِلقَاءِ أنْفُسِهِنَّ.

وقَالَ ابنُ حَجَرٍ في «فَتح البَارِي»: «ولابنِ أبِي حَاتِمٍ مِن طَرِيقِ عَبْدِ الله بن عُثمانَ بن خُثَيمٍ، عَنْ صَفيَّةَ مَا يُوضِّحُ ذَلِكَ، ولَفْظُهُ: ذَكَرنَا عِنْدَ عَائشةَ نِساءَ قُريشٍ وفَضلهُنَّ، فَقَالت: إنَّ لِنِساءِ قُرَيشٍ لفضلاً، ولكن واللهِ مَا رَأيت أفْضَلَ مِنْ نِساءِ الأنْصَارِ أَشَدَّ تَصديقًا بِكِتَاب اللّه، ولا إيمَانًا بِالتَّنزيلِ، لَقَد أُنزلَت سُورَةُ «النور»: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، فَانقَلبَ رِجَالُهُنَّ إليهِنَّ يَتْلُون عَلَيهِنَّ مَا أُنزِلَ فِيهَا، مَا مِنهنَّ امرَأةٌ إلَّا قَامَت إلى مِرطِهَا فَأصْبحنَ يُصَلِّينَ الصُّبحَ مُعتَجِراتٍ كَأنَّ عَلَى رُءُوسِهِنَّ الغِرْبَانَ»، انتهى مَحَلُّ الغَرَضِ مِن «فَتح البَارِي».

ومعنى مُعتَجِراتٍ: مُختَمِرَاتٍ، كما جَاءَ مَوَضَّحًا في رِوَاية البُخَاريِّ المذْكُورةِ آنِفًا، فَتَرى عَائِشَةَ - رَضِي الله عَنْهَا - مَعَ عِلمِهَا وَفَهمِهَا وَتُقَاهَا، أَثْنَت عَلَيهِنَّ هَذَا الثَّنَاءَ العَظِيمَ، وَصَرَّحَت بأنَّها مَا رَأَت أَشَدَّ مِنهُنَّ تَصْدِيقًا بِكتَابِ اللّه، وَلا إيمانًا بِالتَّنزيلِ، وهُوَ دَليلٌ وَاضحٌ عَلَى أنَّ فَهمَهُنَّ لُزُومَ سَتْرِ الوُجُوهِ مِن قَولِهِ تَعَالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، مِن تَصدِيقِهِنَّ بِكِتَابِ الله وإيمَانِهِنَّ بِتَنزيلِهِ، وهُو صَرِيحٌ في أنَّ احْتِجَابَ النِّساءِ عَن الرِّجَالِ وَسَترهُنَّ وُجُوهَهُنَّ تَصديقٌ بِكِتَاب الله وإيمانٌ بِتَنزيلِهِ، كَمَا تَرَى.

فَالعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ، مِمَّن يَدَّعِي مِنَ الْمُنتَسِبِينَ لِلعِلمِ أنَّهُ لَم يَرِد في الكِتَابِ وَلَا السُّنَّة مَا يَدلُّ على سَترِ المَرأةِ وَجهَهَا عَنِ الأجَانِبِ، مَعَ أنَّ الصَّحَابيَّاتِ فَعَلنَ ذَلِكَ مُمتثِلَاتٍ أَمْرَ الله في كِتابِهِ إيمَانًا بِتَنزيلِهِ، ومَعْنَى هَذَا ثَابتٌ في الصَّحيحِ، كَمَا تَقَدَّم عَن

البُخاريِّ. وهَذَا مِن أعْظَمُ الأَدِلَّة وَأصْرَحُهَا في لِزُومِ الحِجابِ لِجَميعِ نِسَاءِ المُسْلِمينَ، كَمَا تَرَى» ا.هـ[1].

عباد الله ...

هذه هي أدلة وجوب الحجاب، أمَّا شروط الحجاب الشرعيَّة، فستأتي بعد قليل - إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد وضع العلماءُ شروطًا لحجاب المرأة المسلمة، كلّ شرط له دليله الشَّرعي، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: استيعاب جميع البدن إلا ما استثنى:

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ففي الآية الأولى التصريح بوجوب ستر الزينة كلها، وعدم إظهار شيء منها أمام الأجانب إلَّا ما ظهر بغير قصد منهن، فلا يؤاخذن عليه إذا بادرن إلى ستره.

---

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٥٩٢ - ٥٩٥).

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» أي: لا يُظهِرْنَ شيئا من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه. وقال ابن مسعود: كالرداء والثياب. يعني: على ما كان يتعاطاه نساء العرب، من المِقْنعة التي تُجَلِّل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكن إخفاؤه.

وقد اختلف أقوال السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ [النور: ٣١]، فمن قائل: إنها الثياب الظاهرة. ومن قائل: إنها الكحل والخاتم والسوار والوجه، وغيرها من الأقوال رواها ابن جرير في «تفسيره» [(١)] عن بعض الصحابة والتابعين.

قال ابن جرير - رحمه الله تعالى - : «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول مَن قال: عني بذلك الوجه والكفين، يدخل في ذلك - إذا كان كذلك - الكحل والخاتم والسوار والخضاب، وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال في ذلك بالتأويل، لإجماع الجميع على أن على كل مُصلٍّ أن يستر عورته في صلاته، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفّيها في صلاتها، وأنَّ عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها، إلا ما رُوي عن النبي ﷺ أنه أباح لها أن تبدي من ذراعها قدر النصف[(٢)]، فإذا كان ذلك من جميعهم إجماعًا، كان معلومًا بذلك أنَّ لها أن تُبدي من بدنها ما لم يكن عورة كما ذلك للرجال، لأن ما لم يكن عورة فغير حرامٍ إظهاره، وإذا كان لها إظهار ذلك، كان معلومًا أنه ممَّا استثنى الله تعالى ذكره بقوله: ﴿**إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ لأن كل ذلك ظاهر منها» ا.هـ.

قال الشيخ الألباني معلِّقًا على قول ابن جرير: «وهذا الترجيح غير قويّ عندي، لأنه غير متبادر من الآية على الأسلوب القرآني، وإنما هو ترجيح بالإلزام الفقهي، وهو غير لازم هنا، لأن للمخالف أن يقول: جواز كشف المرأة عن وجهها في الصلاة أمرٌ خاصّ بالصلاة، فلا يجوز أن يُقاس عليه الكشف خارج الصلاة لوضوح الفرق بين الحالتين.

أقول هذا مع عدم مخالفتنا له في جواز كشفها وجهها وكفّيها في الصلاة وخارجها، لدليل، بل لأدلة أخرى...» [(٣)].

---

(١) (١٨/ ٨٤)

(٢) مُنكر لا يصح.

(٣) انظر أدلته - رحمه الله تعالى - في كتابه «جلباب المرأة» (٣٩ - ١٠٣).

قُلت: ومَن أجاز كشف الوجه من العلماء أجاز كشفه بغير زينة ومكياج.

والجلباب: هو الملاءة التي تلتحف بها المرأة فوق ثيابها على أصحِّ الأقوال، وهو يستعمل في الغالب إذا خرجت من دارها.

قال ابن حزم: والجلباب في لغة العرب التي خاطبنا بها رسول الله ﷺ هو ما غطَّى جميع الجسم لا بعضه.

وصحَّحه القرطبي في «تفسيره».

مشروعية ستر الوجه:

هذا، وستر الوجه والكفّين له أصلٌ في السُّنَّة خلافًا لمن قال بأنه بدعة، وإليك بعض الأدلة التي تُؤِّيد ما نقول:

(١) عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «كنَّا نُغَطي وُجُوهنا مِن الرِّجال، وكُنا نمتشط قبل ذلك في الإحرام»[١].

(٢) وعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: «كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحْرِمَاتٌ فَإِذَا حَاذَوْا بِنَا أَسْدَلَتْ إِحْدَانَا جِلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا إِلَى وَجْهِهَا فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ»[٢].

أيتها المسلمة...

إنَّ الحجاب يصونك من النظرات المسمومة الصادرة من مرضى القلوب وكلاب البشر، ويقطع عنك الأطماع المسعورة، فالزميه وتمسكي به ولا تلتفتي للدعايات المغرضة التي تحارب الحجاب أو تقلل من شأنه فإنها تريد لك الشر، كما قال الله تعالى: ﴿**وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٢٧].

عباد الله ...

وللحديث بقية - إن شاء الله - فإلى اللِّقاء في الخطبة القادمة.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ٤٥٤)، وقال: حديث صحيح، ووافقه الذهبي.
(٢) حسن: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وحسّنه الألباني.

الخطبة السادسة والثلاثون بعد المائة:

(ب) كثرة التبرج بين يدي الساعة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل - إن شاء الله تعالى - الحديث عن «شروط الحجاب الشَّرعيّ»، نسأل الله تعالى أن يستر نساءنا، إنَّهُ وليُّ ذلك والقادر عليه.

عباد الله ...

تكلمنا في الخطبة الماضية عن الشرط الأول من شروط الحجاب، وهو «استيعاب جميع البدن إلَّا ما استثنى».

الشرط الثاني: أن لا يكون زينة في نفسه:

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

وقال سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والتبرج: إبداء ما يجب ستره.

قال الإمام الذهبيّ - رحمه الله تعالى - : «ومن الأفعال التي تُلعن عليها المرأة: إظهار الزينة والذهب واللؤلؤ تحت النقاب، وتطيبها بالمسك والعنبر والطِّيب إذا خرجت، ولبسها الأكمام وتطويلها، وكل ذَلِكَ من التبرج الذي يمقت الله عليه، ويمقت فاعله في الدنيا والآخرة»(١).

هذا؛ ولا يشترط السواد في الجلباب كما يظن البعض، فقد روى ابن أبي شيبة في «المصنف» عن القاسم بن محمد أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تلبس الثياب المُعصفَرة، وهي مُحرِمة.

الشرط الثالث: أن لا يكون ضيقًا يبيِّن حجم أعضائها:

ففي «صحيح مسلم» عن النبيّ ﷺ : «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**».

قال ابن تيمية رحمه الله: «وَقَدْ فُسِّرَ قَوْلُهُ ﷺ : «**كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ**» بِأَنْ تَكْتَسِيَ مَا لَا يَسْتُرُهَا فَهِيَ كَاسِيَةٌ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عَارِيَةٌ، مِثْلُ مَنْ تَكْتَسِي الثَّوْبَ الرَّقِيقَ الَّذِي يَصِفُ بَشَرَتَهَا؛ أَوْ الثَّوْبَ الضَّيِّقَ الَّذِي يُبْدِي تَقَاطِيعَ خَلْقِهَا مِثْلَ عَجِيزَتِهَا وَسَاعِدِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَإِنَّمَا كُسْوَةُ الْمَرْأَةِ مَا يَسْتُرُهَا فَلَا يُبْدِي جِسْمَهَا وَلَا حَجْمَ أَعْضَائِهَا لِكَوْنِهِ كَثِيفًا وَاسِعًا»(٢) ا.هـ.

وعَنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: كَسَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ قُبْطِيَّةً كَثِيفَةً كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسِ الْقُبْطِيَّةَ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً إِنِّي**

(١) «الكبائر» (١٣١).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١٤٦).

أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا».

والغلالة: شعار يلبس تحت الثوب، ليستر معالم البدن.

عباد الله ...

اسمعوا هذا، وتأملوا حال مسلمات عصرنا، وهنَّ يلبسن ما رقّ ودقّ من الثياب، قد كشفن عن كل شيء، والأغرب رضاء الأزواج عن ذَلِكَ، وافتخارهم بالدِّياثة. فياحسرة على العباد.

الشرط الرابع: أن لا يكون مُبخّرًا مُطيَّبًا:

ففي الحديث: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ»[١].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: وسبب المنع واضح، وهو ما فيه من تحريك داعية الشهوة.

قلت: ولا يخفى أن خروج المرأة من بيتها سافرة متبرجة ريحها تعصف، دعوة صريحة للزنا، فهي بفعلها هذا تلفت أنظار الرجال، فيطمع الذي في قلبه مرض.

الشرط الخامس: أن لا يشبه ثوب الرجال:

فقد لعن النبيُّ ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال، ولعن المترجلات من النساء.

وتشبهها بالرجل في لباسه أن تلبس ما يخصّ به نوعًا وصفة في عُرف كل مجتمع بحسبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فَالفَارِقُ بَيْنَ لِبَاسِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ يَعُودُ إِلَى مَا يَصْلُحُ لِلرِّجَالِ وَمَا يَصْلُحُ لِلنِّسَاءِ. وَهُوَ مَا يُنَاسِبُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الرِّجَالُ وَمَا تُؤْمَرُ بِهِ النِّسَاءُ. فَالنِّسَاءُ مَأْمُورَاتٌ بِالِاسْتِتَارِ وَالِاحْتِجَابِ دُونَ التَّبَرُّجِ وَالظُّهُورِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَشْرَعْ لَهَا رَفْعُ الصَّوْتِ فِي الأَذَانِ وَلَا التَّلْبِيَةِ وَلَا الصُّعُودُ إِلَى الصَّفَا والمروة وَلَا التَّجَرُّدُ فِي الإِحْرَامِ. يَتَجَرَّدُ الرَّجُلُ. فَإِنَّ الرَّجُلَ مَأْمُورٌ أَنْ يَكْشِفَ رَأْسَهُ وَأَنْ لَا يَلْبَسَ الثِّيَابَ

---

(١) حسن: أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

الْمُعْتَادَةَ وَهِيَ الَّتِي تُصْنَعُ عَلَى قَدْرِ أَعْضَائِهِ فَلَا يَلْبَسُ القَمِيصَ وَلَا السَّرَاوِيلَ وَلَا البُرْنُسَ وَلَا الخُفَّ.

إلى أن قال: وَأَمَّا المَرْأَةُ فَإِنَّهَا لَمْ تُنْهَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ اللِّبَاسِ ؛ لِأَنَّهَا مَأْمُورَةٌ بِالِاسْتِتَارِ وَالِاحْتِجَابِ فَلَا يَشْرَعُ لَهَا ضِدُّ ذَلِكَ لَكِنْ مُنِعَتْ أَنْ تَنْتَقِبَ وَأَنْ تَلْبَسَ القُفَّازَيْنِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لِبَاسٌ مَصْنُوعٌ عَلَى قَدْرِ العُضْوِ وَلَا حَاجَةَ بِهَا إِلَيْهِ.

إلى أن قال في النهاية: وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ لِبَاسِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَرْقٌ يَتَمَيَّزُ بِهِ الرِّجَالُ عَنْ النِّسَاءِ. وَأَنْ يَكُونَ لِبَاسُ النِّسَاءِ فِيهِ مِنْ الِاسْتِتَارِ وَالِاحْتِجَابِ مَا يُحَصِّلُ مَقْصُودَ ذَلِكَ: ظَهَرَ[1] أَصْلُ هَذَا البَابِ وَتَبَيَّنَ أَنَّ اللِّبَاسَ إِذَا كَانَ غَالِبُهُ لُبْسَ الرِّجَالِ نُهِيَتْ عَنْهُ المَرْأَةُ.

إلى أن قال: فَإِذَا اجْتَمَعَ فِي اللِّبَاسِ قِلَّةُ السَّتْرِ وَالْمُشَابَهَةُ نُهِيَ عَنْهُ مِنْ الوَجْهَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ا.هـ.

أقول: لقد جمعت المرأة في عصرنا بين النَّهيين: قلة الستر، والمشابهة، فلا يكاد الإنسان يميّز بين المرأة والرجل إلَّا بالكشف الطبي!!

بل ولا يكاد الإنسان يميّز بين المرأة المسلمة وبين الكافرة، فالزي واحد، والسفور واحد، والتبرج واحد، والحركات واحدة!! متابعة في كل شيء!!

ولا أدري متى نفيق من هذه الغيبوبة؟!

قال الإمام الذهبي - رحمه الله تعالى - : «فإذا لبست المرأة زي الرجال من المقالب والفرج والأكمام الضيّقة، فقد شابهت الرجال في لبسهم، فتلحقها لعنة الله ورسوله، ولزوجها إذا أمكنها من ذَلِكَ، أو رضيَ به ولم ينهها، لأنه مأمور بتقويمها على طاعة الله، ونهيها عن المعصية، لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦]، ولقول النبي ﷺ : «**أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ الَّذِى عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ...**»[2].

---

(١) جواب (إذا) السابقة.

(٢) «الكبائر» (ص١٢٩).

هذا؛ والمرأة المتشبهة بالرجال تكتسب من أخلاقهم حتى يصير فيها من التبرج والبروز ومشابهة الرجال ما قد يفضي ببعضهن إلى أن تظهر بدنها كما يظهر الرجال، وتطلب أن تعلو على الرجال كما يعلو الرجال على النساء، وتفعل من الأفعال ما ينافي الحياء المشروع للنساء، وهذا القدر يحصل بمجرد المشابهة.

قلت: ولعل ظهور المرأة اليوم على صفحات المجلات والجرائد وهي عارية تستعرض عضلاتها وهي تمارس الألعاب الرياضية كلعبة كمال الأجسام والجمباز بل والمصارعة خير دليل.

الشرط السادس: أن لا يشبه لباس الكافرات(١):

لما تقرر في الشرع أَنَّهُ لا يجوز للمسلمين - رجالًا ونساءً - التَّشبه بالكفار سواء في عبادتهم أن أعيادهم أو أزيائهم الخاصة بهم، وهذه قاعدة عظيمة في الشريعة الإسلامية خرج عنها اليوم - مع الأسف - كثيرٌ من المسلمين - حتى الذين يعنون منهم بأمور الدين والدعوة إليه - جهلًا بدينهم، أو تبعًا لأهوائهم، أو انجرافًا مع عادات العصر الحاضر وتقاليد أوروبا الكافرة، حتى كان ذَلِكَ من أسباب ذل المسلمين وضعفهم، وسيطرة الأجانب عليهم، واستعمارهم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. لو كانوا يعلمون، وينبغي أن يعلم أن الأدلة على صحة هذه القاعدة المهمة كثيرة في الكتاب والسُّنة.

فمن الآيات:

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن كثير في تفسيره هٰذه الآية: «وهٰذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية»(٢).

---

(١) راجع «جلباب المرأة المسلمة» للشيخ الألباني.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣١٠).

ومن الأحاديث:

(١) عن ابن عمر رضي الله عنه: «أنَّ النبيَّ ﷺ نهى رجلًا وهو جالس معتمد على يده اليسرى في الصلاة، فقال: «**إنها صلاة يهود**» [(١)].

وفي رواية: «**لا تجلس هكذا، إنما هذه جلسة الذين يعذّبون**» [(٢)].

(٢) وعن عبد الله بن عمرو قال: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبَين معصفرَين، فقال: «**إنَّ هذه من ثياب الكفَّار فلا تلبسها**» [(٣)].

(٣) وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلُّون في نعالهم، ولا في خفافهم**» [(٤)].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًّا، يضيق المقام عن حصرها، وما ذكرناه فيه الكفاية والغنى.

الشرط السابع: أن لا يكون لباس شهرة:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلّة يوم القيامة، ثم ألهب فيه نارًا**» [(٥)].

وهو كل ثوب يقصد به الاشتهار بين الناس، سواء كان الثوب نفسيًا يلبسه تفاخرًا بالدنيا وزينتها، أو خسيسًا يلبسه إظهارًا للزهد والرياء.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «قال ابن الأثير: الشهرة ظهور الشيء، والمراد أن ثوبه يشتهر بين الناس لمخالفة لونه لألوان ثيابهم، فيرفع الناس إليه أبصارهم، ويختال عليهم بالعجب والتكبر» [(٦)].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم.

(٢) حسن: رواه أحمد.

(٣) أخرجه مسلم وغيره.

(٤) انظر «صحيح سنن أبي داود» (٦٥٩).

(٥) حسن: أخرجه أبو داود (٢/ ١٧٢)، وغيره.

(٦) «نيل الأوطار» (٢/ ٩٤).

قلت: أما إذا لبس ثوبًا حسنًا أو نعلًا حسنًا دون عُجب ولا رياء فلا بأس، بل هو ممدوح، فالله جميل يحبّ الجمال.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يسأل سائل: وما حكم القواعد من النساء؟ قال الله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

فما معنى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾؟

الجواب: قال ابن كثير رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال عددٌ من العلماء: هُنَّ اللَّواتي انقطع عنهنَّ الحيض ويئسن مِن الولد، ﴿اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لم يبق لهنّ تَشوُّفٌ إلى التزويج، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: ليس عليهن من الحرج في التَّسَتُّر كما على غيرهنّ مِن النساء.

قال عددٌ من العلماء في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قالوا: الجلبابُ أو الرِّداء.

وقال سعيد بن جُبير: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب ليُرى ما عليهنَّ من الزينة، ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وترك وضعنَّ لثيابهنَّ - وإن كان جائزًا - خيرٌ وأفضلُ لهنّ، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾» ا.هـ[1].

فيا معشر الرِّجال:

هذه هي تعاليم الإسلام أظهروها في أحوالكم، وقاوموا بها عدوّكم يُصلح الله لكم أعمالكم، ويستر عوراتكم.

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠٧) باختصار.

وأنت أيتها المسلمة...

لا تلتفتي لدعاة التغريب ﴿أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الجَنَّةِ وَالـمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وعليكِ بتعاليم دينك ففيها سعادة الدنيا، وكرامة الآخرة.

اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا

الخطبة السابعة والثلاثون بعد المائة:

نزع البركة من الوقت

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات الساعة الصُّغرى «نزع البركة من الوقت، وتقارب الزَّمان».

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالجُمُعَةِ وَتَكُونَ الجُمُعَةُ كَاليَوْمِ وَيَكُونَ اليَوْمُ كَالسَّاعَةِ وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعْفَةِ[1]»[2].

---

(١) السَّعفة: الخوصة. وقوله: «يتقارب الزمان» كناية عن نزع البركة من الوقت.

(٢) حسن: رواه أحمد وغيره.

عباد الله ...

إن رأس مال المسلم في هذه الحياة وقت قصير، أنفاسٌ محدودة، وأيَّام معدودة، فمن استثمر تلك اللحظات والساعات في الخير فطوبى له، ومَن أ ضاعها وفرَّط فيها فقد خسر زمنًا لا يعود إليه أبدًا.

وعُمر الإنسان هو موسم الزرع في هذه الدنيا، وحصاد ما زرع يكون في الآخرة.

والوقت أنفس ما عَنيت بحفظه ... وأراه أسهل ما عليك يضيع

قال ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[(١)].

يقول ابن بطَّال: «**كثير من الناس**» أي: أن الذي يوفقّ لذلك قليل[(٢)].

عباد الله ...

مَن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومَن استعملها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، وكما قيل:

يسر الفتى طول السلامة والبقا ... فكيف ترى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء إذا رام القيام ويحمل

ومَن جهل قيمة الوقت الآن فسيأتي عليه حينٌ يعرف فيه قدره ونفاسته وقيمة العمل فيه، ولكن بعد فوات الأوان، وفي هذا يذكر القرآن موقفين للإنسان يندم فيهما على ضياع وقته حيث لا ينفع الندم.

الموقف الأول: ساعة الاحتضار، حيث يستدبر الإنسان الدنيا ويستقبل الآخرة، ويتمنَّى لو منح مهلة من الزمن، وأُخّر إلى أجل قريب ليصلح ما أفسده ويتدارك ما فات، قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

الموقف الثاني: في الآخرة حين توفّى كل نفس ما عملت وتُجزى بما كسبت ويدخل

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٢٢٩).

أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، هناك يتمنَّى أهل النار لو يعودون مرة أخرى إلى حياة التكليف، ليبدءوا من جديد عملًا صالحًا، هيهات هيهات لما يطلبون فقد انتهى زمن العمل وجاء زمن الجزاء. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

فيا أخا الإسلام...

إذا كنت في الأمس اقترفت إساءة ... فثنَّ بإحسان وأنت حميد

ولا ترج فعل الخير يومًا إلى غد ... لعل غدًا يأتي وأنت فقيد

ويومك إن عاتبته عاد نفعًا ... إليك وما ضحى الأمس ليس يعود

عباد الله ...

ونلحظ في زماننا هذا، الجهل بقيمة الوقت والتفريط فيه.

هذا الزمن زمن العجز.. زمن الدعة والراحة والكسل.

ماتت الهمم وخارت العزائم.

تم الساعات والأيام ولا يُحسب لها حساب.

بل هناك مَن ينادي صاحبه: تعال لنقضي وقت الفراغ!!

أخي...

هل لدى المؤمن وقت فراغ؟!

اسمع قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨].

إذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ومع شواغل الحياة، إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله إذًا إلى مَن يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد العبادة والتجرد والتطلع والتوجه.

هذا مع أن المسلم باحتسابه وإخلاصه في أعمال الدنيا في عبادة، وهو في جهاد في حياته إذا حسنت نيته.

أيها المسلمون...

لنعد قليلًا في سطور مضيئة وكلماتٍ صادقة إلى حال مَن سبقنا لنرى كيف نظروا إلى هذه الأوقات، وماذا عملوا فيها، وكيف استفادوا منها.

قال ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي».

تسافر بالراكب الأيام وتسير به الليالي في وضح النهار وفي غسق الدُّجى، آناء الليل وأطراف النهار، رحلة متواصلة، وسيرٌ حثيث، حتى تحط به الرّكاب.

فالناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حَطٌّ عن رحالهم إلَّا في جنة أو نار.

إن الساعات ثلاث:

- ساعة مضت لا تعب فيها على العبد، كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية.
- وساعة مستقبلة لم تأتِ بعد، لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا، ولا يدري ما يقضي الله فيها.
- وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسّر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى.

قال قتادة بن خليد: «المؤمن لا تلقاه إلَّا في ثلاث خِلال: مسجد يعمره، أو بيت يستره، أو حاجة من أمر دنياه لا بأس بها»[1].

إن مَن أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أدّاه، أو مجد بناه، أو أحمد حصَّله، أو خير أسّسه، أو علم اقتبسه فقد عقّ يومه وظلم نفسه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۞ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ٢٣١).

رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

فالواجب على المسلم المبادرة بالأعمال الصالحة قبل انتهاء الأجل، وانقطاع العمل، قبل أن يحال بينه وبين الصالحات، إمَّا بمرض أو موت أو شغل.

قال الإمام الحسن: «ما مر يوم على ابن آدم إلَّا قال له: ابن آدم، إني يوم جديد، وعلى ما تعمل فيَّ شهيد، وإذا ذهبتُ عنك لم أرجع إليك، فقدِّم ما شئت تجده بين يديك، وآخِّر ما شئت فلن يعود أبدًا إليك»[١].

وعن قيمة الوقت يقول الإمام ابن الجوزي - رحمه الله -: «رأيتُ العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان، وكان القدماء يحذرون من ذَلِكَ.

قال الفضيل: أعرف مَن يعدُّ كلامه مِن الجمعة إلى الجمعة.

ودخلوا على رجل من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك؟ فقال: أصدقكم، كنتُ أقرأ فتركت القراءة لأجلكم.

وقد كان جماعة قعودًا عند «معروف» رحمه الله، فأطالوا، فقال: إن ملك الشمس لا يفتر في سوقها أفما تريدون القيام؟

ومِمَّن كان يحفظ اللحظات: عامر بن قيس، قال له رجل: قف أكلمك، قال: فأمسِك الشمس.

وكان عثمان الباقلاني دائم الذكر لله تعالى، فقال: إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنه تخرج لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر!!

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا، لعلّ أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدّثتم، واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيّع منه لحظة، فإن في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال: «**مَن قال: سُبحان الله العظيم وبحمدِهِ، غُرِست له بها نخلة في الجَنَّة**»[٢].

---

(١) «الحسن البصري» (١٤٠).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي وغيره، وانظر «الصحيحة» (٦٤).

فكم يَضيّع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل، والذي يُعين على اغتنام الزمان؛ الانفراد والعزلة مهما أمكن، والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يلقى، وقلة الأكل، فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل.

ومَن نظر في سير السلف آمن بالجزاء، بان[١] له ما ذكرته[٢].

روى ابن مسعود بسند صحيح أَنَّهُ قيل لنافع مولى ابن عمر: ما كان ابن عمر يصنع في منزله؟ قال: الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما.

فهذه النفسية التي يعيش بها المسلم، وإلَّا فإن بطن الأرض خير له من ظهرها.

يا غافلًا عن مصيره...

يا واقفًا مع تقصيره...

سبقك أهل العزائم...

وأنت في اليقظة نائم!

قم في الدُّجى نادمًا، وقف على الباب تائبًا، واستدرك من العمر ذاهبًا، ودع اللهو جانبًا، وطلّق الدنيا إن كنت للآخرة طالبًا.

أيام عمرك معدودة، وأنفاس صدرك محدودة، وعيشك بعد الموت مع دودة.

قال أبو حازم: إن بضاعة الآخرة كاسدة يوشك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل؛ لم يبق له إلا الحسرة والأسف، ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية.

تؤمل في الدنيا طويلاً ولا تدري ... إذا جنّ ليل هل تعيشُ إلى الفَجر

فكم من صحيحٍ مات من غير علّة ... وكم من مريض عاش دَهرًا إلى دهر

إن توقفت أنفاسه نهارًا لم ير الليل، وإنَ سكنت أطرافه بالليل أصبح محمولًا إلى القبر.

---

(١) بان: ظهر.

(٢) «صيد الخاطر» (٤٩٦، ٤٩٧).

طوبى لمن تزوّد من دار ممره إلى دار مقرّه.

كان أبو مسلم الخولاني يقول: «لو رأيتُ الجَنَّة عيانًا ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عيانًا ما كان عندي مستزاد» [١].

وكان مورق العجلي يقول: «يا ابن آدم نودي كل يوم برزقك وأنت تحزن، وينقص عمرك وأنت لا تحزن، تطلب ما يطغيك، وعندك ما يكفيك».

قال حماد بن سلمة: ما أتينا «سليمان التيمي» في ساعة يطاع الله فيها إلَّا وجدناه مطيعًا، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئًا أو عائدًا مريضًا، أو مشيّعًا لجنازة، أو قاعدًا في المسجد، قال: فكنا نرى أنَّهُ لا يُحسن أن يُعصي الله عَزَّ وَجَلَّ.

قالت داية «داود الطائي» : يا أبا سليمان أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية [٢].

وهـــذا صـــباح يـــنعاك ضـــوؤه ... وليلـــته تـــنعاك إن كـــنت تـــشعر

وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببتُ العيش يومًا واحدًا: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر.

سـبيلك في الدنـيا سـبيل مـسافر ... ولابـد مـن زاد لكـل مـسافر

ولابـد للإنـسان مـن حمـل عـدة ... ولا سـيما إن خـاف صـولة قاهـر

وكان الحسن يقول: «ابن آدم؛ إنك بين مطيتين يوضعانك، الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطرًا» [٣].

وقالت رابعة: «إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك، ويوشك إذا

---

(١) «السير» (٤/ ٩).
(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ١٤٠).
(٣) «الزهد» للبيهقي (٢٠٤).

ذهب البعض أن يذهب الكلُّ وأنت تعلم... فاعمل».

ألم تــر أن الــيوم أســرعُ ذاهــب وأن غــــدًا للناظـــرين قـــريب

وسأل الفضيل رجلًا فقال له: «كم أتت عليك؟

قال: ستون سنة.

قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ.

فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقال الفضيل: أتعرف تفسير «**إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون**» فمن عرف أَنَّهُ لله عبدٌ إليه راجع، فليعلم أَنَّهُ موقوف، ومَن علم أَنَّهُ موقوف فليعلم أَنَّهُ مسئول، ومَن علم أَنَّهُ مسئول فليُعد للسؤال جوابًا.

فقال الرجل: فما الحيلة.

قال: يسيرة.

قال: ما هي؟

قال: تحسن فيما بقي، يغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضى وما بقى».

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

وإن المــرء قــد ســار ســتين حجّــة إلى مــــنهل مــــن ورده لقــــريب[(١)]

وهذا إبراهيم بن أدهم يأخذنا إلى بعض إخوانه عندما عاده في مرضه، فجعل يتنفّس ويتأسف. فقال: ما تأسفي على البقاء في الدنيا، ولكن تأسّفي على ليلة نمتُها ويوم أفطرتُه، وساعةٌ غفلتُ فيها عن ذكر الله تعالى!!

أخي...

ما أكثر الذين يأخذون من التسويف شعارًا لهم، يمكنونه من قلوبهم، حتى

---

(١) «جامع العلوم» (٤٦٤).

تقطعت الآمال وانقطعت الآجال.

أخي الشاب...

لا تغرّك الصحة والقوة والشباب، ولا تسير في ركب الحياة لاهيًا ساهيًا وتنسى وقفة الموت.

كم من صحيح سليم معافى سمعنا نعيه.

وكمْ من مريض سقيم طال أجلُه.

كما في القبور من الشباب والأطفال والرضّع.

لا تغتر بشباب ناعم خضل فكم تقدم قبل الشيب شُبّان[١]

قال الفضل بن المهلب رحمه الله: بعث إليَّ سليمان بن عبد الملك في يوم جمعة فقال: هل لك في الجمعة[٢]؟

قلت: ذاك إليك يا أمير المؤمنين.

قال: فدعا بثياب صفرٍ فلبسها، ثم دعا بالمرآة فنظر، ثم نزعها، ثم دعا بثياب خُضرٍ فلبسها، ثم دعا بالمرآة فنظر، ثم قال: أنا الملك الشاب، أنا الملك الشاب، ثم انطلق وانطلقتُ معه، فصعد المنبر، فبينما هو يخطب إذ عرضت له سلعةٌ[٣] فنزل عن المنبر وهو محمومٌ، فما جاءت الجمعة الأخرى حتى دفن[٤].

فوظِّفوا - عباد الله - أنفاسكم في طاعة الله.

واستعينوا بالله ولا تعجزوا.

وفّقني الله - تعالى - وإيّاكم لما يُحبّ ويَرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «موارد الظمآن» (٢/ ٢١)، وانظر «الوقت أنفاس لا تعود» لعبد الملك القاسم.

(٢) أي: هل لك في خطبة الجمعة؟

(٣) السلعة: غدة تحدث فجأة، تظهر بين الجلد واللحم، إذا غُمزت باليد تحركت.

(٤) «أبغض الأعمال إلى الله» للأستاذ مجدي فتحي السيد (ص٢٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فهناك عوامل مساعدة على استغلال الوقت، نذكر منها[1]:

أولًا: معرفة أهمية الوقت:

إنَّ الوقت هو الحياة، فمن لم يعرف أهمية الوقت عاش ميتًا وإن كان يتنفس في وسط الأحياء.

«فينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته فلا يضيِّع منه لحظة من غير قُربة»[2].

«فالزمن لا يقف محايدًا، فهو إمَّا صديق ودود أو عدوّ لدود».

ثانيًا: الزهد في الدنيا:

والزهد في الدنيا: «ليس تشعيث اللّمة ولا قشف الهيئة ولكنه صرف النفس عن الشهوة».

إنَّ الذين أطلقوا لأنفسهم العنان وأصبح دينهم دنانيرهم، ونساؤهم قِبلتهم، وآلهتهم بطنهم، فإنهم ليتحسّرون أشدّ التحسّر على ضياع وقتهم بشهوات أنفسهم.

ثالثًا: تذكّر الموت:

كان الشيخ صدِّيق حسن خان رحمه الله يحثّ مَن يربيهم على الانتفاع بوقتهم والاستعداد لرحيلهم والتزوّد من أيامهم بتذكّر الموت، حيث يقول لهم: «وقدّموا لأنفسكم فإن كل امرئ على ما قدّم قادم، فمن مسرور بحسناته ومحزون على سيئاته نادم، ولا تغفلوا ذكر الموت فإنه ليس بغافل عنكم ولا ناس.

---

(١) من كتاب «الوقت.. عمار أو دمار» لجاسم المطوّع، مع إضافات.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (٢٠).

ومهدوا لنقلكم من القصور إلى بطون الأرماس.

وبادروا قبل أن يحلّ فيه الميعاد، وقبل أن ينادى: الرحيل... الرحيل، وأنتم بلا زاد، فحينئذ تشتد الحسرة على مَن فرّط في الأعمال، ويطلب الرجعة ولات حين رجوع ولا إمهال.

فيها لها من حسرة تتقطع لها الأكباد، حسرة لا ينفع عندها المال ولا العشيرة ولا الأولاد، فالبدار البدار، بالتخلّص من المظالم والآثام»[١].

رابعًا: الخوف من الله:

فالخوف من الله تعالى يساعد على استغلال الوقت، فالخوف سوط الله يقوِّم به أنفُسًا تعوّدت سوء الأدب.

خامسًا: الدعاء وذكر الله:

إن الدُّعاء من أقوى الأسلحة التي يستخدمها الإنسان لملء فراغ وقته، والدعاء هو العبادة، والله تعالى يقول: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠].

وكذلك ذكر الله تعالى لما فيه من الفضل الكبير والأجر العظيم والثواب الجزيل، لذا كانت وصية الرسول ﷺ: «**لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله**».

سادسًا: معرفة أثر البطالة:

فالنفس كالفرس الحرون، إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، والنفس دائمًا تميل إلى ما يضرّها، ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣].

فالعاقل من نأى بنفسه عن موارد الهلكة، وأخذ بزمامها إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة. والبطالة هي منشأ الفساد، والدافع الأول إلى الجريمة خصوصًا مع ضعف الإيمان وفساد البيئة.

سابعًا: معرفة قيمة الشباب:

الشباب هم عماد الأُمّة، وساعدها الذي به تقاتل الأعداء وتَبني به الحضارة، لذا

---

(١) «الموعظة الحسنة» لصديق حسن خان (٢٧٣).

حرصت القوى الهدامة على استغلاله، وتفريغ طاقاته في اللهو والمعاصي، فإن الكثير من شباب اليوم فارغوا النفوس والقلوب والرءوس فلا علم ولا عمل، ولا دين ولا إيمان، وهم لا يجيدون إلا تزجيج الحواجب وتصفيف الشعر، واختيار الملابس والتشبّه بالممثلين والممثلات، ولا عمل لهؤلاء الشباب إلا ارتياد المحلّات العامة والاندفاع وراء الشهوات.

فهل ينتصر الإسلام بأمثال هؤلاء؟!

وهل تتقدم الأمم بالمخنثين؟!

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

فيا أخا الإسلام...

هيا إلى ما فيه سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، هيا إلى كرامة الدنيا وشرف الآخرة؛ «اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك»[(١)].

اللهم أعنّا على ذكّرك وشكرك وحُسن عبادتك

---

(١) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي في «الشعب»، وانظر «صحيح الجامع» (١٠٧٧).

الخطبة الثامنة والثلاثون بعد المائة:

(أ) رفع الأمانة من القلوب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الصُّغرى: «رفع الأمانة من القلوب».

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ يُحَدِّثُ القَوْمَ فِي مَجْلِسِهِ حَدِيثًا جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ؟

قَالَ: فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: سَمِعَ فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ.

حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟».

قَالَ: هَا أَنَا ذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟

قَالَ: «إِذَا تَوَسَّدَ الأَمْرَ غَيْرُ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» (١).

قُلت: وقد تحقق اليوم ما أخبر به رسولُ الله ﷺ، فقد تقدّمت النّفايات وتأخّرت الكَفَاءات في كلّ المجالات، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بن اليمان - رَضِي اللَّـهُ عَنْهُ - قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ، حَدَّثَنَا «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ (٢)، ثُمَّ نَزَلَ القُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ».

ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ (٣) ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ (٤) كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ (٥) فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا (٦) وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ - ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ - فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا. حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ».

وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ وَلَئِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ وَأَمَّا اليَوْمَ فَمَا كُنْتُ لأُبَايِعَ مِنْكُمْ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا (٧).

عباد الله ...

قال الإمام النووي -رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث ما مختصره:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أي: في أصل قلوب الرجال.

(٣) **الوكت**: الأثر اليَسير، وقيل: هو سَوَاد يسير.

(٤) **المجل**: هو التَّنَفُّط الذي يصير في اليد من العمل بفأس ونحوه، ويصير كالقُبَّة فيه ماء قليل.

(٥) **فنفط**: أي علا.

(٦) **منتبرًا**: مُرتفعًا.

(٧) رواه مسلم (١٤٣)، وغيره.

قال صاحب التحرير: وعنى بأحد الحديثين قوله: «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ»، وبالثاني قوله: «ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ» إلى آخره.

أما الأمانة: فالظاهر أن المراد بها: التكليف الذى كلَّف الله تعالى به عباده، والعهد الذى أخذه عليهم.

وقال صاحب التحرير: الأمانة فى الحديث: هي الأمانة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهي عين الإيمان، فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف واغتنم ما يرد عليه منها وَجَدَّ في إقامتها والله أعلم.

و معنى الحديث: أن الأمانة تزول عن القلوب شيئًا فشيئًا فإذا زال أوَّل جزء منها زال نُورُها وخَلَّفَته ظُلْمة كالوكت... فإذا زال شيء آخر صار كالمَجْل - وهو أثر مُحكم لا يكاد يزول إلَّا بعد مدة - وهذه الظُّلمة فَوق التى قَبْلها، ثم شبَّه زوال ذَلِكَ النُّور بعد وقوعه فى القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظُّلمة إيَّاه بِجمر يُدَحرجه على رَجْلِهِ حتى يؤثّر فيها، ثمَ يزول الجمرُ ويبقى التَّنفُّط وأخذه الحَصَاة ودَحْرَجَته إيَّاها، أراد بها زيادة البيان وإيضاح المذكور، والله أعلم.

وأما قول حذيفة: «وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ وَلَئِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ وَأَمَّا اليَوْمَ فَمَا كُنْتُ لأُبَايِعَ مِنْكُمْ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا» فمعنى المبايعة هنا البيع والشراء المعروفان، ومراده أني كنت أعلم أن الأمانة لم ترتفع وأن فى الناس وفاء بالعهود فكنت أقدم على مبايعة من اتَّفق غير باحث عن حاله وثوقًا بالناس وأمانتهم، فإنه كان مُسلما فَدِينُهُ وأمانته تمنعه من الخيانة وتحمله على أداء الأمانة، وإن كان كافرًا فساعيه - وهو الوالى عليه - كان أيضًا يقوم بالأمانة فى ولايته فيستخرج حقى منه، وأما اليوم فقد ذهبت الأمانة فما بقى لى وثوق بمن أبايعه ولا بالساعى فى أدائهما الأمانة، فما أبايع إلَّا «فلانًا وفلانًا» يعنى أفرادًا مِن الناس أعرفهم وأثق بهم» ا.هـ[١].

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ٣٢٨).

عباد الله ...

وفي الأحاديث السابقة دليل على أهمية الأمانة، ومكانتها من دين الإسلام.

إن الإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ، تُصانُ به حقوق الله وحقوق الناس، وتحُرس به الأعمال من دواعي التفريط والإهمال، ومن ثمَّ أوجب على المسلم أن يكون أمينًا.

والأمانة مصدر أمنه يأمنه أمانة، أي: وثق به واطمأن إليه، ولم يخفه، والأمين هو الثقة المؤتمن، ويذكر ابن فارس أن مادة «الأمانة» لها أصلان متقاربان:

أولها: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها: سكون القلب.

والآخر: التصديق، والمعنيان متدانيان.

وأصل الأمن هو طمأنينة النفس وزوال الخوف، ونلاحظ أن هناك ثلاثة ألفاظ من مادة الألف والميم والنون، والمعنى المشترك بينها هو الاطمئنان، لأن الأمانة تدل على الثقة، والثقة اطمئنان، والأمن عدم الخوف، وعدم الخوف اطمئنان، والإيمان تصديق وإذعان، وفيهما استقرار واطمئنان[(١)].

والأمانة في نظر الشارع الحكيم واسعة الدلالة، وهي ترمز إلى معان شتى، مناطها جميعًا شعور المرء بتبعته في كل أمر يُوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربّه، على النحو الذي فصله الحديث الكريم:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِى أَهْلِهِ رَاعٍ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهْىَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِى مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» .

قَالَ ابن عُمر: فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنَ النَّبِىِّ ﷺ وَأَحْسِبُ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: «**وَالرَّجُلُ فِى مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[(٢)].

---

(١) «موسوعة أخلاق القرآن» (٢/ ١٥)، د. أحمد الشرباصي.

(٢) أخرجه البخاري.

والعوام يقصرون الأمانة في أضيق معانيها وآخرها ترتيبًا، وهو حفظ الودائع، مع أن حقيقتها في دين الله أضخم وأثقل، إنها الفريضة التي يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله على حفظها، حتى إنه عندما يكون أحدهم على أهبة سفر، يقول له أخوه: «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»[١].

وعن أنس قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلَّا قال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»[٢].

ولما كانت السعادة القصوى أن يوقى الإنسان شقاء العيش في الدنيا وسوء المنقلب في الآخرة، فإن رسول الله جمع في استعاذته بين الحالين معًا إذ قال: «**اللهم إنِّي أعوذ بك من الجوع فإنَّهُ بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنَّها بئست البطانة**».

فالجوع ضياع الدنيا وضياع الدين[٣].

فللأمانة معنيان: **خاص وعام**.

أمَّا **الخاص**: فهو أن يَرُدّ الشخص المال أو المتاع أو غيرهما إلى مَن ائتمنه عليه، لأنه حفيظٌ على هذا الشيء، راعٍ له، ليس من حقّه أن يتصرّف فيه، فإذا ما استردّه صاحبه سارع بردِّه إليه.

أما **العام**: فيتسع لأكثر من هذا، فيشمل: كتمان السِّر، وإخلاص المشورة للمستشير، وصدق التبليغ فيما كلف الشخص أن يبلغه، فالذي يستودعك سرًّا واثقٌ بك، مطمئن إلى كتمانك فأنت على سرّه أمينٌ. والذي يستشيرك يُفضَى إليك بما في نفسه، ويتوقَّع أن تُبدي له رأيك صريحًا وإن خالفه، فإن فعلت فأنت أمينٌ، والذي يكلّفك تبليغ خبر إلى آخر، قد اختارك للتبليغ عنه، فإذا ما أدَّيت الرسالة صحيحة فأنت أمينٌ.

وهكذا ترتبط الأمانة في معناها الخاصّ وفي معناها العام بعدّة فضائل كالصّدق والصَّبر والشجاعة والعفّة والوفاء والعدل[٤].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٢٦٠٠) وغيره.
(٢) **حسن**: رواه أحمد والبزار وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» (٧١٧٥).
(٣) «خُلق المسلم» (٤٥، ٤٦).
(٤) «من أخلاق النبي ﷺ» د. أحمد العوفي (٥، ٦).

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ كُلَّ ذَنْبٍ إِلَّا الأَمَانَةَ، يُؤْتَى بِصَاحِبِهَا وَإِنْ كَانَ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَالَ لَهُ: أَدِّ أَمَانَتَكَ، فَيَقُولُ: رَبِّ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا فَمِنْ أَيْنَ أُؤَدِّيهَا؟

فَيَقُولُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الهَاوِيَةِ، حَتَّى إِذَا أُتِيَ بِهِ إِلَى قَرَارِ الهَاوِيَةِ مُثِّلَتْ لَهُ أَمَانَتُهُ كَيَوْمِ دُفِعَتْ إِلَيْهِ، فَيَحْمِلُهَا عَلَى رَقَبَتِهِ يَصْعَدُ بِهَا فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا هَوَتْ وَهَوَى فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الآبِدِينَ.

ثُم قال: الصَّلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدّدها، وأشدّ ذَلِكَ الودائع، قال - يعني زاذان[1] - : فأتيتُ البراء بن عازب فقلتُ: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟ قال: كذا..

قال: صدق، أما سمعت الله يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾[2] [النساء: ٥٨].

عباد الله ...

ومما يدل على جلال مكانة الأمانة: أنَّ القرآن الكريم وصف جبريل عليه السلام بأنه أمين؛ قال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾ [الشعراء: ١٩٣].

وأشار القرآن أكثر من مرة أنَّ رسل الله - عليهم الصلاة والسَّلام - يتصفون بالأمانة، ففي سورة الشعراء نرى أن نوحًا عليه السلام قد قال لقومه: ﴿**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وكذلك قال كل من هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السَّلام: ﴿**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**﴾[3].

وأشار القرآن إلى أمانة موسى منذ شبابه وذلك على لسان ابنة شعيب: ﴿**قَالَت إِحدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ [القصص: ٢٦].

---

(١) أحد الرواة.

(٢) رجاله ثقات: رواه أحمد، وقال: إسناده جيد. «الترغيب» (٤٣٩٢). وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: رجاله ثقات. «المجمع» (٥/ ٢٩٣).

(٣) الشعراء: الآيات (١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨).

وأشار القرآن كذلك إلى أمانة يُوسف، حيث جاء فيه على لسان العزيز ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

ولقد كان النبي ﷺ يلقَّب قبل الرسالة بـ«الصادق الأمين» ووصف الله تبارك وتعالى المؤمنين فقال فيما وصفهم به: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

عباد الله ...

وردت أحاديث كثيرة تعظم شأن الأمانة وترهّب من خيانتها، فمن ذَلِكَ:

(١) عَن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ وَيَخُونُونَ وَلاَ يُتَّمَنُونَ وَيَنْذُرُونَ وَلاَ يُوفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»[(١)].

(٢) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[(٢)].

زاد مسلم في رواية له: «وإذا صلَّى وصام وزعم أنَّهُ مُسلم».

(٣) وعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَن النَّبي ﷺ قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ ابْنِ فُلاَنٍ»[(٣)].

(٤) وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ أَنَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا» - وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: «الزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[(٤)].

وقال ﷺ: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلاَ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم وغيره.

(٤) صحيح: أخرجه الحاكم، وانظر «الصحيحة» (٢٠٥).

حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ»[١].

ومن معاني الأمانة: وضع كل شيء في المكان الجدير به، واللائق له، فلا يسند منصب إلَّا لصاحبه الحقيق به، ولا تملأ وظيفة إلَّا بالرجل الذي ترفعه كفايته إليها.

واعتبارُ الولايات والأعمال العامة أمانات ومسئولية ثابتة من وجوه كثيرة:

فعن أبي ذرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»**.

إن الكفاية العلمية أو العملية ليست لازمة لصلاح النفس، قد يكون الرجل رضي السيرة حسن الإيمان، ولكنه لا يحمل من المؤهلات المنشودة ما يجعله منتجًا في وظيفة معينة، ألا ترى إلى يُوسف الصدِّيق، إنه لم يرشح نفسه لإدارة شئون المال بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه أيضًا؛ ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥].

وأبو ذرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لما طلب الولاية لم يره الرسول جَلدًا لها فحذره منها.

والأمانة تقتضي بأن نصفِّي للأعمال أحسن الناس قيامًا بها، فإذا مِلنا عنه إلى غيره - لهوىً أو رشوة أو قرابة - فقد ارتكبنا - بتنحية القادر وتولية العاجز - خيانة فادحة.

والأمة التي لا أمانة فيها، هي الأُمَّة التي تعبث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء، لتهملهم وتقدم من دونهم، وقد أرشدت السُّنة إلى أن هذا من مظاهر الفساد، الذي سوف يقع آخر الزمان.

جاء رجل يسأل رَسُولَ اللهِ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟

فقَالَ: **«إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»**.

فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟

قَالَ: **«إِذَا تَوَسَّدَ الأَمْرَ غَيْرُ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»**[٢].

---

(١) صحيح: أحمد في «المسند» والحاكم وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» برقم (٨٧٣).

(٢) رواه البخاري.

ومِن الأمانة ألَّا يستغل الرجل منصبه الذي عُيّن فيه لجرّ منفعة إلى شخصه وقرابته، فإن التشبع من ا لمال العام جريمة.

والمعروف أن الحكومات أو الشركات تمنح مستخدميها أجورًا معينة، فمحاولة التزيّد عليها بالطرق الملتوية هي اكتساب للسُّحت. قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ**»[١].

لأنه اختلاس من مال الجماعة الذي يُنفق في حقوق الضعفاء والفقراء، ويرصد للمصالح الكبرى؛ ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقد شدد الإسلام في ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ، وشدَّد في رفض المكاسب المشوبة.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الكِنْدِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولاً يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ!!

قَالَ: «**وَمَا لَكَ؟**».

قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا.

قَالَ: «**وَأَنَا أَقُولُهُ الآنَ: مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى**»[٢].

وحدث أن استعمل النبيّ ﷺ رجلًا من الأزْد يُقال له «ابْنَ الأُتْبِيَّةِ» على الصدقة، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَهلاَّ جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا**». ثُمَّ خَطَبَنَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى العَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِي اللَّهُ فَيَأْتِي فَيَقُولُ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي. أَفَلاَ جَلَسَ**

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) رواه مسلم وانظر «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٥٦).

فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا، وَاللهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاَّ لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعِرُ». ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» [(١)].

ومن معاني الأمانة: أن تنظر إلى حواسّك التي أنعم الله بها عليك، وإلى المواهب التي خصّك الله بها، وإلى ما حُبيت من أموال وأولاد، فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك، فيجب أن تسخرها في قُرباته، وأن تستخدمها في مَرضاته، فإن امتُحنت بنقص شيء منها فلا يستخفنّك الجزع متوهمًا أن ملكك المحض قد سُلب منك، فالله أولى بك منك، وأولى بها أفاء عليك وله ما أخذ وله ما أعطى، وإن امتحنت ببقائها فما ينبغي أن تجبن بها عن جهاد، أو تفتتن بها عن طاعة، أو تستقوى بها على معصية، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٢٧، ٢٨].

ومن معاني الأمانة: أن تحفظ حقوق المجالس التي تشارك فيها، فلا تدع لسانك يُفشي أسرارها، ويسرد أخبارها.

فكم من حبال تقطعت، ومصالح تعطلت، لاستهانة بعض الناس بأمانة المجلس، وذكرهم ما يدور فيه من كلام، منسوبًا إلى قائله، أو غير منسوب.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا حدَّث رجلٌ بحديث ثم التفتَ، فهو أمانة**» [(٢)].

وحرمات المجالس تُصان، ما دام الذي يجري فيها مضبوطًا بقوانين الأدب وشرائع الدين، وإلَّا فليست لها حُرمة.

قال رسول الله ﷺ: «**المَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ إِلاَّ ثَلاَثَةَ مَجَالِسَ: سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ، أَوْ فَرْجٌ حَرَامٌ، أَوِ اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ**» [(٣)].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) حسن: أخرجه أبو داود.
(٣) رواه أبو داود.

وللعلاقات الزوجيّة - في نظر الإسلام - قداسة، فما يضمّه البيت من شئون العِشرة بين الرجل وامرأته، يجب أن يُطوى في أستار مُسبلة، فلا يطلع عليه أحد مهما قرب، والسُّفهاء من العامة يُثرثرون بما يقع بينهم وبين أهليهم من أمور، وهذا وقاحة حرَّمها الله.

قال رَسُول الله ﷺ : «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الأَمَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»[١].

والودائع التي تدفع إلينا لنحفظها حينًا ثم نردّها إلى ذويها حين يطلبونها هي من الأمانات التي نسأل عنها؟

إن الأمانة فضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرجالُ المهازيل، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالـجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَـهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[٢] [الأحزاب: ٧٢].

فأدّوا الأمانة - عباد الله - واستعينوا بالله ولا تعجزوا، وفّقني الله وإيَّاكم لِما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وإذا مات الضمير رفعت الأمانة، ودلّ رفعها على قرب قيام الساعة.

عَنْ حُذَيْفَةَ بن اليمان - رَضِي اللَّـهُ عَنْهُ - قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ، حَدَّثَنَا «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ القُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ».

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «خُلق المسلم» (٤٦ - ٥٢) بتصرف.

ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ - ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ - فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا. حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ».

وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ وَلَئِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ وَأَمَّا اليَوْمَ فَمَا كُنْتُ لأُبَايِعَ مِنْكُمْ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا[(١)].

وقال ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «أوّل ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما يبقى من دينكم الصَّلاة، وليصلّين قومٌ لا دين لهم»[(٢)]!!

فيا أخي المسلم...

كن حريصًا على دينك، شحيحًا به، لا تفرط فيه، وإن قُتلت وحُرقت، أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك، فإن الخبيث لا يمحو الخبيث، وإن فرَّط أحدهم في دينه فلا تكن مثله، وإن عصى أحدهم فيك ربّه فأطع الله فيه، يكن الأجر لك والوبال عليه، واسمع إلى قول الحسن البصري رحمه الله وهو يقول:

ابن آدم إنك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك.

ابن آدم لو أن الناس كلهم أطاعوا الله وعصيتَ أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعتَ أنت، لم تضرّك معصيتهم.

ابن آدم ذَنبك ذنبك، فإنّما هو لَحمك ودَمك، فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنما هي نار لا تُطفأ وجسم لا يَبلى، ونفسٌ لا تموت[(٣)].

وللحديث بقية - إن شاء الله - فإلى اللِّقاء في الخطبة القادمة

---

(١) رواه مسلم (١٤٣)، وغيره.

(٢) رواه الطبراني بهذا اللفظ، قال الهيثمي: ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير شدّاد بن معقل، وهو ثقة. «إتحاف الجماعة» للتويجري (٢/ ٧٨).

(٣) «الزهد» للحسن البصري (٢٣).

الخطبة التاسعة والثلاثون بعد المائة:

(ب) رفع الأمانة من القلوب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يومِ الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تحدَّثنا في الخطبة الماضية عن رفع الأمانة من القلوب، وعن مكانة الأمانة من دين الإسلام.

واليوم - إن شاء الله تعالى - نتكلّم عن التحذير من الخيانة، وبيان عقوباتها، أعاذنا الله وإيَّاكم منها.

عباد الله ...

عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ المَكِّيِّ قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ لِفُلاَنٍ نَفَقَةَ أَيْتَامٍ كَانَ وَلِيَّهُمْ، فَغَالَطُوهُ

بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَأَدَّاهَا إِلَيْهِمْ، فَأَدْرَكْتُ لَـهُمْ مِنْ مَاهِمْ مِثْلَيْهَا[١].

قَالَ: قُلْتُ: أَقْبِضُ الأَلْفَ الَّذِى ذَهَبُوا بِهِ مِنْكَ؟

قَالَ: لاَ، حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[٢].

قال العلَّامة **أبو الطَّيِّب محمد شمس الحق العظيم آبادي** رحمه الله في شرحه هٰذا الحديث:

«قوله: «كُنْتُ أَكْتُبُ» في الحساب والدفتر «لِفُلاَنٍ» مجهول لم يعرف اسمه «نَفَقَةَ أَيْتَامٍ» جمع يتيم، ونفقة مفعول أكتب «كَانَ وَلِيَّهُمْ» أي كان الفلان ولي الأيتام «فغالطوه» من المغالطة أي الأيتام إذا بلغوا الحلم وأخذوا أموالهم من وليهم الفلان غالطوه في الحساب بألف درهم وأخذوها من غير حق، «فَأَدَّاهَا» أي الألف ذلك الفلان، «إِلَيْهِمْ» أي إلى الأيتام، «**فأدركت لهم**» أي للأيتام، والقائل يوسف بن ماهك «قَالَ: قُلْتُ» أي لذلك الفلان، «قَالَ: لاَ» أي لا أقبض «**أَدِّ الأَمَانَةَ** ...إلخ» حاصله أن الأمانة لا تخان أبدًا لأن صاحبها إما أمين أو خائن وعلى التقديرين لا تخان وبه قال قوم وجوز آخرون، فيما هو من جنس ماله أن يأخذ منه حقه بأن كان له على آخر دراهم فوقع عنده له دراهم يجوز له أن يأخذ حقه لا إذا وقع عنده دنانير.

ونُقِلَ عن الشافعي أَنَّهُ قال: قد أذن رسولُ الله ﷺ لزوجة أبي سفيان[٣] حين اشتكت إليه[٤] أن تأخذ من ماله ما يكفيها بالمعروف فكذا الرجل يكون له على آخر حق فيمنع إياه فله أن يأخذ من ماله حيث وجده بوزنه أو كيله أو بالقيمة حتى يجوز أن يبيع ويستوفي حقه من ثمنه

---

(١) هكذا في الأصل في «سنن أبي داود»، وفي «صحيح أبي داود»: والمعنى إنما يستقيم بإفراد الضمير بأن يقال: «فأدركت له من ماهم... إلخ».

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٥٣٤)، والترمذي (١٢٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠١٨).

(٣) هي: هند بنت عتبة رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهَا.

(٤) يعني من بُخل أبي سفيان بن حرب رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ.

وحديث «أَدِّ الأَمَانَةَ» إن ثبت لم يكن الخيانة ما أَذِنَ بأخذهُ رسول الله ﷺ وإنما الخيانة إذا أخذ بعد استيفاء دراهمه كذا في فتح الودود ومرقاة الصعود .

«وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» قال في «النيل» ما محصله: فيه دليلٌ على أَنَّهُ لا يجوز مكافأة الخائن بمثل فعله لعموم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ولكن الخيانة إنما تكون في الأمانة كما يشعر بذلك كلام القاموس، فلا يصحّ الاستدلال بهذا الحديث على أنه لا يجوز لمن تعذّر عليه استيفاء حقه حبس حق خصمه على العموم، إنما يصح الاستدلال به على أنه لا يجوز للإنسان إذا تعذّر عليه استيفاء حقه أن يحبس عنده وديعة لخصمه أو عارية، مع أن الخيانة إنما تكون على جهة الخديعة والخفية وليس محل النزاع من ذَلِكَ، انتهى» ا.هـ[1].

عباد الله ...

ولمزيد بيان فالحديث في هذه الخطبة، يدور حول:

- تعريف الخيانة.
- من معاني كلمة «الخيانة» في القرآن الكريم.
- حكم الخيانة.
- أحاديث نبويّة تحذّر من الخيانة وتبيّن عاقبتها.
- صور ومواقف من حياة أهل الأمانة.

والله الموفق لما يُحب ويرضى.

أولا: تعريف الخيانة:

قال الجَاحظُ: الخِيَانةُ هي الاستبدَادُ بِمَا يُؤتَمَنُ الإنسَانُ عَليهِ مِنَ الأمْوَالِ والأعْرَاضِ والحُرَمِ، وتَمَلُّكُ مَا يُستودَعُ ومُجاحَدةُ مُودعِهِ، وفِيهَا أيضًا طَيُّ الأخبَارِ إذَا نُدبَ لتأدِيتهَا، وتَحرِيفُ الرَّسائلِ إذَا تحمَّلهَا فَصرفَها عَن وُجُوهها[2].

(١) «عون المعبود» (٩/ ٣٢٦ - ٣٢٨).

(٢) «تهذيب الأخلاق» (٣١).

ثانيًا: من معاني كلمة الخيانة في القرآن الكريم:

أحدُها: المَعصيَةُ، ومِنهُ قَولُهُ تَعَالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، قَال ابن قُتيبة: تَخُونُونَهَا بالمعصِيةِ[١].

الثَّاني: نَقضُ العَهدِ، ومِنهُ قولُهُ تَعَالى في سورة الأنفَالِ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الآية: ٥٨].

الثَّالث: تَركُ الأَمانةِ، ومِنهُ قَولُهُ تَعَالى في سورة النِّسَاءِ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [آية: ١٠٥].

نَزَلت في طُعمةَ بنِ أُبَيرقٍ المُنافِقَ، كَانَ عندَهُ دِرعٌ فَخَانَهَا.

الرَّابعُ: المُخَالفةُ فِي الدِّينِ، ومِنهُ قَولُهُ تَعَالى في سُورة التَّحريمِ: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [آية: ١٠][٢].

وزَادَ ابنُ سَلَّامٍ وَجهًا خَامسًا فقال: والخِيَانةُ تَعني الزِّنَا في قَولِهِ تَعَالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[٣] [يوسف: ٥٢].

ثالثًا: حُكم الخيانة:

عَدَّ الإمامُ الذَّهبيُّ الخِيَانَةَ مِنَ الكَبَائرِ بِدليلِ قَولِ النَّبيِّ ﷺ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[٤]. ولِقولِهِ أيضًا: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[٥].

وقَالَ: الخِيَانَةُ قَبيحةٌ في كُلِّ شيءٍ، وبَعضُهَا شَرٌّ مِن بَعضٍ، ولَيس مَن خَانَكَ في فَلسٍ كَمَن خَانَكَ في أهْلِكَ ومَالِكَ وارتكَبَ العَظَائِمَ[٦].

---

(١) «تأويل مشكل القرآن» (٤٧٨).
(٢) «نزهة الأعين النواظر» (٢٨١ - ٢٨٣).
(٣) «التصاريف» لابن سلام (١٧٨)، وانظر «نضرة النعيم» (٤٤٨٣).
(٤) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (١٠٧).
(٥) أخرجه أبو داود (٣٥٣٤) وغيره.
(٦) «الكبائر» للذهبي (١٤١، ١٥٠).

أمَّا ابنُ حَجَر فقَد ذكَرَ أنَّ الخِيَانةَ في الأمَانَات والوَديعةِ والعَينِ المَرهُونَة والمُستأجَرَةِ أو غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الكَبَائِر، وقَالَ: عَدُّ ذَلِكَ كَبيرةً هُوَ مَا صَرَّحَ بِهِ غَيرُ واحِدٍ، وظَاهِرٌ مِمَّا ذُكر في الآياتِ والأحَاديثِ(١).

رابعًا: أحاديث تُحذر من الخيانة:

وردت أحاديث كثيرة تحذّر من الخيانة، وتبيِّن خطورتها على دين المرء ودنياه، منها:

١- عَن أبي هُريرة - رَضِي اللّهُ عَنْهُ - أنَّ رَسُول الله ﷺ قال: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»(٢).

٢- وَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ - رَضِي اللّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْم فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلاَ إِنَّ رَبِّى أَمَرَنِى أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِى يَوْمِى هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ**(٣)**، وَإِنِّى خَلَقْتُ عِبَادِى حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ**(٤)**، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ**(٥) **عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِى مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ**(٦) **عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**(٧).

وَقَالَ: **إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**(٨)، **وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ المَاءُ**(٩) **تَقْرَؤُهُ**

---

(١) «الزواجر» لابن حجر الهيتمي (٣٦٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) **كل مال نحلته عبدًا حلال**: في الكلام حذف، أي: قال الله تعالى: كل مال... إلخ، ومعنى نحلته: أعطيته، أي: كل مال أعطيته عبدًا من عبادي فهو له حلال، والمراد: إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك، وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق.

(٤) **حنفاء كلهم**: أي مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لقبول الهداية.

(٥) **فاجتالتهم**: أي: استخفوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل.

(٦) **فمقتهم**: المقت أشد البغض، والمراد بهذا المقت والنظر: ما قبل بعثة رسول الله ﷺ.

(٧) **إلا بقايا من أهل الكتاب**: المراد بهم الباقون على التمسك بدينهم الحق، من غير تبديل.

(٨) **إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك**: معناه: لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة، وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده، والصبر في الله تعالى، وغير ذلك، وأبتلي بك من أرسلتك إليهم، فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته، ومن يتخلف وينابذ بالعداوة والكفر، ومن ينافق.

(٩) **كتابًا لا يغسله الماء**: معناه: محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مرّ الزمان.

نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي(١) فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ(٢)، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ.

قَالَ: وَأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى، وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ.

قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ(٣)، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لاَ يَتْبَعُونَ(٤) أَهْلاً وَلاَ مَالاً، وَالخَائِنُ الَّذِي لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ(٥) وَإِنْ دَقَّ إِلاَّ خَانَهُ، وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ». وَذَكَرَ البُخْلَ أَوِ الكَذِبَ(٦)، «وَالشِّنْظِيرُ(٧) الفَحَّاشُ». وَلَمْ يَذْكُرْ أَبُو غَسَّانَ فِي حَدِيثِهِ «وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ» (٨).

٣- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ البِطَانَةُ» (٩).

٤- وعَنْ بُرَيْدَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حُرْمَةُ نِسَاءِ المُجَاهِدِينَ(١٠) عَلَى القَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ القَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ

---

(١) إذًا يثلغوا رأسي: أي: يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز، أي: يكسر.

(٢) نغزك: أي: نعينك.

(٣) لا زبر له: أي: لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي، وقيل: هو الذي لا مال له، وقيل: الذي ليس عنده ما يعتمده.

(٤) لا يتبعون: مخفف ومشدد؛ من الاتباع، أي: يتْبعون ويتّبعون، وفي بعض النسخ: يبتغون أي: يطلبون.

(٥) والخائن الذي لا يخفى له طمع: معنى لا يخفى: لا يظهر، قال أهل اللغة: يقال: خفيت الشيء إذا أظهرته، وأخفيته إذا سترته وكتمته، هذا هو المشهور، وقيل: هما لغتان فيهما جميعًا.

(٦) وذكر البخل أو الكذب: هكذا هو في أكثر النسخ، أو الكذب، وفي بعضها: والكذب، والأول هو المشهور.

(٧) الشنظير: فسره في الحديث بأنه الفحاش، وهو السيئ الخُلق.

(٨) مسلم (٢٨٦٥).

(٩) حسن: «صحيح سنن أبي داود» (١٣٦٨).

(١٠) حرمة نساء المجاهدين: هذا في شيئين:

الْمُجَاهِدِينَ فِى أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلَّا وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ فَمَا ظَنُّكُمْ[١]» [٢].

٥- وعِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ - رضى الله عنهما - قَالَ: قَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» . قَالَ عِمْرَانُ: لاَ أَدْرِى أَذَكَرَ النَّبِىُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً . قَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «**إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ، وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**» [٣].

٦- وعَن عَبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: «**لاَ تَجُوزُ[٤] شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلاَ خَائِنَةٍ** ...» الحديث[٥].

٧- وعَن أَبِى هُرَيْرَةَ - رَضِي اللّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَالَ عَلَىَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَمَنْ أُفْتِىَ بِفُتْيَا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ وَمَنِ اسْتَشَارَ أَخَاهُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَمْرٍ وَهُوَ يَرَى الرُّشْدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ خَانَهُ**» [٦].

عباد الله ...

هذه جملة من أحاديث البشير النذير ﷺ، حذَّرنا فيها ﷺ من الخيانة، ومن عقوباتها.

فاللَّهم إنَّا نعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

= أحدهما: تحريم التعرض لهن بريبة من نظر محرم وخلوة، وحديث محرم، وغير ذلك.
الثاني: في برهنَّ والإحسان إليهنَّ وقضاء حوائجهنَّ التي لا يترتب عليها مفسدة، ولا يتوصل بها إلى ريبة، ونحوها.

(١) فما ظنكم: معناه: ما تظنون في رغبته في أخذ حسناته والاستكثار منها في ذلك المقام، أي: لا يبقى منها شيئًا إن أمكنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، واللفظ له، ومسلم (٢٥٣٥).

(٤) لا تجوز: لا تُقبل.

(٥) أخرجه أحمد، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٦٩٨): إسناده صحيح.

(٦) حسن: انظر «صحيح سنن أبي داود» (٣١٠٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

خامسًا: صور ومواقف من حياة أهل الأمانة:

وبعد أن تقدّم ذكرُ بعضُ الأحاديث المحذّرة من الخِيانة، نذكر هنا صورًا ومواقف من حياة أهل الأمانة، على أن نحذو حذوهم، ونقتفي آثارهم:

١ - أمانة موسى عليه السلام:

ذكر الحقُّ سُبْحَانَهُ قصَّة مُوسى عليه السَّلام وتوجّهه إلى مدين ولقائه مع شعيب فقال: ﴿وَلَـمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَـهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَـمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِـمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَانَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٣ - ٢٨]

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ أي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل - وهو الرجل الصالح شُعيب - قيل: هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام، قالت لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي: لرعية هذا الغنم.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وغير واحد: لما قالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة

التي لا يطيق حَملها إلَّا عشرة رجال[١]، وإني لما جئتُ معه تقدّمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي فإذا اختلف عليّ الطريق فاخذفي لي بِحَصاةٍ أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرّس في عمر[٢]، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ ا.هـ[٣].

٢- أمانة عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قال:

عَن سعد بن أبي وقاص - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قال: قَدِمَ على عُمَر[٤] مِسكٌ وعَنبرٌ مِن البحرين، فقال عُمر: «والله لَوَددتُ أن أجِدَ امرأةً حَسَنَةَ الوزنِ تَزِنُ لي هذا الطِّيب، حتى أُفرِّقه بين النَّاس».

فقالت له امرأته عاتكة: أنا جيِّدةُ الوزنِ فَهَلُمَّ أزِنُ لَك.

قال عُمر: لا.

قالت: ولِمَ؟

قال: «أخشى أن تأخُذيه هكذا، فتجعليه هكذا» وأدخَل إصبَعَيه في صُدغَيه، «وتَمَسَحِين بِه عُنُقَكِ، فأصيبَ فَضلًا[٥] عَن المسلمين»[٦].

٣- أمانة عُمر بن عبد العزيز رحمه الله:

يحكي كُتَّاب السِّير أنَّ عُمر بن عَبد العَزيز رحمه الله أرسل خادمه يومًا ليسخِّن له الماء كي يتوضّأ به في يوم شات زمهرير، وكان ذلك أيام خلافته، فعاد الخادم مسرعًا بالماء الدَّافئ، فسأله الخليفة: أين أدفأته بهذه السُّرعة؟

---

(١) حين رفعها من على فم البئر لسُقي الغنم.

(٢) وفي رواية: «وأبو بكر حين استخلف عمر».

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ١١).

(٤) يعني في خلافته.

(٥) فضلًا: أي زيادة.

(٦) «سيرة عمر بن الخطاب» لأحمد التاجي (٦٥، ٦٦).

فأجاب الخادم: في مطابخ المسلمين. وكان عمر رحمه الله قد توسّع في إنشاء مطابخ عامّة للناس يُنفق عليها من بيت المال.

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه، ورفض أن يمسَّ الماءَ جسده حتى يذهب الخادم إلى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القَدر الضّحل جدًّا من الماء.

فأين هذه النماذج في دنيا الناس اليوم؟!

اللَّهمَّ ردّ المسلمين إلى دينهم ردًّا جميلًا



الخطبة الأربعون بعد المائة:

علامات يوم القيامة الكبرى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن علامات يوم القيامة الكبرى عشر، فإذا ظهرت كانت الساعة على إثرها.

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الغِفَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟».

قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ.

قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ». فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَآخِرُ

ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»(١).

وهذه الآيات متتابعة في وقوعها، وهي تُشبه في تَتَابعها إذا وقَعَت العِقد إذا انقطع سِلكُه الذي ينتظم حبّاته، فإن الحبَّة الأُولى تَسقط فتتبعها بقيّةُ الحَبّات بلا تأخير.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الآيَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ فِي سِلْكٍ فَإِنْ يُقْطَعِ السِّلْكُ يَتْبَعْ بَعْضُهَا بَعْضًا**»(٢).

عباد الله ...

واختلف أهل العلم في ترتيب ظهور هذه العلامات، وهذا الاختلاف ناشئ من اختلاف روايات الأحاديث التي وَرَدَ فيها ذِكرُ الأمارات.

فالحديث المتقدّم بدأ بظهور «الدُّخان»، وفي لفظ آخر عن حُذيفة بن أسيد أيضًا أنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ** ...» الحديث(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا**»(٤).

وفي حديث آخر: «**أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ** ...» الحديث(٥).

قال الشيخ محمد بيومي - حفظه الله -: «وعلى كلّ حال فإن ظهور هذه الآيات أمرٌ واقع ما له مِن دافع، وأمّا ترتيب ظهورها فالله أعلم به، فليس لدينا نصٌّ صريحٌ في ترتيبها» اهـ(٦).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠١).
(٢) صحيح: رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبيّ والألباني، وانظر «الصحيحة» (١٧٦٢).
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم (٢٩٤١).
(٥) رواه البخاري (٧/ ٢٧٢).
(٦) «علامات يوم القيامة الكبرى» (٨).

وعلى ذَلِكَ، فالترتيب التالي للعلامات ظَنِّي ولَيس توقِيفيًّا.

عباد الله ...

وفي هذه الخطبة نتكلّم - إن شاء الله تعالى - عن **ست علامات:**

العلامة الأولى: الدُّخان:

قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۞ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠- ١١].

قال العلاّمة السّعْديّ - رحمه الله - في تفسيره هاتين الآيتين: «واختلف المفسّرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمّهم حين تقرب النار من المجرمين يوم القيامة ... وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفّار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبيُّ ﷺ، فقال: «اللّهمّ أَعِنّي عليهم بسنين كسِني يوسف»، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكَلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدّة الجوع.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أشراط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناسَ، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان، والقول هو الأوّل، وفي الآية احتمال» ا.هـ [١].

قلت: وإذا كان في تفسير «الدُّخان» المذكور في الآية احتمال، فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن دخانًا سيظهر قبيل قيام الساعة، منها - غَيْر ما تَقَدَّم-: عن أبي مالك الأشعريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ ربّكم أنذركم ثلاثًا: الدُّخان يأخذ المؤمن كالزّكْمة، ويأخذ الكافر فَيَنْتَفخ حتى يَخْرجَ مِنْ كُلّ مَسْمَعٍ منه، والثانية: الدّابة، والثالث: الدّجّال» [٢].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: «الدّخان من الآيات المنتظرة، وهو ظاهر القرآن» ا.هـ [٣].

---

(١) «تفسير السّعديّ» (٧٧٢) باختصار.

(٢) **إسناده جيد:** رواه الطبراني، وقال ابن كثير في «التفسير» (٤/ ٢١٢): إسناده جيد.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢١٣).

العلامة الثانية: طلوع الشمس من المغرب:

وبظهور هذه العلامة: لا يقبل من كافر إيمان، ولا من عاص توبة.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقومُ السّاعةُ حتى تَطْلع الشّمْسُ من مغربها، فإذا طلعت من مغربها آمَن النّاسُ كُلّهم أجمعون. فيومئذ لا ينفع نَفْسًا إيمانُها لم تكن آمنت مِنْ قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**»[١].

قلت: لذا ينبغي المبادرة إلى التوبة والأعمال الصالحة.

فعن أبي هريرة: أن النبيّ ﷺ: قال: «**بادروا بالأعمال سِتًّا: طلوع الشمس من مغربها، والدّجال، والدُّخَان، والدّابة، وخاصّة أحدكم، وأمْر العامة**»[٢].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَابَ قَبْل أن تَطْلُع الشّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها؛ تاب الله عَلَيْه**»[٣].

وقيل: يكون ذلك في يوم أو في ثلاثة، ثم تطلع من المشرق كعادتها[٤].

عباد الله ...

ولا يُستغرب ذَلِكَ؛ فالشمس مربوبة، لا تتحرَّك بإرادتها، ولكن بإرادة الله تعالى.

اسمعوا...

قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٣٥٢)، ومسلم (٣٨٩).
(٢) رواه أحمد، ومسلم.
(٣) رواه أحمد، ومسلم.
(٤) «الدين الخالص» للإمام/ محمود خطاب السبكي (١/ ٧٩).

يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧- ٤٠].

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآيات: «يَقُول تَعَالى: ومِن الدَّلالة لَـهُم عَلَى قُدرتِهِ - تَبَارك وتَعَالى- العَظِيمةِ: خَلقُ اللَّيلِ والنَّهارِ، هَذَا بِظَلامِهِ وهَذَا بِضِيائِهِ، وَجَعلُهُما يَتعاقَبانِ، يَجِيءُ هَذَا فَيَذهبُ هَذَا، ويَذْهَبُ هَذَا فَيجيءُ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهَذا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هاهنا: ﴿وَآيَةٌ لَـهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نَصرمُهُ مِنْهُ فَيذهَبُ، فَيُقبِلُ اللَّيلُ؛ ولهَذَا قَالَ تَبَارك وتَعَالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ كَمَا جَاءَ في الحَدِيثِ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» [(١)].

وقَولُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِـمُسْتَقَرٍّ لَـهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾، في مَعنَى قَولِهِ: ﴿لِـمُسْتَقَرٍّ لَـهَا﴾ قولان:

أحدهما: أنَّ الُمراد: مُستقرُّهَا المكَانيُّ، وهُوَ تَحتَ العَرشِ مِمَّا يَلِي الأَرضَ في ذَلِكَ الجَانِب، وهِي أينَمَا كَانت فَهِي تَحتَ العَرشِ وجَميع المَخلُوقات؛ لأَنَّهُ سَقفُهَا، ولَيسَ بِكُرَةٍ كَمَا يَزعمُهُ كَثيرٌ مِن أَرْبَابِ الهَيئةِ، وإنَّما هُو قُبَّةٌ ذَاتُ قَوائم تَحملُهُ المَلائكَةُ، وهُو فَوقَ العَالَمِ مِمَّا يَلِي رُؤُوسَ النَّاسِ، فَالشَّمسُ إذَا كَانت في قُبة الفَلَكِ وَقتَ الظَّهيرةِ تَكونُ أَقربُ مَا تَكُونُ مِن العَرْشِ، فإذَا اسْتَدارت في فَلَكِها الرَّابع إلى مُقابَلَةِ هَذَا المَقَام، وهُو وَقتُ نِصف اللَّيل، صَارَت أَبعَدَ مَا تكونُ من العَرشِ، فَحِينئذٍ تَسجُدُ وتَستأذِنُ في الطُّلُوعِ، كَمَا جَاءَت بِذَلك الأَحَاديثُ:

عَنْ أَبِى ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المَسْجدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِى أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟» . قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِـمُسْتَقَرٍّ لَـهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾» [(٢)].

وعَنْ أَبِى ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ

---

(١) البخاري (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠).

(٢) البخاري (حديث ٤٨٠٢)، ومسلم (١٥٩).

تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قَالَ: «مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ العَرْشِ»(١).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ حِينَ وَجَبَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ؟». قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ فَتَسْتَأْذِنَ فِي الرُّجُوعِ فَيُؤْذَنَ لَهَا وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعَ إِلَى مَطْلَعِهَا فَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا» ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾(٢).

وقِيلَ: المُراد بقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ هُوَ انْتِهَاءُ سَيرِهَا وهُو غَايَةُ ارْتِفَاعِهَا في السَّماءِ في الصَّيفِ وهُوَ أوجُّهَا، ثُمَّ غَايَةُ انْخِفَاضِهَا في الشِّتَاءِ وهُوَ الحَضِيضُ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّ المُرادَ بِمُستقرِّهَا هُوَ: مُنْتَهى سَيْرِهَا، وَهُو يَوْمُ القِيَامةِ، يَبطُلُ سَيرُهَا وتَسكُنُ حَرَكتُهَا وتُكوَّرُ، ويَنْتَهِي هَذَا العَالَمُ إلى غَايَتِهِ، وهَذَا هُوَ مُستقرُّهَا الزَّمانيُّ.

قَالَ قَتَادةُ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: لِوقْتِهَا ولأجَلٍ لَا تَعْدُوهُ.

وقِيلَ: المُرادُ: أنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْتقِلُ في مَطَالِعَها الصَّيفيَّةِ إلى مُدَّةٍ لَا تَزيدُ عَليهَا، ثُمَّ تَنتقِلُ في مَطَالِعِ الشِّتاءِ إلى مُدَّةٍ لا تَزيدُ عَلَيها، يُروَى هَذَا عَن عَبْدِ الله بن عَمرو رَضِي الله عَنهُمَا.

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ﴾ أي: الَّذي لَا يُخَالَفُ ولا يُمانَع، ﴿العَلِيمِ﴾ بِجَميعِ الحَرَكَاتِ والسَّكَنَاتِ، وقَدْ قَدَّرَ ذَلِكَ وقَنَّنَهُ عَلَى مِنوالٍ لا اخْتِلافَ فِيهِ وَلَا تَعاكُسَ، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] . وهَكَذَا خَتَمَ آيَةَ ﴿حم﴾ «السَّجدَة» بِقَولِهِ تَعَالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أي: جَعَلنَاهُ يَسيرُ سَيرًا آخَرَ يُستدَلُّ بِهِ عَلَى مُضِيِّ الشُّهورِ، كَمَا أنَّ الشَّمسَ يُعرَفُ بِها اللَّيلُ والنَّهار، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ

---

(١) البخاري (٤٨٠٣)، ومسلم (١٥٩).

(٢) انظر المصادر السابقة.

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ الآية [يونس: ٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]،

فَجَعَلَ الشَّمسَ لَهَا ضَوءٌ يَخُصُّهَا، والقَمَر لَه نُورٌ يَخُصُّهُ، وفَاوتَ بَينَ سَيرِ هَذِه وهَذَا، فَالشَّمسُ تَطلُعُ كُلَّ يَوم وتَغْرُبُ فِي آخِرهِ عَلَى ضَوءٍ وَاحِدٍ، ولَكِن تَنْتقِلُ فِي مَطَالِعِهَا ومَغَاربِهَا صَيفًا وشِتاءً، يَطُولُ بِسببِ ذَلِكَ النَّهارُ ويَقصُرُ اللَّيلُ، ثُمَّ يَطُولُ اللَّيلُ ويَقْصُرُ النَّهارُ، وجَعَلَ سُلطانَهَا بِالنَّهار، فَهِي كَوكبٌ نَهاريٌّ.

وأمَّا القَمرُ، فَقَدَّره مَنَازِلَ، يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ لَيلةٍ مِنَ الشَّهر ضَئِيلًا قَلِيلَ النُّورِ، ثُمَّ يَزدادُ نُورًا فِي اللَّيلةِ الثَّانيةِ، ويَرتَفِعُ مَنزلةً، ثُمَّ كُلَّما ارتَفَعَ ازْدَادَ ضِيَاءً، وإنْ كَانَ مُقتَبسًا مِنَ الشَّمسِ، حَتَّى يَتكَاملَ نُورُهُ فِي اللَّيلةِ الرَّابعةِ عَشْرَةَ، ثُمَّ يَشرعُ فِي النَّقصِ إلى آخِر الشَّهرِ، حَتَّى يَصيرَ كَالعُرجُونِ القَدِيم. قال ابن عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهُما: وهُو أصْلَ العِذْق. وقال مجاهد: العُرجُونُ القَدِيمُ: أَي العِذقُ اليَابِسُ. يَعنِي ابنُ عَبَّاسٍ: أصْلَ العُنقُودِ مِنَ الرُّطبِ إِذَا عَتُقَ ويَبِسَ وانْحَنَى، وكَذَا قَالَ غَيرُهُمَا. ثُمَّ بَعدَ هَذَا يُبدِيهِ الله جَدِيدًا فِي أَوَّلِ الشَّهر الآخِر، والعَرَبُ تُسمِّي كُلَّ ثَلاثِ لَيَالٍ مِنَ الشَّهر بِاسمٍ بِاعتبَارِ القَمرِ، فَيُسمُّون الثَّلاث الأُوَل «غُرَر» واللَّواتِي بَعدهَا «نُفَل»، واللَّواتي بَعدهَا «تُسَع»؛ لأنَّ أُخرَاهُنَّ التَّاسِعَةُ، واللَّواتي بَعدهَا «عُشَر»؛ لأنَّ أُولاهُنَّ العَاشِرةُ، واللَّوَاتي بَعدهَا «البِيض»؛ لأنَّ ضَوءَ القَمَر فِيهِنَّ إلى آخِرهِنَّ، واللَّواتِي بَعدهُنَّ «دُرَع» جَمعُ دَرْعاء؛ لأنَّ أَوَّلهُنَّ سُود؛ لِتأخُّر القَمَر فِي أَوَّلهِنَّ، ومِنْهُ الشَّاةُ الدَّرعَاءُ، وهِي الَّتي رَأسُهَا أَسْودُ. وبَعدهُنَّ ثَلاثٌ «ظُلم» ثُمَّ ثَلاثٌ «حَنَادِس»، وثَلاثٌ «آدِئ» وثَلاثٌ «مُحاق»؛ لانْمِحَاق القَمَر أواخِر الشَّهر فِيهِنَّ. وكَانَ أَبُو عُبيد يُنكِرُ التُّسعَ والعُشَرَ. كَذَا قَالَ فِي كِتابِ «غَرِيب المُصَنَّفِ».

وقَولُهُ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾: قَالَ مُجاهدٌ: لِكُلٍّ مِنهُمَا حَدٌّ لا يَعدُوهُ ولا يُقصِّرُ دُونَهُ، إِذَا جَاءَ سُلطانُ هَذَا ذَهبَ هَذَا، وإِذَا ذَهَبَ سُلطانُ هَذَا جَاءَ سُلطانُ هَذَا.

وقَولُهُ: ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ : يَقُولُ: لا يَنْبَغِي إذَا كَانَ اللَّيلُ أنْ يَكونَ لَيلٌ آخَرُ حتَّى يَكُون النَّهارُ، فَسُلطانُ الشَّمسِ بِالنَّهارِ، وسُلطَانُ القَمَرِ بِاللَّيلِ.

والمَعنَى فِي هَذَا: أنَّهُ لا فَترةَ بَيْنَ اللَّيل والنَّهار، بَل كُلٌّ مِنْهُمَا يَعقُبُ الآخَرَ بِلا مُهلةٍ ولا تَراخٍ؛ لأنَّهما مُسخَّرانِ دَائبينِ يَتطالَبَان طَلبًا حَثِيثًا.

وقَولُهُ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يَعنِي: اللَّيلُ والنَّهارُ، والشَّمسُ والقَمرُ، كُلُّهُم يَسبَحُونَ، أي: يَدُورُونَ فِي فَلَكِ السَّماءِ». ا.هـ[(١)].

العَلامة الثالثة والرابعة والخامسة: الخسوف الثلاثة:

وتقع هذه الخسوف الثلاثة في آخر الزمان بسبب فساد الناس، وكثرة العصيان.

وسيأتي الدليلُ على وقوع هذه الخسوف بعد قليل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

العلامة السادسة: النَّارُ التي تَسُوق الناسَ إلى مَحْشرهم:

أي إلى أرض المحشر، وهذه آخر العلامات التي تكون قبل قيام السّاعة.

قال السَّفَاريني في «منظومته»:

وآخِرُ الآيَاتِ حَشْرُ النَّار كما أتى في مُحْكَمِ الأَخْبار

وقد بيّنت الأحاديث «الصحيحة» أنها: نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى أرض المحشر:

عن حذيفة بن أسيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لن تقومَ السّاعةُ حتى تكون عَشْرُ آياتٍ: طُلوع الشّمس من مغربها، وخروج الدّابة، وخروج يَأْجُوج ومأجوج، والدّجَّال،

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٦٠ - ٦٦٤).

وعيسى ابن مريم، والدُّخَان، وثلاثة خُسُوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك: نارٌ تَخْرُج مِنَ اليمن من قَعْر عَدَن [١] تسوقُ النّاسَ إلى المَحشر» [٢].

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سَتَخْرجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْت - أو من نحو بَحْر حَضْرَمَوت - قبل يوم القيامة، تحشر الناس».

قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ فقال: «عليكم بالشام» [٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبيّ ﷺ قال: «تُبْعثُ نَارٌ على أَهْل المَشْرق فَتَحْشُرهم إلى المَغْرب تَبيتُ مَعَهم حيث باتوا، وَتَقِيل مَعَهم حَيْثُ قَالُوا، ويكونُ لها ما سَقَط مِنهم وتَخَلَّف [٤]، تسوقهم سَوْق الجمل الكَسِير» [٥].

قال الإمام النووي رحمه الله: «قال العلماء: وهذا الحشر في آخر الدنيا قبيل القيامة» ا.هـ [٦].

قلت: وفي هذا رَدٌّ على مَنْ قال: «أن النّار التي تخرج من قَعْر عَدَن هي نار من نار الفتن».

فهذا تأويل مردود كما ترى، ولا يساوي المداد الذي كُتِب به.

عباد الله ...

هذه بعض علامات القيامة الكبرى، نعتقد وقوعها اعتقادًا لا يعتريه شكٌّ ولا ريب.

والإيمان بوقوعها جزء من اعتقاد المسلم، وتعميق الإيمان له أثره في استقامة السلوك، بل له أثره في استقامة الباطن.

وللحديث بقية - إن شاء الله تعالى - فإلى اللّقاء.

اللهم اعطِنا إيمانًا صادقًا، ويقينًا ليس بعده كُفر
ورحمة ننال بها شرف كرامتِك في الدنيا والآخرة

---

(١) قعر عدن: أقصى أرضها.
(٢) **صحيح**: رواه أحمد ومسلم وغيرهما.
(٣) **صحيح**: «صحيح سنن الترمذي» (١٨٠٥).
(٤) أي: من سقط منهم وتخلّف، التهمته هذه النار.
(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٥٨)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.
(٦) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ١٩٥).

الخطبة الحادية والأربعون بعد المائة:

المهدي المنتظر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهناك مذاهب ثلاثة في أمر «المهدي المنتظر»:

المذهب الأول: مذهب أهل التحليل الفكري:

وهم الذين يعتمدون على الفلسفة الفكرية والتحليل العقلي، دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث والجهد العلمي، فينكرون كل ما يخالف أفكارهم لأنه لم يَرق لذوقهم، ويردّون جميع الأخبار والآثار الواردة في هذا الشأن، حتى ولو كانت صحيحة الأسانيد، لأنهم رأوا من المشعوذين والمضلّلين مَن يزعم أنه المهدي المنتظر، وعلى رأس هؤلاء «أحمد أمين» في كتابه «ضحى الإسلام» وغيره.

وهذا مذهبٌ باطل، لأنه يعتمد على الفكر وحده ولا يستند على الأسس العلمية الصَّحيحة.

الثاني: مذهب الباطنية وأهل التَّشيُّع:

وهم الذين يثبتون «المهدي» ويسردون فيه أحاديث لا زمام لها ولا خطام، ويعتقدون أنه هو «محمد بن الحسن العسكري» وقد وُلد وغاب (اختفى) وهو الآن مختفٍ في سرداب «سامراء» ولا يدري أحدٌ متى يخرج!! وهذا المذهب لا يعوّل عليه، لأنه يعتمد على الظنون والأوهام[١].

وهذا هو مذهب الشِّيعة الإمامية.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه القيم «المنار المنيف»[٢] عن اعتقاد الشيعة الاثنى عشرية - في المهدي - الذي هو عندهم «محمد بن الحسن العسكري»: «الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار الذي يُورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلًا من أكثر من خمسمائة سنة[٣]، فلم تره بعد ذَلِكَ عين ولم يُحَسَّ فيه بخبر ولا أثر وهم ينتظرونه كل يوم يقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا، اخرج يا مولانا، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه.

ولقد أحسن مَن قال:

ما آن للسرداب أن يلد الذي ... كلَّمتموه بجهلكم ما آنا؟

فعلى عُقُولِكُمُ العفاءُ فإنَّكُم ... ثَلَّثْتُمُ العَنقاءَ والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عارًا على بني آدم وضحكة يسخر منهم كل عاقل» ا.هـ.

قال الشيخ **محمد بيومي**: وهؤلاء المخابيل دينهم فيه من الكفريات ما فيه، ومن أراد الوقوف على حقيقة دينهم فليرجع إلى كتابهم الأقدس والمسمى «أصول الكافي» ففيه

---

(١) «المهدي وأشراط الساعة» للشيخ الصابوني (٩).
(٢) (١٥٢، ١٥٣).
(٣) هذا إلى زمن ابن القيم رحمه الله، أمَّا إلى زماننا فهو أكثر من ١٢٠٠ عامًا.

من الكفر الكثير.

والعجيب أنهم مختلفون في شأن مهديهم المزعوم اختلافًا شديدًا، ففي الوقت الذي يذكرونه في كتبهم على أَنَّهُ هو الإمام الثاني عشر لديهم، فهم أيضًا الذين يذكرون في كتبهم أن هذا المزعوم لا وجود له وأنه موهوم لم يولد أصلًا!!

فأيُّ الفريقين أحقُّ بالصدق آالذين يثبتونه أم الذين ينفونه؟!

يَقول **محمد رضا المظفَّر** تحت عنون «عقيدتنا في المهدي»: «إن الإمامية تعتقد أن هذا المصلح المهدي هو شخص معين معروف ولد سنة ٢٥٦هـ، ولا يزال حيًّا، هو ابن الحسن العسكري واسمه (محمد) وذلك بما ثبت عن النبي وآل البيت من الوعد به وما تواتر عندنا من ولادته واحتجابه، ولا يجوز أن تنقطع الإمامة وتحول من عصر من العصور، وإن كان الإمام مخفيًا، ليظهر في اليوم الموعود به من الله تعالى الذي هو من الأسرار الإلهية التي لا يعلم بها إلا هو تعالى، ولا يخلو من أن تكون حياته وبقاؤه هذه المدة الطويلة معجزة جعلها الله تعالى له، وليست هي بأعظم من معجزة أن يكون إمامًا للخلق وهو ابن خمس سنين يوم رحل والده إلى الرفيق الأعلى، ولا هي بأعظم من معجزة عيسى إذ كلَّم الناس في المهد صبيًا وبُعث في الناس نبيًّا» (١).

وتزعم الشيعة الإمامية أن هذا المهدي قد انقسمت غيبته في السرداب إلى مرحلتين: مرحلة تسمى بالغيبة الصغرى، والمرحلة الثانية تسمى بالغيبة الكبرى.

وفي غيبته الصغرى كان يقوم بإمامة شيعته!! عن طريق أربعة نواب كانوا يدخلون عليه في سردابه ويبلغون أقواله للناس!! وقد استمرت هذه المرحلة مدة سبعين سنة.

يقول «**محمد باقر الصدر**» في كتابه «بحث حول المهدي»: «إن الغيبة الصغرى تعبّر عن المرحلة الأولى من إمامة القائد المنتظر عليه الصلاة والسلام، فقد قدّر لهذا الإمام منذ تسلمه للإمامة أن يستتر عن المسرح العام ويظل بعيدًا باسمه عن الأحداث وإن كان قريبًا منها بقلبه وعقله، وقد لوحظ أن هذه الغيبة إذا جاءت مفاجأة حققت صدمة كبيرة للقواعد الشعبية للإمامية في الأمة الإسلامية، لأن هذه القواعد كانت معتادة على

---

(١) «عقائد الإمامية» محمد رضا المظفر (ص١٠٠، ١٠١) ط. مؤسسة الإمام الحسين.

الاتصال بالإمام في كل عصر والتفاعل معه والرجوع إليه في حل المشاكل المتنوعة، فإذا غاب الإمام عن شعيته فجأة وشعروا بالانقطاع عن قيادتهم الروحيّة والفكريّة سببت هذه الغيبة المفاجأة الإحساس بفراغ دفعي هائل قد يعصف بالكيان كله ويشتت شمله، فكان لابد من تمهيد لهذه الغيبة لكي تألفها هذه القواعد بالتدريج وتكيف نفسها شيئًا فشيئًا على أساسها، وكان هذا التمهيد هو الغيبة الصغرى التي اختفى فيها الإمام المهدي عن المسرح العام غير أَنَّهُ كان دائم الصلة بقواعده وشيعته عن طريق وكلائه ونوابه والثقات من أصحابه الذين يشكلون همزة الوصل بينه وبين الناس المؤمنين بخطه الإمامي، وقد أشغل مركز النيابة عن الإمام في هذه الفترة أربعة ممن أجمعت تلك القواعد على تقواهم وورعهم ونزاهتهم التي عاشوا ضمنها، وهم كما يلي:

١- عثمان بن سعيد العمري.

٢- محمد بن عثمان بن سعيد العمري

٣- أبو القاسم الحسن بن روح.

٤- أبو الحسن علي بن محمد السامري.

وقد مارس هؤلاء الأربعة مهام النيابة بالترتيب المذكور، وكلما مات أحدهم خلفه الآخر الذي يليه بتعيين من الإمام المهدي (ع).

وكان النائب يتصل بالشيعة ويحمل أسئلتهم إلى الإمام ويعرض مشاكلهم عليه، ويحمل إليهم أجوبته شفهية أحيانًا وتحريرية في كثير من الأحيان، وقد وجدت الجماهير التي فقدت رؤية إمامها العزاء والسلوة في هذه المراسلات والاتصالات غير المباشرة.

ولاحظت أن كل التوقيعات والرسائل كانت ترد من الإمام المهدي (ع) بخط واحد وسليقة واحدة طيلة نيابة النواب الأربعة التي استمرت حوالي سبعين عامًا، وكان السمري هو آخر النواب، فقد أعلن عن انتهاء مرحلة الغيبة الصغرى التي تتميز بنواب معينين، وابتداء الغيبة الكبرى التي لا يوجد فيها أشخاص معينون بالذات للوساطة بين الإمام القائد والشيعة، وقد عبَّر التحول من الغيبة الصغرى إلى الغيبة الكبرى عن تحقيق الغيبة الصغرى لأهدافها وانتهاء مهمتها لأنها حصَّنت الشيعة بهذه العملية التدريجية عن الصدمة والشعور بالفراغ الهائل بسبب غيبة الإمام، واستطاعت

أن تكيف وضع الشيعة على أساس الغيبة وتعدهم بالتدرج لتقبّل فكرة النيابة العامة عن الإمام، وبهذا تحولت النيابة من أفراد منصوصين إلى خط عام وهو خط المجتهد العادل البصير بأمور الدنيا والدين تبعًا لتحول الغيبة الصغرى إلى غيبة كبرى» [١].

هذا؛ ويَعتَبِرُ الخوميني نفسه نائبًا عن الإمام الثاني عشر والمتخفي في السرداب، وهذه النيابة أسماها الخميني بـ«ولاية الفقيه».

وقد صاغ الخميني هذه النظرية في كتابه المسمى «الحكومة الإسلامية» أو «ولاية الفقيه»، وتَخلُص هذه النظرية إلى أَنَّهُ نائب الإمام، كلامه ككلام الله تعالى، وأنَّ الراد لكلامه كالرّاد لكلام الله تعالى.

يقول الخميني: «وقد بحثنا أصل الموضوع وهو ولاية الفقيه أو الحكومة الإسلامية وتبيَّن لنا أن ما ثبت للرسول (ص) والأئمة (ع) فهو ثابت للفقيه ولاشك يعتري هذا الموضوع» [٢].

ويستدل الخميني على أن المراد على الفقيه راد على الله تعالى بما رواه في مروية عمر ابن حنظلة: مَن كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حَكمًا فإني قد جعلته عليكم حاكمًا، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا ردّ. والراد علينا راد على الله، وهو على حدّ الشرك بالله.

وعلّق الخميني بقلوه: ومن هذه الرواية عدّ المجتهد حاكمًا، وعدّ الرَّادّ عليه ردّ على الإمام والرَّد على الإمام ردّ على الله، والرَّاد على الله يقع في حدّ الشِّرك [٣].

وما قاله الخميني هو عين ما قاله محمد رضا المظفر في كتابه «عقائد الإمامية»، قال: «وعقيدتنا في المجتهد أَنَّهُ نائب للإمام في حال غيبته له ما للإمام والرَّاد عليه راد على الإمام، والرَّاد على الإمام رادّ على الله تعالى، وهو على حدّ الشِّرك بالله تعالى» [٤].

---

(١) «بحث حول المهدي» محمد باقر الصدر (٦٧ - ٧٠)، ط. دار المعارف للمطبوعات - بيروت، نقلًا عن «المهدي المنتظر.. وأدعياء المهدية» للشيخ محمد بيومي حفظه الله (٤٩، ٥٠).

(٢) «الحكومة الإسلامية» (ص٩٥).

(٣) «كشف الأسرار» للخميني (٢٠٧).

(٤) «عقائد الإمامية» محمد رضا المظفَّر (ص٥٧).

وفي عام ١٤٠٠ هجرية، ألقى الخميني خطبة بمناسبة عيد مولد المهدي المزعوم، وهذا الخطاب نشرته أكثر الصحف العربية ولم يصدر تكذيب رسمي من إيران على هذه المزاعم المجوسيَّة:

قال: «الأنبياء جميعًا جاءوا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم لكنهم لم ينجحوا، وحتى أن النبي محمدًا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشرية وتنفيذ العدالة لم ينجح في عهده، وإن الشخص الذي سينجح في ذَلِكَ ويرسي قواعد العدالة في أنحاء العالم ويقوّم الانحرافات هو الإمام المهدي المنتظر، وإن مسألة غيبة الإمام المهدي - عليه السلام أرواحنا له الفداء - هي مسألة هامة تعلمنا أشياء كثيرة، ومن بينهما أَنَّهُ لا يوجد في العالم أحد سواه من أجل تنفيذ العدالة بمعناها الحقيقي، وإن الله تعالى قد أبقاه ذخرًا من أجل البشرية».

ويضيف قائلًا: «إن الإمام المهدي عليه السلام سيعمل على نشر العدالة في جميع أنحاء العالم وسينجح فيما فشل في تحقيقه الأنبياء والأولياء بسبب العراقيل التي كانت في طريقهم، وأن السبب الذي أطال الله سُبْحَانَهُ وتعالى من أجله عُمر الإمام المهدي عليه السلام هو أَنَّهُ لم يكن بين البشرية من يستطيع القيام بمثل هذا العمل الكبير حتى الأنبياء والأولياء وأجداد الإمام المهدي عليه السلام لم ينجحوا في تحقيق ما جاءوا من أجله، ولو كان الإمام المهدي عليه السلام التحق بجوار ربه لما كان أحد بين البشر لإرساء العدالة وتنفيذها في العالم».

ويقول - عليه من الله ما يستحق - : «إن هذا العيد الذي هو عيد كبير بالنسبة للمسلمين أكبر من ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام» [1].

وبعد كل هذا الغلو من الشيعة في المهدي المزعوم، أذكر ما قاله الشيعة أنفسهم في نفي وجود هذا المزعوم: «يروون عن أحمد بن عبيد الله بن خاقان أَنَّهُ قال في قصة طويلة أنَّ الحسن العسكري لما اعتل بعث السلطان إلى أبيه أن ابن الرضا قد اعتلّ، فركب من ساعته فبادر إلى دار الخلافة ثم رجع مستعجلًا ومعه خمسة من خدم أمير المؤمنين كلهم

(١) انظر «الخميني وتفضيل الأئمة على الأنبياء» محمد مال الله (ص٢٤ - ٢٦).

من ثقاته وخاصته، فيهم «نحرير» فأمرهم بالاختلاف إليه وتعاهده صباحًا ومساءً، فلما كان بعد ذَلِكَ بيومين أو ثلاثة أخبر أَنَّهُ قد ضعف، فأمر المتطببين بلزوم داره، وبعث إلى قاضي القضاة فأحضره مجلسه وأمره أن يختار من أصحابه عشرة ممن يوثق به في دينه وأمانته وورعه، فأحضرهم فبعث بهم إلى دار الحسن وأمرهم بلزومه ليلًا ونهارًا، فلم يزالوا هناك حتى توفى عليه السلام فصارت سر من رأى ضجة واحدة، وبعث السلطان إلى داره مَن فتشها وفتّش حجرها وختم على جميع ما فيها، وطلبوا أثر ولده وجاءوا بنساء يعرفن الحمل، فدخلن إلى جواريه ينظرن إليهن، فذكر بعضهن أنَّ هناك جارية بها حمل، فجعلت في حجرة ووكّل بها «نحرير» الخادم وأصحابه ونسوة معهم، ثم أخذوا بعد ذَلِكَ في تهيئته، وعطلت الأسواق وركبت بنو هاشم والقوَّاد وأبي وسائر الناس إلى جنازته، فكانت سر من رأى يومئذٍ شبيهًا بالقيامة، فلما فرغوا من تهيئته بعث السلطان إلى أبي عيسي بن المتوكل فأمره بالصلاة عليه، فلما وضعت الجنازة للصلاة عليه دنا أبو عيسى منه فكشف عن وجهه فعرضه على بني هاشم من العلوية والعباسية والقوَّاد والكتَّاب والقضاة والمعدلين وقال: هذا الحسن بن علي بن محمد بن الرضا مات حتف أنفه على فراشه، حضره من حضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته فلان وفلان، ومن القضاة فلان وفلان، ومن المتطببين فلان وفلان، ثم غطَّى وجهه وأمر بحمله، فحُمل من وسط داره ودُفن في البيت الذي دُفن فيه أبوه.

لما دُفن أخذ السلطان والناس في طلب ولده وكثر التفتيش في المنازل والدُّور وتوقفوا على قسمة ميراثه ولم يزل الذين وكَّلوا بحفظ الجارية التي توَّهم عليها الحمل لازمين حتى تبيَّن بطلان الحمل، فلما بطل الحمل عنهن قُسّم ميراثه بين أُمّه وأخيه جعفر، وادعت أمه وصيته، وثبت ذَلِكَ عند القاضي[1].

وهذه الرواية التي ذكرها جميع مؤرخي الشيعة ومؤلفيها ومحدثيها تهدم ما أراد بنائه على الأساطير والقصص من ولادة الإمام الثاني عشر ونشأته وإمامته، وأن لا يكون كذلك فهم لا يريدون من ذكر هذه الروايات وثبتها إلا إهانته وإيذاءه حيث

---

(١) كتاب «الحجة من الكافي» (ص٥٠٥).

ينسبونه إلى عدم الوجود والولادة وهو مولود وموجود، فالعدل، العدل.

ولقد كتب المفيد وغيره: «فلم يظهر ولده في حياته، ولا عرفه الجمهور بعد وفاته وتولى جعفر بن علي أخو أبي محمد (ع) وأخذ تركته وسعى في حبس جواري أبي محمد واعتقال حلائله... وحاز جعفر ظاهرًا تركة أبي محمد عليه السلام واجتهد في القيام عند الشيعة مقامه»[١].

فهذا هو الثاني عشر[٢] والمهدي عند الشيعة، خرافة نسجوها ثم انتظروها، وآخرون منهم نفوها» ا.هـ[٣].

عباد الله ...

والمذهب الثالث: مذهب أهل السُّنَّة والجماعة:

وهم الذين يعتمدون على الروايات الصحيحة الثابتة بأسانيد موثوقة عن رسول الله ﷺ أو عن الصَّحابة والتابعين، وبالطرق العلمية السليمة التي تقوم على الحجّة والبرهان، ولا تعارض الفكر والعقل السليم.

هذا؛ وحول الأحاديث الواردة في شأن المهدي:

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله - : «والأحاديث الواردة في «المهدي» التي أمكن الوقوف عليها خمسون، فيها الصحيح، والحسن، والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها على جميع الاصطلاحات المحرّرة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرّحة بالمهدي فهي كثيرة أيضًا، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك» ا.هـ.

قُلت: ومن الأحاديث الصحيحة الثابتة المصرّحة بظهور المهدي:

١ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ العَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي**»[٤].

---

(١) «الإرشاد» للمفيد (ص ٣٨٠).
(٢) نقلًا عن «الشيعة وأهل البيت» إحسان إلهي ظهير (٢٩٠ - ٢٩٦).
(٣) «المهدي المنتظر.. وأدعياء المهدية» للشيخ محمد بيومي (٢٥- ٥٥).
(٤) حسن: رواه الترمذي، وانظر «المشكاة» (٣/ ٢٤).

٢- وعَنْ عَلِيٍّ بن أبي طَالب - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**المَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ، يُصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ**»[١].

٣- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِي اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**المَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ**»[٢].

٤- وعَنْ عَلِيٍّ - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قَال: قال رَسولُ الله ﷺ: «**لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ يَوْمٌ لَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلأُهَا عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا**»[٣].

٥- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**المَهْدِيُّ مِنِّي، أَجْلَى الجَبْهَةِ، أَقْنَى الأَنْفِ**[٤] **يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ**»[٥].

٦- وعنه - أيضًا - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَخْرُجُ فِي أُمَّتِي المهدي، يسقيه الله الغَيث، وتُخرج الأرضُ نَباتَها، ويَعطى المال صِحاحًا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سَبعًا أو ثمانيًا**» يعني حِججًا[٦].

٧- وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسعودٍ - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رَسولُ الله ﷺ: «**لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ اليَوْمَ، حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلاً مِنِّي - أو مِن أهل بَيْتِي**[٧] **- يُوَاطِئُ**[٨] **اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي، يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وظُلْمًا**»[٩].

هذه بعض الأحاديث الثابتة في «المهدي».

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٦/ ٢٢).
(٢) **صحيح**: رواه أبو داود وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٦/ ٢٢).
(٣) **صحيح**: رواه أحمد وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٥١٨١).
(٤) **أقنى الأنف**: طويل الأنف.
(٥) **حسن**: رواه أبو داود، وانظر «المشكاة» (٣/ ٢٤).
(٦) رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبيّ وابن خلدون.
(٧) شك الراوي.
(٨) **يواطئ**: يوافق.
(٩) **صحيح**: رواه أبو داود، وانظر «صحيح الجامع» (٥١٨٠).

وبالجملة؛ فينبغي على كل مسلم أن يعتقد أنَّ منازعة الأحاديث الصحيحة وردَّها بالعقل خطر كبير، وشرٌّ عريض.

قال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - : «كلَّما جاء عَن النَّبيّ ﷺ إسناد جيِّد أقررنا به، وإذا لم نقرّ بما جاء به الرسول ودفعناه ورددناه، رددنا على الله أمره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] [١].

وقال **الإمام ابن قدامة المقدسيّ** رحمه الله في كتابه «لمعة الاعتقاد»: «ويجب الإيمان بكل ما أخبر به رسول الله ﷺ وصحّ به النقل عنه فيما شهدناه أو غاب عنا، نعلم أنَّهُ حقّ وصدق، وسواء في ذَلِكَ ما عقلناه وجهلناه ولم نطَّلع على حقيقة معناه، مثل: حديث الإسراء والمعراج، ومن ذَلِكَ أشراط الساعة، مثل: خروج الدَّجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، فيقتله، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدَّابة، وطلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذَلِكَ ممَّا صحّ به النقل» ا.هـ.

وقال الشيخ العلامة **عبد العزيز بن باز** - رحمه الله - : «أما إنكار المهدي المنتظر بالكليّة كما زعم ذَلِكَ بعض المتأخرين فهو قولٌ باطل، لأن أحاديث خروجه في آخر الزمان، وأنه يملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما مُلئت جورًا، قد تواترت تواترًا معنويًا، وكثرت جدًّا واستفاضت كما صرح بذلك جماعة من العلماء بينهم أبو الحسن الآبري السجستاني من علماء القرن الرابع، والعلَّامة السفارينيّ، والعلَّامة الشوكانيّ وغيرهم، وهو كالإجماع من أهل العلم، ولكن لا يجوز الجزم بأن فلانًا هو المهدي إلَّا بعد توافر العلامات التي بيَّنها النَّبي ﷺ في الأحاديث الثابتة، وأعظمها وأوضحها: كونه يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مئلت جورًا وظلمًا» ا.هـ[٢].

وقال الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية سابقًا، وعضو جماعة كبار العلماء بالأزهر: «... وننصح المسلمين بأن يتقبَّلوا الأحاديث الصحيحة بقلوب مطمئنة ويؤمنوا بظهور المهدي في آخر الزمان إيمانًا صحيحًا، ويتركوا الأقوال التي تهدم هذه

---

(١) «إتحاف الجماعة» للتويجري (١/ ٦).

(٢) «جريدة عكاظ» ١٨ محرم ١٤٠٠هـ.

الأحاديث لصدورها ممن لا علم لهم بالأحاديث، بل لا تقدير لها ولا عقيدة عندهم بوجودها» ا.هـ[١].

عباد الله ...

وهناك شبهات ثارت حول ظهور المهدي، نذكر هنا بعضها، وردّ العلماء عليها[٢]:

الشبهة الأولى:

وهي احتجاجهم على تكذيب الأحاديث الصحيحة الواردة في شأن المهدي بحديث أخرجه ابن ماجه والحاكم عن أنسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وفيه: «... **ولا مهدي إلَّا عيسى ابن مريم**».

والجواب: أن هذا الحديث تفرد به ابن ماجه[٣] دون سائر السِّتة، ورواه الحاكم عن أنس[٤]، وقال عقب روايته له: «إنما ذكرت هذا الحديث تعجبًا، لا محتجًّا به في المستدرك على الشيخين رضي الله عنهما».

وقال الذهبي في «الميزان»: منكر. وضعفه البيهقي كما في «عون المعبود»، وقال الهيثمي: معلول. وقال الصنعاني: موضوع.

وممن ضعَّفه أيضًا: الأَبُرِّيُّ والقُرطبيّ وابن تيمية وابن القيِّم وغيرهم.

ولا يُتكلَّفُ الجوابُ عن الحديث حتى يكون صحيحًا، والباطل يكفي في ردِّه كونه باطلًا[٥]، والله أعلم.

قال الإمام المحقق **ابن قيم الجوزية** رحمه الله تعالى: «فأما حديث: «**لا مهدي إلا عيسى ابن مريم**» فرواه ابن ماجه في سننه عن يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي عن محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح عن الحسن عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ،

(١) انظر كتابه «سيد البشر يتحدث عن المهدي المنتظر».

(٢) انظر «المهدي المنتظر وأدعياء المهدية» للشيخ محمد بيومي (٤٢ - ٤٧) باختصار شديد.

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢/ ٤٩٥).

(٤) «المستدرك» (٤/ ٤٤١).

(٥) **أقول** (سعد): والتأويل فرع التصحيح.

وهو مما تفرد به محمد بن خالد، قال أبو الحسن محمد بن الحسين الآبري في كتاب «مناقب الشافعي»: محمد بن خالد هذا غير معروف عند أهل الصناعة من أهل العلم والنقل، وقد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله ﷺ بذكر المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلًا، وأن عيسى يخرج فيساعده على قتال الدَّجال، وأنه يؤم هذه الأُمّة، ويصلي عيسى خلفه».

قال القرطبيّ: ويحتمل أن يكون قوله عليه السلام «**ولا مهدي إلَّا عيسى**» أي: لا مهديَّ كاملًا معصومًا إلَّا عيسى، قال: وعلى هذا تجتمع الأحاديث، ويرتفع التعارض - قال ابن كثير: «هذا الحديث فيما يظهر ببادئ الرأي» - مخالف للأحاديث الواردة في إثبات مهديٍّ غير عيسى ابن مريم، وعند التأمل لا ينافيها، بل يكون المراد من ذَلِكَ أن المهدي حقَّ المهديَّ هو عيسى، ولا ينفي ذَلِكَ أن يكون غيره مهديًا أيضًا»[1]. ا.هـ. من الحاوي للفتاوى للسيوطي.

الشبهة الثانية:

وهي قولهم: «كيف يملأ المهدي الأرض عَدلًا بعد أن مُلئت جُورًا في سبع سنين فقط، وهذا رسول الله ﷺ مكث ثلاثًا وعشرين سنة يُجاهد ويدعو إلى الله وما ملأ الأرض كلها عدلًا؟».

والجواب بمعونة الملك الوهاب:

أولًا: أن الله تعالى قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [الحجرات: ١]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم: ٣، ٤].

وكُل ما ثبت عن النَّبي ﷺ أَنَّهُ أخبر به فالواجب تصديقه، وأن لا يُبدِ المسلم في نفسه حرجًا مما أخبر به رسول الله ﷺ، وأن لا يعارض خبره بـ«كيف»؟ ولِمَ؟ وهل؟ فإن هذا عنوان فساد العقيدة، قال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) «نهاية البداية والنهاية» (١/ ٤٥)، وهذا إن صحّ الحديث.

ثانيًا: أن الله تبارك وتعالى إذا أراد أمرًا هيَّأ أسبابه، ويسَّر الوصول إليه، وهذا أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قد ملأ الأرض قسطًا وعدلًا في عشر سنين، وقد كانت قبل انتشار الإسلام في خلافته قد مُلئت ظلمًا وجورًا، وهذا عُمر بن عبد العزيز قد ملأ الأرض قسطًا وعدلًا في سنتين وخمسة أشهر، وأخبر النَّبي ﷺ أنَّ المهدي يملأ الأرض قسطًا وعدلًا في سبع سنين، وخبر الصادق المصدوق ﷺ واقع لا محالة، ولا يستبعد وقوعه إلَّا مَن يشك في عموم قدرة الرَّب تبارك وتعالى، ونفوذ مشيئته، أو يشك في صدق النَّبي ﷺ فيما أخبر به.

ثالثًا: أنَّ المهدي سيهيئه الله ويُعِدُّه لتجديد الدين بأن يصلحه في ليلة، ثم يؤيده الله تعالى بكرامةٍ خارقةٍ للعادة، وهي أن يُخسفَ بالجيش الذي يقصده حينها يعوذ بالبيت الحرام فلعلّ هذا أحد أسباب التمكين له في الأرض، وليجزم الناس بعدئذٍ بأنه المهدي الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ حقًّا وصدقًا.

رابعًا: ومِن المعلوم أن ثمار دعوة الأنبياء وآثارها في العالمين أحد أعلام نبوتهم، وكل ما وقع في هذه الأرض من آثار نبوة رسول الله ﷺ من العدل والرحمة والخير إنما هو من أعلام نبوته ﷺ، وكل ما يأتي الناس من خير بسبب بركة الإسلام إنما المتسبب الأول فيه من البشر هو رسول الله ﷺ فما وقع من الخلفاء الراشدين وما سيقع بإذن الله من المهدي إنما هو أثر من آثار نبوة رسول الله ﷺ وثمرة من ثمرات بعثته المباركة.

ومن هذا يتضح الجواب عن قول من غلظ حجابه، فتوهَّم أنَّ في التصديق بأن المهدي سيملأ الأرض عدلًا في سبع سنين تفضيلًا له على رسول الله ﷺ، فرد الحديث لذلك:

وكم عائبٍ قولاً صحيحًا وآفَتُهُ من الفهمِ السَّقيم

فالمهدي يوافق اسمُه اسمَه ﷺ، ويوافق رسمُه رسمه؛ لأنه محمد المهدي، وبِهَدي رَسُول الله ﷺ يَهدي» ا.هـ.

الشبهة الثالثة:

أوَّل بعضُهم الأحاديث التي صحّت بشأن ظهور المهدي بأنَّ المقصود بالمهدي المذكور فيها: رمز الخير والصلاح والهدى!!

والجواب: وهذا تأويل فاسد، لأن الأحاديث ذكرت اسمه، ووصفه، وأنه يملك سبع سنين.

فاللَّهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطل وارزقنا اجتنابه

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وأما عن وقت ظهوره، فقد دلَّت الأخبار الصريحة أن ظهوره سيكون عند نزول المسيح عليه السلام.

قال العلَّامة **ابن باز** رحمه الله: «قال ابن كثير في «الفتن والملاحم»: أظنه يكون عند نزول المسيح، والحديث الذي رواه الحارث بن أبي أسامة يرشد إلى هذا ويدل عليه، لأنه قال: «أميرهم المهدي»». فهو يرشد إلى أن يكون عند نزول عيسى ابن مريم، كما يرشد إليه بعضُ روايات مسلم، وبعض الروايات الأخرى، ولكن ليست بالصريحة، فهذا هو الأقوم والأظهر، ولكنه ليس بالأمر القطعي» ا.هـ[١].

قلت: والحديث الذي أشار إليه العلامة ابن باز رحمه الله رواه جابر بن عبد الله - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قال: قال رَسُول الله ﷺ: «... **فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ بِنَا. فَيَقُولُ: لاَ إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الأُمَّةَ**»[٢].

عباد الله ...

ومما سبق يتبيَّن:

- أنَّ ظهور المهدي ثابت بالأحاديث والأخبار الصحيحة.
- وأنَّ ظهوره قُرب قيام الساعة.

---

(١) «الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي» للشيخ عبد المحسن العبّاد (١٦٠).
(٢) **إسناده جيد**: كذا قال ابن القيم في «المنار المنيف».

- وأنَّ اسمه يواطئ اسم النبي ﷺ.
- وأنه من ولد فاطمة - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهَا -.
- وأنَّ عيسى عليه السلام سيقدّمه للصلاة بالمسلمين.
- وأنَّه أجلى الجبهة، وأقنى الأنف.
- وأنَّ الله تعالى يسقيه الغيث، وتُخرج الأرض يومئذٍ نباتها، ويُعطى المال صحاحًا، وتكثر الماشية، وتعظم الأُمّة.
- وأنَّه سيملأ الأرض عدلًا وقسطًا، كما مُلئت جَورًا وظلمًا.
- وأنه سيعيش سبعًا أو ثمانيًا - يعني حِججًا.

هذه أوصافه، وهذا وقت ظهوره، وعلى ما تقدم، فمن توفّر فيه ما سبق فهو «المهدي المنتظر» ومَن لم يتصف بما ذُكر فهو كذَّاب أشِر.

هذا، وعلى الله قصد السبيل.



الخطبة الثانية والأربعون بعد المائة:

نزول عيسى عليه السلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَعن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ» (١).

عباد الله ...

إن نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان ثابت بالكتاب والسُّنَّة.

(١) رواه مسلم (٢٤٢ / ١٥٥) في «كتاب الإيمان».

فمن الكتاب:

١ - قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩].

قال قَتادة وابن زيد وغيرهما: والمعنى: ليؤمنن به مَن كان حيًّا حين نزوله يوم القيامة. واختاره الطبريّ[١].

قلت: وهذا هو الصَّحيح في تفسير الآية، فعن أبي هُريرة عَن النَّبيّ ﷺ أنَّهُ قال: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

ثُمَّ قال أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾.

قال أبو هريرة: قبل موت عيسى، يعيدها ثلاث مرات[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١].

قال ابن عباس ومجاهد والضَّحاك والسُّدِّي وقَتادة: إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام السَّاعة[٣].

ومن السُّنة:

١- عَن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قَال: سَمِعْتُ النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» قَالَ: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لاَ، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الأُمَّةَ»[٤].

٢- وعَن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟»[٥].

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٧٤).
(٢) رواه مسلم (٢٤٢) (١٥٥).
(٣) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٩٧).
(٤) رواه مسلم (٢٤٧).
(٥) رواه مسلم (٢٤٤).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وسيأتي المزيد منها بعد قليل إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن عيسى عليه السلام لما تآمر عليه اليهود وحاولوا قتله، لم يمكّنهم الله تعالى من ذَلِكَ ورفعه إليه بعد أن ألقى شبهه على بعض أتباعه.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٩].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال ابن كثير رحمه الله في «البداية»: «أخبر تعالى أَنَّهُ رفعه إلى السماء بعد ما توفّاه بالنوم على الصَّحيح المقطوع به» ا.هـ.

وقال الحسن وابن جريج: معنى ﴿مُتَوَفِّيك﴾ قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، مثل: توفيت مالي من فلان، أي: قبضته.

قلت: والموت يطلق على النوم، لذا كان من هدي النبيّ ﷺ عند الاستيقاظ من النوم: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»[(١)].

وقال الربيع بن أنس: وهي وفاة نوم، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. أي: يُنيِّمكُم، لأن النوم أخو الموت.

ورُفع عليه السَّلام إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

أمَّا عن كيفية حياته في السماء، فقال بعض العلماء: إنها حياة خاصة، كما قال تعالى عن الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ثم أخبر الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ أَنَّهُ سينزل آخر الزمان، عندما

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

تشتدّ فتنةُ المسيح الدَّجال، ويضيق الأمر بالمسلمين في ذَلِكَ الزمان.

وأخبر المعصوم ﷺ أن نزوله عليه السلام سيكون عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، فعن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق**»(١).

ثم نعته لنا فقال ﷺ: «**لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ - يَعْنِي عِيسَى - وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ...**»(٢).

ثم أخبرنا ﷺ أن نزوله سيكون عند اصطفاف المسلمين لصلاة الفجر، وتَقَدُّم إمامُهم للصلاة، فإذا رآه إمامُ المسلمين عَرفه فيتأخّر ليقدّمه إمامًا، فيأبى المسيحُ قائلًا: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، وقد تقدَّم ذَلِكَ قريبًا.

هذا، وأوّل عمل يقوم به عيسى عليه السلام هو مواجهة الدَّجال، فبعد نزوله يتوجّه إلى بيت المقدس حيث يكون الدَّجال محاصرًا عصابة المسلمين، فيأمرهم عيسى بفتح الباب، قال ﷺ: «**فإذا انصرَف**» - يعني من صلاته - «**قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتحون، ووراءه الدَّجالُ معه سبعون ألف يهودي، كلّهم ذو سَيف مُحلّى وساج، فإذا نظر إليه الدَّجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هاربًا، فيدركه عند باب لُدٍّ الشّرقي، فيقتله، فيهزم الله اليهود**»(٣).

والسّر في ذوبان الدَّجالُ أنَّ الله أعطى لنفس عيسى رائحة خاصة إذا وجدها الكافر مات منها، قال ﷺ: «**فَلَا يحلّ لكافرٍ ريحَ نَفَسِه إلَّا مات**»(٤).

عباد الله ...

ومما سبق يتبيَّن لنا:

أنَّ المسيح عليه السلام سينزل بيقين، وتكون مهمته:

---

(١) صحيح: رواه الطبراني، وانظر «صحيح الجامع» (٨٠٢٥).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وانظر «صحيح الجامع» (٥٢٦٥).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٧٧٥٢).

(٤) رواه مسلم، ونظر قصة «المسيح الدجال».

- الحكم بشريعة النبيّ ﷺ.
- إقامة العدل.
- وضع الجزية.
- كسر الصليب.
- قتل الدَّجّال.
- قتل الخنزير.
- إقامة الحجّة على النَّصارى.
- والدعاء على يأجوج ومأجوج.

هذا؛ وقبل أن نأتي إلى ختام الخطبة الأولى، أُحبّ أن أنبِّه إلى شيء مهم، وهو أن فضيلة العلَّامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله ذكر في كتابه «شرح عقيدة أهل السُّنة والجماعة»[1]: أنَّ عيسى عليه السلام يأتي - يعني آخر الزمان - مكمّلًا لرسالة الرسول ﷺ.

وهذا إما أن يكون سَبق لسان[2]، وإمَّا أن يكون تصحيف سماع مِمَّن فرغ دروس الشيخ رحمه الله، فالمقطوع به: أن الدين كَمُل بفضل الله تعالى، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال القاسمي رحمه الله في تفسيره هذه الآية: «بين تعالى أكبر نعمه وأعظم مننه على هذه الأمة وهو: إكماله لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحلّه، ولا حرام إلا ما حرّمه، ولا دين إلا ما شرعه. فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة. ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يعني أحكامه وفرائضه، فلا زيادة بعده. ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام. هذا ما روي عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير وقتادة: معنى «الإكمال» أنه لم يحج معهم مشرك.

---

(١) (ص٢٨).

(٢) لأن الشيخ رحمه الله لا يخفى عليه أن الله أكمل الدين.

وخلا الموسم لرسول الله ﷺ وللمسلمين. وقيل: معناه كفايتهم أمر العدوّ، وجعل اليد العليا لهم، كما تقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد، إذا كفوا من ينازعهم. وبما ذكرنا أولاً - من أن المراد بالإكمال عدم الزيادة - يندفع ما يتوهم من ثبوت النقص أولاً.

ولذا قال ابن الأنباريّ «في الآية»: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت. وذلك أنّ الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشيء في وقت ثم يزيد عليه في وقت آخر. فيكون الوقت الأول تامًّا في وقته، وكذلك الوقت الثاني تامًّا في وقته. فهو كما يقول القائل: عندي عشرة كاملة، ومعلوم أنّ العشرين أكمل منها.

والشرائع التي تعبد الله ﷻ بها عباده، في الأوقات المختلفة، مختلفة. وكل شريعة منها كاملة في وقت التبعّد بها. فكمل الله ﷻ الشرائع في اليوم الذي ذكره - وهو يوم عرفة - ولم يوجب ذلك، أنّ الدين كان ناقصًا في وقت من الأوقات.

وللإمام القفّال نحو ذلك، نقله عنه **الرازيّ** واختاره، قال: إنّ الدين ما كان ناقصًا البتة، بل كان أبدًا كاملاً. يعني: كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت. إلا أنه تعالى كان عالمًا في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا صلاح فيه. فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت. وكان يزيد بعد العدم. وأما في آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعة كاملة، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فالشرع أبدًا كان كاملاً. إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص. والثاني كمال إلى يوم القيامة. فلأجل هذا قال: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾.

﴿**وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**﴾ يعني: بإكمال الدين والشريعة. لأنه لا نعمة أتمّ من نعمة الإسلام. أو بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين. وهدم منار الجاهلية ومناسكهم، وإن لم يحج معكم مشرك، ولم يطف بالبيت عريان. أو بإنجاز ما وعدهم بقوله: ﴿**وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٠] فكان من تمام النعمة فتح مكة وما ذكرناه.

﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ يعني: اخترته لكم من بين الأديان، وآذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده. ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٨٥] أو معناه: الانقياد لأمري فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين

الذي أكملته لكم. ومعلوم أن الإسلام لم يزل مرضيًا للحق تعالى منذ القدم، إلا أن المعني به، في الآية، الصفة التي هو اليوم بها. وهي نهاية الكمال والبلوغ به أقصى درجاته. أي: فالزموه ولا تفارقوه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩] (١).

عباد الله ...

ولقد روى الإمام أحمد والشيخان وغيرهم عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرءون آيةً في كتابكم، لو علينا، معشر اليهود، نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: وأيّ آية؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. فقال عمر: والله! إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ثم ماذا؟

ثم يعيش الناسُ مُدة بقائه في رَغدٍ من العيش، وبحبوحة من الرِّزق.

قال ﷺ: **«طوبى لِعَيشٍ بعد المسيح، يُؤذن للسَّماء في القَطر، ويؤذن للأرض في النَّبات، حتى لو بَذرتَ حَبَّكَ على الصَّفا لَنَبتَ، وحتَّى يمرّ الرجلُ على الأسَدِ فلا يَضرّه، ويطأ على الحيَّة فلا تَضرَّهُ، ولا تشاحَّ، ولا تحاسد، ولا تباغض»** (٢).

ومدّة بقاء المسيح عليه السلام في الأرض أربعون عامًا.

(١) «تفسير القاسمي» (٤/ ٣٦، ٣٧).

(٢) **صحيح**: رواه الضياء المقدسي وغيره، وانظر «الصحيحة» (١٩٢٦)، **والصفا**: الحَجَر.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يُتَوفَّى، ويُصلِّى عليه المسلمون**» [(١)].

وفي خلال هذه المدة يحجّ إلى بيت الله الحرام ويعتمر.

فعَن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قال: قال رَسولُ الله ﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا**» [(٢)].

وبهذا تنتهي أكبرُ ملحمة يشهدها العالم قُبيل قيام الساعة.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وانظر «صحيح الجامع» (٥٢٦٥).

(٢) رواه مسلم وغيره، والروحاء: مكان بين المدينة ووادي الصفراء في طريق مكة.

الخطبة الثالثة والأربعون بعد المائة:

ذكر قصتي: المسيح الدجال، ويأجوج ومأجوج

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَعَنْ النَّوَّاس بنِ سَمعَانَ الكِلابِيِّ رضي الله عنه قال: ذَكَرَ رَسُولُ الله ﷺ الدَّجَّالَ، الغَدَاةَ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنا إلى رَسُولِ الله ﷺ، عَرَفَ ذَلِكَ فِينا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» فَقُلنا: يَا رَسُولَ الله! ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ الغَدَاةَ فَخَفَضْتَ فِيهِ ثُمَّ رَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ فِي طَائِفَةِ النَّخلِ قَالَ: «غَيرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُني عَلَيْكُمْ: إِنْ يَخْرُج وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ، وَلَستُ فِيكُمْ، فامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، والله خَلِيفَتي عَلَى كُلِّ مُسِلم، إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ [١] عَيْنُهُ قَائِمَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبدِ العُزَّى

(١) قطط؛ أي: شديد جعودة الشَّعْر.

ابنِ قَطَنٍ، فَمَنْ رَآهُ مِنكُمْ، فَليَقرأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ، إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ والعِرَاقِ[١]، فَعَاثَ[٢] يَمِينًا، وَعَاثَ شِمالاً يَا عِبَادَ اللهِ! اثْبُتُوا».

قُلنا: يا رَسُولَ الله! وَمَا لُبْثُهُ فِي الأَرضِ؟

قال: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يُومٌ كَسَنَةٍ، وَيَوِمٌ كَشَهْرٍ، ويَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ».

قُلنا: يَا رسُولَ الله! فَذَلِكَ اليَومُ الَّذي كَسَنَةٍ، تكْفِينا فِيهِ صَلاةُ يومٍ؟

قَالَ: «فاقدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ».

قَالَ: قُلنا: فَما إِسرَاعُهُ فِي الأَرضِ؟

قال: «كَالغَيثِ استَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ»، قَالَ: «فَيَأْتِي القَومَ فَيَدعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَيُؤمِنُونَ بِهِ، فَيَأْمُرُ السَّماءَ أَن تُمطِرَ فَتُمطِرَ وَيأمُرُ الأَرْضَ أَن تُنبِتَ فَتُنبِتَ، وَتَرُوحُ عَلَيهِمْ سَارِحَتُهُمْ[٣] أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرىً وَأَسبغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي القَوْمَ فَيعدُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيهِ قولَهُ، فَينصَرِفُ عَنهُمْ فَيُصبِحُونَ مُمْحِلِينَ، مَا بِأَيْدِيهِمْ شَيءٌ ثُمَّ يَمُرَّ بِالخَرِبَةِ فَيَقُولُ لها: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَينطَلِقُ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُها كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ[٤]، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمتَلِئًا شَبابًا، فَيَضرِبُهُ بِالسَّيفِ ضَربَةً، فَيَقطَعُهُ جِزلَتَينِ[٥] رَمْيَةَ الغَرَضِ[٦]، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقبِلُ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ، فَبَينما هُمْ كَذَلِكَ، إِذ بَعَثَ اللهُ عِيسى ابنَ مَريَمَ فَيَنزِلُ عِندَ المَنَارَةِ البَيْضَاءَ، شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ[٧]، وَاضِعًا كَفَّيهِ عَلى أَجنِحَةِ مَلَكَينِ، إذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ يَنْحَدِرُ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤلُؤِ، وَلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفسِهِ إِلاَّ مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ، فَنَطَلِقُ حَتَّى يُدْرِكَه عِندَ بَابِ لُدٍّ[٨]، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يأتِي نَبيُّ اللهِ عِيسى عليه السلام قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ الله، فَيَمسَحُ وُجُوهَهُمْ وَيُحدِّثُهُم بِدَرَجَاتِهِم فِي

---

(١) الخلَّة: ما بين البلدين.

(٢) العيث: أشدّ الفساد.

(٣) السارحة: الماشية.

(٤) يعاسيب النَّحل: ذكورها.

(٥) جزلتين: قطعتين.

(٦) أي: أنه يجعل بين الجزلتين مقدار رميته.

(٧) مَهْرُودَتان؛ أي: ثوبان مصبوغان بِوَرس ثم بَزَعفران.

(٨) بلد معروفة الآن في فلسطين، قريبة من بيت المقدس.

الجَنَّةِ، فَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ إِذ أَوْحَىَ اللهُ إِلَيهِ: يا عِيسى! إِنِّي قَد أَخْرَجْتُ عِبادًا لِي لا يَدَانِ لإِحَدٍ بِقِتَاهِم وَأَحرِزْ عِبَادي إِلى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُم كَما قَالَ اللهُ: ﴿مِن كُل حَدب ينسلون﴾ [(١)]، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلى بُحيرةِ الطَّبَرِيَّةِ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيها ثُمَّ يَمُرُّ آخِرُهُم فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ فِي هذا مَاءٌ مرةً، وَيُحْضَرُ نَبيُّ اللهِ عِيسى وَأَصحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّورِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَار لأَحَدِكُمُ اليَوْمَ، فيَرْغَبُ نَبيُّ اللهِ عِيسى وَأَصحَابُهُ إِلى اللهِ، فَيُرسِلُ اللهُ عَلَيهِمُ النَّغَفَ [(٢)] فِي رِقَابِهِم فَيُصبِحُونَ فَرْسَى [(٣)] كَمَوتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَيَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عيسى وَأَصحابُهُ فَلا يَجِدُونَ مَوْضِعَ شَبرٍ إِلاَّ قَدْ ملأه زَهَمُهُمْ [(٤)] ونتنهم وَدِمَاؤُهُمَ فيرغبونَ إِلى اللهِ سبحانَه فيرسلُ عليهم طيرًا كأعناقِ البُخْتِ، فتحملهم فتطرحهم حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِم مَطَرًا لا يُكِنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ فَيَغسِلُهُ حَتَّى يَتْرُكَهُ كَالزَّلَقَةِ [(٥)] ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرضِ: أَنبِتي ثَمرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةَ فَتُشْبِعُهُمْ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِها [(٦)]، وَيُبَارِكُ اللهُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى إِنَّ اللَّقْحَةَ مَنَ الإِبِلِ تَكْفي الفِئَامَ [(٧)] مِنَ النَّاسِ، واللَّقْحَةَ مِنْ البَقَرِ تَكْفي القَبِيلَةَ، وَاللَّقحة مِنَ الغَنَم تكفِي الفَخِذَ [(٨)]، فَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ، إِذ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُ تَحْتَ آباطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُسلِم، وَيَبْقى سَائِرُ النَّاسِ يَتَهارَجُونَ، كَما تَتَهارَجُ الحُمُرُ [(٩)] فَعَلَيهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ» [(١٠)].

عباد الله ...

تناول الإمام النووي رحمه الله هذا الحديث بالشَّرح فقال ما مختصره:

قوله: «ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ، الغَدَاةَ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ فِي

---

(١) (الأنبياء: ٩٦).

(٢) **النّغف**: الدود.

(٣) **فرسى**: موتى.

(٤) أي: دسمهم ورائحتهم المُنتنة.

(٥) **كالزلقة**: المرآة في صفائها ونظافتها.

(٦) **قحفها**: قشرتها.

(٧) **اللّقحة**: القريبة العهد بالولادة. **والفئام**: الجماعة الكثيرة.

(٨) **الفخذ**: الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن، والبطن دون القبيلة.

(٩) **يتهارجون تهارج الحُمُر**: أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس.

(١٠) رواه مسلم (٢٩٣٧)، وابن ماجه (٤١٤٨)، وغيرهما.

طَائِفَةِ النَّحْلِ» - وهو بتشديد الفاء فيهما - وفي معناه قولان:

أحدهما: أن «خفَّض» بمعنى حقر، وقوله «رفَّع» أى عظّمه وفخّمه، فمن تحقيره وهوانه على الله تعالى: عوره، ومن تفخيمه: تعظيم فتنته والمحنة به هذه الأمور الخارقة للعادة، وأنه ما من نبى إلَّا وقد أنذره قومه.

والوجه الثاني: أنه خفَّض مِن صوته فى حال الكثرة فيما تكلم فيه، فخفض بعد طول الكلام والتعب ليستريح، ثُمَّ رفع ليبلغ صوته كلّ أحد.

قوله ﷺ: «**غَيرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُني عَلَيْكُمْ**» أي: غير الدَّجَّال أخوف مخوّفاتي عليكم.

قوله ﷺ: «**إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ**» أى شديد جعودة الشعر.

قوله ﷺ: «**إِنَّهُ يَخرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَينَ الشَّامِ والعِرَاقِ**» أي: بالطريق بين البلدين.

قوله ﷺ: «**فَعَاثَ يَمِينًا، وَعَاثَ شِمالاً**» العيث الفساد أو أشد الفساد والإسراع فيه.

قوله ﷺ: «**يُومٌ كَسَنَةٍ، وَيَومٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**» قال العلماء: هذا الحديث على ظاهره، وهذه الأيام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور فى الحديث يدل عليه قوله ﷺ: «**وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**».

وأما قولهم: «يَا رسُولَ الله! فَذَلِكَ اليَومُ الَّذي كَسَنَةٍ، تكْفِينا فِيهِ صَلاةُ يوَمٍ؟» قَالَ: «**فاقدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**» فقال القاضي وغيره: هذا حكم مخصوص بذلك اليوم، شرعه لنا صاحب الشرع. قالوا: ولولا هذا الحديث ووكلنا إلى اجتهادنا لاقتصرنا فيه على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة فى غيره من الأيام.

ومعنى «**فاقدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**» أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر، ثم إذا مضى بعده قدّر ما يكون بينها وبين العصر فصلّوا العصر، واذا مضى بعد هذا قدّر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب، وكذا العشاء والصبح، ثم الظهر، ثم العصر، ثم المغرب وهكذا حتى ينقضى ذلك اليوم، وقد وقع فيه صلوات سنة فرائض كُلّها مؤداة فى وقتها.

وأمَّا الثاني الذى كشهر، والثالث الذى كجمعة، فقياس اليوم الأول أن يقدّر لهما كاليوم الأوّل على ما ذكرناه، والله أعلم.

قوله ﷺ: «وَتَرُوحُ عَلَيهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرىً وَأَسبغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ»، أما «تروح» فمعناه ترجع آخر النهار والسارحة هي الماشية التى تسرح أى تذهب أول النهار إلى المرعى.

وأما «الذُّرا» - فبضم الذال - وهى الأعالى والأسنمة جمع ذروة.

وقوله: «وَأَسبغَهُ» أى أطوله لكثرة اللبن، وكذا «أَمَدَّهُ خَوَاصِرَ» لكثرة امتلائها من الشبع.

قوله ﷺ: «فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُها كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ» هي ذكور النحل.

وقال القاضي: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة، لكنه كنى عن الجماعة باليعسوب، وهو أميرها لأنه متى طار تبعته جماعته، والله أعلم.

قوله ﷺ: «فَيَقطَعُهُ جِزلَتَينِ رَمْيَةَ الغَرَضِ» أي: قطعتين.

ومعنى «رَمْيَةَ الغَرَضِ» أنه يجعل بين الجزلتين مقدار رميته.

قوله ﷺ: «فَيَنزِلُ عِندَ المَنَارَةِ البَيْضَاءَ، شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ» ومعناه لابس مَهرُودتَيْن أى: ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران.

قوله ﷺ: «يَنْحَدِرُ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤلُؤِ» الجُمان هي حبّات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار، والمراد يتحدّر منه الماء على هيئة اللولؤ فى صفاته، فسُمّى الماء جُمانا لشبهه به فى الصَّفاء.

قوله ﷺ: «وَلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفسِهِ إِلاَّ مَاتَ» ومعنى «لا يَحِلُّ» لا يمكن ولا يقع، وقال القاضي معناه عندى: حق وواجب.

قوله ﷺ: «يُدْرِكُه عِندَ بَابِ لُدٍّ» وهو بلدة قريبة من بيت المقدس.

قوله ﷺ: «ثُمَّ يأتِي نَبيُّ الله عِيسى عليه السلام قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ الله، فَيَمسَحُ وُجُوهَهُمْ» قال القاضي: يحتمل أن هذا المسح حقيقة على ظاهره، فيمسح على وجوههم تبرّكًا وبرًّا، ويحتمل أنه إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشّدة والخوف.

قوله تعالى: «أَخْرَجْتُ عِبَادًا لي لا يَدَانِ لأحَدٍ بِقِتَالِهِم وَأَحْرِزْ عِبَادي إلى الطُّورِ» فقوله: «لا يَدَانِ» - بكسر النون - تثنية يد. قال العلماء معناه: لا قدرة ولا طاقة.

ومعنى «حرّزهم إلى الطور» أي: ضمّهم واجعله لهم حِرزًا.

قوله ﷺ: ﴿وهُم مِن كُل حَدب يَنْسِلُون﴾ الحدب: النشز، وينسلون: يمشون مسرعين.

قوله ﷺ: «فَيُرسِلُ الله عَلَيهِمُ النَّغَفَ في رِقَابِهِم فَيُصبِحُونَ فَرْسَى» النغف: دود يكون فى أنوف الإبل والغنم، والفرسى أى قتلى، واحدهم فريس.

قوله ﷺ: «ملأه زَهَمُهُمْ ونتنهم» أى دسمهم ورائحتهم الكريهة.

قوله ﷺ: «لا يُكِنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ» أى لايمنع من نزول الماء بيت. «المدر» بفتح الميم والدال: وهو الطين الصَّلب.

قوله ﷺ: «فيغسل الأرض حَتَّى يَتْرُكَها كَالزَّلَقَةِ» معناه: كالمرآة، شبهها بالمرآة فى صفائها ونظافتها، وقيل: كمصانع الماء، أى أن الماء يستنقع فيها حتى تصير كالمصنع الذى يجتمع فيه الماء.

قوله ﷺ: «تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةَ فَتُشْبِعُهُمْ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِها»، «العِصَابَةُ» الجماعة، و«قحفها» هو مقعر قشرها، شبّهها بقحف الرأس وهو الذى فوق الدماغ.

قوله ﷺ: «وَيُبَارِكُ الله في الرِّسْلِ حَتَّى إنَّ اللَّقحَةَ مَنَ الإِبِلِ تَكْفي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ»، «الرِّسْلِ» هو اللبن، و«اللَّقحَةَ» هى القريبة العهد بالولادة، و«الفِئَامَ» الجماعة الكثيرة.

قوله ﷺ: «لتكفِي الفَخِذَ مِن الناس» قال أهل اللغة: «الفَخِذَ» الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن، والبطن دون القبيلة.

قوله ﷺ: «يَتَهارَجُونَ، كَما تَتَهارَجُ الحُمُرُ» أى يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك، و«الهرج» بإسكان الراء: الجماع، يقال: هرج زوجته أي جامعها يهرجها» ا.هـ[١].

عباد الله ...

وهذا الحديث الصحيح يحكي قصَّتين:

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٣٧٥- ٣٨٠) باختصار شديد.

الأولى: قصة الدَّجَّال.

والثانية: قصَّة يأجوج ومأجوج.

والقصتان من علامات القيامة الكبرى.

أمَّا القصة الأولى فملخَّصها:

أنَّ الله تعالى سيبتلي البشرية قبل قيام الساعة بالمسيح الدَّجَّال، والدَّجال: الكذاب، وسُمي المسيح - بالحاء المهملة على الصحيح - لأنه يمسح الأرض ويقطعها في أربعين يومًا، ولأنه ممسوح العين اليمنى، وسيخرج والناس في بلاء شديد.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ثَلاَثَ سَنَوَاتٍ شِدَادٍ يُصِيبُ النَّاسَ فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فِى السَّنَةِ الأُولَى أَنْ تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ فِى السَّنَةِ الثَّانِيَةِ فَتَحْبِسُ ثُلُثَىْ مَطَرِهَا وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَىْ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فِى السَّنَةِ الثَّالِثَةِ فَتَحْبِسُ مَطَرَهَا كُلَّهُ فَلاَ تَقْطُرُ قَطْرَةٌ وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتَحْبِسُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ فَلاَ تُنْبِتُ خَضْرَاءَ فَلاَ تَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ[1] إِلاَّ هَلَكَتْ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**». قِيلَ: فَمَا يُعِيشُ النَّاسَ فِى ذَلِكَ الزَّمَانِ؟ قَالَ: «**التَّهْلِيلُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَيُجْرَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مُجْرَى الطَّعَامِ**»[2].

فيأتي الدَّجَّال فيدّعي الربوبية، ويأتي من الأعمال الخارجة ما يروّج به باطله - كما مر في حديث النواس الطويل.

ومَن نظر في أمره علم أنه دجّال مُبطل، وأن صفات البشرية متحقّقة فيه، فهو يأكل ويشرب، وينام، ويتبول، ويتغوّط، وأعور العين.

ومَن كان هذا حاله كيف يكون إلهًا معبودًا، وربًّا للكائنات وهو محتاج إليها!!

هذا؛ بالإضافة إلى علامة أخرى أعلم الله تعالى بها الدَّجَّال يعرفها فيه المؤمنون دون غيرهم، وهذه العلامة كتابة بين عينيه نصُّها: (ك. ف. ر) أو (كافر).

فعن أبي أُمامة - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - أنَّ رسول الله ﷺ قال في وصف الدَّجَّال: «وأنه

---

(١) **ذات الظلف**: كالبقر والشاة والظبي ونحوها.

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه، و«صحيح ابن خزيمة»، وانظر «صحيح الجامع» (٧٧٥٢).

مكتوب بَين عَينيه: كافر، يقرؤه كُل مؤمن كاتب أو غير كاتب» [١].

قال الإمام النووي رحمه الله : «والصحيح الذي عليه المحققون أنَّ هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله، ويظهرها الله تعالى لكل مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمّن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك» ا.هـ.

هذا؛ وحدَّثنا النَّبيُّ ﷺ عن المكان الذي سيخرج منه الدَّجَّال فقال: **«الدَّجَّالُ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا خُرَاسَانُ يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ»** [٢].

كما حدَّثنا عن أتباعه، فقال: **«أكثر أتباع الدجال اليَهود والنِّساء»** [٣].

كما أخبرنا الصَّادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - عن الأماكن التي حرَّم الله تعالى على الدجال أن يدخلها، فقال: **«لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إِلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلاَّ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا، فَيَنْزِلُ بِالسَّبَخَةِ** [٤] **فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»** [٥].

ثم دلّنا المصطفى ﷺ على طريق النجاة منه، فقال: **«يا عِباد الله اثبتوا»**.

فالثبات على الإيمان عند خروجه من أسباب النجاة من فتنته.

وقال ﷺ : **«مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ** [٦]**، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ أَوْ لِمَا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»** [٧].

فالفرار منه عند خوف الفتنة من أسباب النجاة، وهذا يُعدّ من باب «لا تتمنّوا لقاء العدوّ».

---

(١) **صحيح**: رواه ابن خزيمة والحاكم وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» (٧٧٥٢).

(٢) **صحيح**: انظر «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٠٧).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢١٦).

(٤) **السَّبخة**: الأرض الرملية التي لا تنبت لملوحتها.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

(٦) أي: فليبعد عنه.

(٧) **صحيح**: رواه أبو داود.

وقال ﷺ: «**مَن حَفِظ عَشر آياتٍ مِن سُورة الكَهف عُصِمَ مِنْ فِتنةَ الدَّجَال**».

وجاء في بعضها: «**من أوّل سورة الكهف**»، وفي بعضها «**مِن آخر سورة الكَهف**».

ثم أخبر النَّبيُّ ﷺ عن كيفية هلاكه، وقد تقدّم ذَلِكَ في حديث النواس الطويل.

هذه هي قصّة الدَّجَّال، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- أنَّهُ من علامات القيامة الكبرى.
- أنَّ مكان ظهوره (خروجه) من خُراسان.
- أنَّهُ أعور العين اليمنى.
- أنَّهُ أشبه بعبد العزَّى بن قَطَن.
- يأمر السماء فتمطر.
- يأمر الأرض فتنبت.
- تتبعه كنوز الأرض.
- أكثر أتباعه اليهود والنساء.
- يحرِّم الله تعالى عليه دخول مكة والمدينة.
- مكتوب بين عينيه (كافر).
- يقتله عيسى عليه السلام بباب لُدٍّ.

هذه قصّته، وعلاماته، وأوصافه، ومِمَّا يُضحِك الثّكلى أنَّ أحد الكتَّاب المعاصرين ذهب إلى أن المسيح الدَّجَّال هو التلفزيون، نعوذ بالله من الهوى.

عباد الله ...

ولا ننسى في هذا المقام أن نذكر أنَّ الخوارج لهم دور كبير في مساعدة الدَّجَّال ومعاونته.

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يَنْشَأُ نَشْءٌ**[1] **يَقْرَءُونَ القُرْآنَ**

---

(١) نشء: يريد جماعة أحداثًا.

لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ كُلَّمَا خَرَجَ قَرْنٌ[(١)] قُطِعَ[(٢)]». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلَّمَا خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ». أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً «حَتَّى يَخْرُجَ فِي عِرَاضِهِمُ[(٣)] الدَّجَّالُ»[(٤)].

نسأل الله تعالى هَديًا قاصدًا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وأمَّا القصّة الثانية: وهي قصة يأجوج ومأجوج، فقد ذكرها القرآن الكريم في موضعين:

الأول: في سورة الكهف:

وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٤- ٩٩].

---

(١) كلما خرج قرن: أي ظهرت طائفةٌ منهم.

(٢) قطع: أي استحق أن يقطع.

(٣) عِراضهم: في خداعهم، وفي رواية «في أعراضهم» جمع عَرض، بفتح وسكون، بمعنى الجيش العظيم، وهذا مستعار من العرض بمعنى: ناحية الجبل، أو بمعنى السحاب الذي يسدّ الأفق، قاله السدي. انظر «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٥٨٣).

(٤) حسن: رواه ابن ماجه (١٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٤)، و«الصحيحة» (٢٤٥٥).

الموضع الثاني: في سورة الأنبياء:

وذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

وخلاصة قصّتهم: أنهم قبيلتان من بني آدم ثم من بني يافث بن نوح - ذكر ابن عبد البر الإجماع عليه.

وقال الحافظ: وهما اسمان أعجميان، واختلف في اشتقاقهما، فقيل: من أجيج النار وهو التهابها. وقيل: من الأُجاج، وهو الماء الشديد الملوحة. وقيل: يأجوج من ماج إذا اضطرب.

وجميع ما ذكر من الانشقاق مناسب لحالهم.

هذا؛ ويأجوج ومأجوج أُمّتان كثيرتا العدد، يدلّ على ذلك قول النبي ﷺ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ: «**أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ**».

ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ**». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ**». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: «**مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ**»(١).

وقد أخبر تبارك وتعالى أن السدّ الذي بناه ذو القرنين مانعهم من الخروج، قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

وأخبر أن ذلك مستمر إلى آخر الزمان عندما يأتي وعد الله ويأذن لهم بالخروج، وعند ذلك يدكّ السّد ويخرجون على الناس، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٨].

وعند ذلك يخرجون أفواجًا أفواجًا كموج البحر ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩].

وذلك قرب قيام السَّاعة - كما مرّ معنا.

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أنهم يحفرون في السّد كل يوم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَدًا. فَيُعِيدُهُ اللَّهُ أَشَدَّ مَا كَانَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاسْتَثْنَوْا فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَنْشِفُونَ الْمَاءَ وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ عَلَيْهَا الدَّمُ الَّذِي اجْفَظَّ[1] فَيَقُولُونَ قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ فَيَبْعَثُ اللَّهُ نَغَفًا[2] فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا».

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ»[3].

وفي رواية: «فَيَخْرُجُ النَّاسُ وَيُخْلُونَ سَبِيلَ مَوَاشِيهِمْ فَمَا يَكُونُ لَهُمْ رَعْيٌ إِلاَّ لُحُومُهُمْ، فَتَشْكَرُ عَلَيْهَا[4] كَأَحْسَنِ مَا شَكِرَتْ مِنْ نَبَاتٍ أَصَابَتْهُ قَطُّ»[5].

هذا، وقد أخبرنا النَّبيُّ ﷺ أن سدّ يأجوج ومأجوج فُتح منه فتحًا.

ففي «صحيح البخاري» عَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ - رضى الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ

---

(١) اجفظَّ: أي: ترجع ممتلئة دمًا، ليزدادوا فتنة.
(٢) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.
(٣) صحيح: «صحيح ابن ماجه» (٣٣١٤).
(٤) تشبع.
(٥) حسن صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٣).

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ». وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا . قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخُبْثُ».

أين مكان السد؟

قال بعض الناس: أين يوجد السّد؟ ولماذا لم يتم اكتشافه مع تطوّر وسائل الكشف؟

وللجواب عن هذا السؤال قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «إن الله تعالى أخفى مكانهم على عامة الناس حتى يأتي الوقت المحدّد لإخراجهم على الناس، وربُّك فعالٌ لما يُريد» ا.هـ[(١)].

قلت: وهذا أسلم الآراء وأقومها، ومَن ذهب إلى تحديد مكانهم ليس معه دليلٌ معصوم.

عباد الله ...

وقبل ختام حديثي إليكم - هنا - أحبّ أن أنبهكم إلى أن ما رُوي في وصف يأجوج ومأجوج من قول بعض الرواة: «أن لهم مخالب في مواضع الأظفار، وأضراس وأنياب كالسباع، وأحناك كأحناك الإبل، ولكل واحد منهم أُذنان يلحتف إحداهما ويفترش الأخرى...» إلخ، فهذا لا يصح بحال، والله أعلم.

كما أُحب أن أُنبِّه إلى أن بعض المعاصرين مَن ذهب إلى أن يأجوج ومأجوج هم التتار والمغول!!

وممَّن ذهب إلى هذا القول: الأستاذ سيد قطب في «ظلاله»[(٢)]!!

وهذا من ضمن الأخطاء التي استدركها أهل العلم عليه، هذا وكُتبه - عفا الله عنه - فيها أخطاء عقائدية، تعقبّها أهل العلم[(٣)].

اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه

---

(١) «أضواء البيان» (٢/ ٤٣٢).

(٢) (٤/ ٢٢٩٤) تفسير سورة الكهف، الآية رقم (٩٤).

(٣) انظر لزامًا: «فتاوى العلماء في سيد قطب» ط. دار الإمام المجدّد.

الخطبة الرابعة والأربعون بعد المائة:

خروج الدَّابة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

عَن أبي أُمامة ﷺ قال: قال رَسول الله ﷺ: «تخرجُ الدَّابةُ فَتَسِمُ النّاسَ[(١)] على خَراطيمهم[(٢)] ثُمَ يُعَمَّرُون فِيكُم حَتّى يَشْتَري الرّجلُ البَعيرَ، فيقول: مِمَّن اشْتَرَيتَهُ؟ فيقولُ: مِنْ أَحَدِ المُخْطَّمِيْن»[(٣)].

---

(١) السِّمة: العلامة.

(٢) الخرطوم: الأنف.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢/ ١٧٢)، وغيرهما، وانظر: «الصحيحة» رقم (٣٢٢).

عباد الله ...

هذه إحدى علامات القيامة الكُبرى الدَّالة على عِظَم قُدرة ربِّنا تبارك وتعالى، ثبت خروجها بالكتاب والسُّنَّة.

فمِن الكتاب:

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ**﴾ [النمل: ٨٢].

قال العلامة **عبد الرحمن بن ناصر السَّعدي** - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية: «أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته ﴿**أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً**﴾ خارجة ﴿**مِّنَ الأَرْضِ**﴾ أو دابة من دوابّ الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿**تُكَلِّمُهُمْ**﴾ أي: تكلّم العباد ﴿**أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ**﴾ أي: لأجل أنَّ الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فأظهر الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة، ليبيِّن للناس ما كانوا فيه يمترون.

وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يأت دليلٌ يدلّ على كيفيتها، ولا من أي نوع هي[١]، وإنما دلَّت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه، والله أعلم» ا.هـ[٢].

وقال الحافظ **ابن كثير** - رحمه الله - في تفسيره ما مخلصه: «هذه الدابة تخرج في آخر الزمان، عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض، قيل من مكة، وقيل من غيرها، فتكلّم الناس، قال ابن عباس: «تكلّمهم كلامًا»، أي: تخاطبهم مخاطبة. وقال أيضًا في رواية: «تجرحهم»، وعنه رواية: «كُلًّا تفعل»، يعني هذا وهذا، وهو قول حسن، ولا منافاة» ا.هـ.

---

(١) **قلت**: وما ذكره الثعلبيّ وغيره: «أن رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذَنَبُها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعًا»، كل هذا لا يصحّ.
(٢) «تفسير السعدي» (٦١٠).

وقال ابن كثير - أيضًا - في «النهاية»: «قال ابن عباس والحسن وقتادة ﴿تُكَلِّمُهم﴾ تجرحهم، بمعنى: تكتب على جبين الكافر: كافر، وعلى جبين المؤمن: مؤمن.

وعنه: «تخاطبهم وتجرحهم» وهذا القول ينتظم المذهبين، وهو قويّ حسن جامع لهما، والله أعلم» ا.هـ.

قلت: وقال السُّديّ: «تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام».

أما من السُّنة المطهرة:

فقد وردت أحاديث كثيرة عن المعصوم ﷺ منها:

١- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ أَبِي سَرِيحَةَ قَالَ: اطَّلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ فَقَالَ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَالدُّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَثَلاَثُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ أَبْيَنَ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ تَبِيتُ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا**»[(١)].

٢- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانَ، وَدَابَّةَ الأَرْضِ، وَالدَّجَّالَ، وَخُوَيْصَّةَ أَحَدِكُمْ**[(٢)]**، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ**[(٣)]»[(٤)].

قُلت: وقوله ﷺ: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا**» فيه حثٌّ على التوبة والإنابة؛ لأن بظهور هذه العلامة أو بعضًا منها، يُغلق باب التوبة، كما في الحديث التالي:

٣- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الأَرْضِ**»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه وغيرهما.

(٢) قال النووي: قال هشام: خاصة أحدكم: الموت، وخويصة: تصغير خاصّة.

(٣) قال قَتادة: أمر العامة: القيامة.

(٤) رواه مسلم وابن ماجه.

(٥) رواه مسلم (١٥٨).

قال الإمام محمود خطّاب السُّبكي رحمه الله: «وبخروج الدابة ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]، ولا يبقى منيب ولا تائب، ولا يؤمن كافر» ا.هـ[٢].

٤- وعَن عَبْدُ اللهِ بن عمرو رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجاً طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ ضُحًى، فَأَيَّتُهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا»[٣].

قلت: دلّ هذا الحديث على أن خروجها سيكون ضحًى.

٥- وأَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِي اللّٰهُ عَنْهُ - عَن النَّبيّ ﷺ قال: «تَخْرُجُ الدَّابَّةُ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَتَخْطِمُ الكَافِرَ بِالخَاتَمِ، وَتَجْلُو وَجْهَ المُؤْمِنِ بِالعَصَا، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الخِوَانِ لَيَجْتَمِعُونَ عَلَى خِوَانِهِمْ[٤] فَيَقُولُ هَذَا: يَا مُؤْمِنُ، وَيَقُولُ هَذَا: يَا كَافِرُ»[٥].

٦- وعن طلحة بن عمرو، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدَّابة فقال: «لها ثلاث خرجات مِن الدَّهر، فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرُها القرية - يعني مكة - ثم تكمُن زمانًا طويلًا، ثم تخرج خرجة أخرى دون ذَلِكَ، فيعلو ذكرُها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ». قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ بينما النَّاس في أعظم المساجد على الله حُرمةِ؛ خيرها وأكرمها المسجد الحرام، لم يرعهم إلَّا وهي تَرغُو بَيَن الرُّكن والمَقَام، تَنفُض عن رأسها التُّراب، فارفَضَّ النَّاس عَنها شَتَّى ومعًا، وثبتت عصابةُ المؤمنين، وعَرَفوا أنَّهم لن يُعجِزوا الله، فبدأت بهم، فجَلَت وجوهَهم، حتى تجعلها كأنَّها الكوكب الدُّريّ، وَولَّت في الأرض لا يُدركها طالبٌ ولا يَنجُو منها هَاربٌ، حتَّى إنَّ الرَّجُلَ لَيَتعوَّذ منها بالصَّلاة، فتأتيه من خَلفِهِ، فتقول: يا فلان، الآن تصلي، فَيُقبل عَلَيها فَتَسِمه في وَجهه، ثم

---

(١) أي: لعدم فائدة ذلك، لأنه حينئذٍ يظهر المؤمن والكافر عيانًا بِوسمِ الدَّابة، فمن وسمته بالكفر لا يمكن تغييره.

(٢) «الدين الخالص» (١/ ٨٢).

(٣) رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

(٤) الخِوان: ما يؤكل عليه، «المعجم الوجيز» (٢١٥).

(٥) رواه أحمد، والترمذي، وقال: حديث حسن.

تنطلق، ويشترك الناسُ في الأموال، ويصطحبون في الأمصار، يُعرَف المؤمن من الكافر، حتَّى إن المؤمن يقول: يا كافر اقضِني حَقِّي، وحتَّى إن الكافر يقول: يَا مؤمن اقْضِني حَقِّي» [١].

تأويلٌ باطل: ومع هذا الوضوح الوارد في شأن الدَّابة، إلَّا أن هناك بعض الناس أنكر ما ثبت عن النبي ﷺ من خروج الدَّابة - بالكيفية السابقة - وتأوّل الدَّابة بتأويل باطل، فقال: «لماذا لا يكون تكليم الدَّابة للإنسان بلسان الحال لا بلسان المقال؟ وإن من معاني التكليم: التجريح، يقال: كَلَمه كَلمًا إذا جَرَحه، وكَلَّمَه تَكليمًا إذا أكثر الجراحات فيه، فلِمَ لا تُفهم الآية على هذا الوجه؟ ليس ما يمنع من هذا ولا ذَلِكَ.

ولعلّ المراد بالدَّابة هي تلك الجراثيم الخطيرة التي تفتك بالإنسان وجسمه وصحته وبأمواله زروعًا وثمارًا ومواشي، جزاء له على بعض ما تجنى يداه من إثم ونكر، وقصاصًا على بعض تعدّيه لحدود الله وما شرع لعباده، والجراثيم الضارة الشديدة الخطورة منتشرة في كل مكان، تكاد تغطى مساحة الأرض وتملأ طبقات الجوّ، وهي تجرح وتقتل؛ ومن تجريحها وأذاها كلمات واعظة للناس لو كانت لهم قلوب ترجع بهم إلى الله ودينه، وتلزمهم المحجّة التي ضلّوا عنها وتركوها وراءهم ظهريًا، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال، وحمل صحاح الأحاديث النبوية وتفسير الآيات القرآنية الكريمة بما يناسب الواقع ويواكب المنطق ويتسق وفطرة الحياة أولى من السّبح في أجواء من الخيال».

وللجواب عن هذا التأويل: قال الشيخ حمود بن عبد الله التويجري:

والجواب أن يقال: قد تقدَّم عن ابن عباس أَنَّهُ قال في الدابة: إنها تكلّم الناس كلامًا، أي: تخاطبهم مخاطبة، وقال مقاتل: تكلمهم بالعربية.

وهنا يرد قول من قال: أن تكليم الدَّابة للإنسان بلسان الحال لا بلسان المقال.

وأما قوله: ولعل المراد بالدابة تلك الجراثيم الخطيرة... إلى آخره.

فالجواب منه من وجوه:

أحدها: أن يقال: إن تأويل الدابة التي تخرج من الأرض في آخر الزمان بالجراثيم

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي، ورواه ابن جرير من طريقين عن حذيفة بن أسيد موقوفًا.

التي تفتك بالإنسان وجسمه وأمواله تأويل باطل مردود، وهو من جنس تأويلات القرامطة والباطنية، ويلزم على هذا التأويل الباطل تكذيب ما أخبر به رسولُ الله ﷺ في الأحاديث التي تقدّم ذكرها، وتكذيب النبيّ ﷺ ينافي الإسلام.

الوجه الثاني: أن الجراثيم التي تفتك بالإنسان وصحته وأمواله قد كانت موجودة من أوّل الدنيا ومنتشرة في جميع أرجاء الأرض، وأما دابة الأرض فإنما تخرج في آخر الزمان عند اقتراب الساعة، وعلى هذا فتأويل الدابة بالجراثيم من أبطل التأويل وأبعده من المنقول والمعقول.

الوجه الثالث: أن الجراثيم أنواع لا تحصى، وأمَّا دابة الأرض، فإنما هي دابة واحدة، كما يدل على ذَلِكَ ظاهر القرآن والأحاديث الصحيحة.

الوجه الرابع: أن دابة الأرض التي أخبر الله بخروجها ليست من الدواب التي يعرفها الناس، ولا من الجراثيم، وإنما هي خلق هائل عظيم، من خوارق العادات، ولهذا تزعج الناس وتفزعهم، وقد تقدَّم أَنَّهُ يكون معها عصا موسى وخاتم سليمان، وإذا كانت بهذه الصّفة العظيمة فمن أقبح الجهل أن يقال: إنها جراثيم، لأن الجراثيم لا تُرى إلا بالمكبّرات.

وعلى هذا، فتأويل دابة الأرض بالجراثيم في غاية البعد والبطلان، بل هو نوع من الهذيان.

وأمَّا قوله: «وحمل صحاح الأحاديث النبوية وتفسير الآيات القرآنية الكريمة بما يناسب الواقع....» إلى آخره.

فجوابه من وجهين:

أحدهما: أن يقال: إن الواجب على المسلم أن يؤمن بما جاء في كتاب الله تعالى وبما ثبت عن رسول الله ﷺ من أخبار الغيوب الماضية والآتية، ولا يجوز لأحدٍ أن يرد ما خفي عليه منها، وما لا يحتمله عقله، ولا أن يحمل الآيات والأحاديث على غير ظاهرها من غير دليل من الكتاب أو السنة يدلّ على ذَلِكَ.

الوجه الثاني: أن يقال: ما أخبر الله به عن الدابة أنها تكلّم الناس، وما جاء في بعض الأحاديث من عِظَم خلقها، وأنه يكون معها عصا موسى وخاتم سليمان، وأنها تجلو

وجه المؤمن، وتخطم أنف[(١)] الكافر، فكل ذَلِكَ حق على حقيقته، وليس من الخيال، ومَن زعم أن ذَلِكَ من الخيال فقد أخطأ خطأ كبيرًا، وضلّ ضلالًا بعيدًا» ا.هـ[(٢)].

هدانا الله وإيَّاكم للصواب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فأختم الحديث عن الدَّابة بكلام للإمام الآلوسي رحمه الله حيث قال في شأنها - بعد أن ذكر أحاديث وآثار أكثرها لا يصحّ - قال رحمه الله: «وقصارى ما أقول في هذه الدابة: أنها دابة عظيمة ذات قوائم ليست من نوع الإنسان أصلًا، يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض وفي تقييد إخراجها بقوله سبحانه : ﴿**مِنَ الأَرْضِ**﴾ نوع إشارة على ما قيل : إلى أن خلقها ليس بطريق التوالد بل هو بطريق التولّد نحو خلق الحشرات.

وقيل: إنه للاشارة إلى تكوّنها في جوف الأرض فيكون إخراجها من الأرض رمز إلى ما يكون في الساعة التي أخرجت هي بين يديها من تشقق الأرض وخروج الناس من جوفها أحياءً كاملة خلقتهم، وفي هذا وما قبله ذهاب الى تعلّق ﴿**مِنَ الأَرْضِ**﴾ بـ ﴿**أخرجنا**﴾ وهو الظاهر الذي ينبغي أن يعوّل عليه دون كونه متعلّقًا بِمحذوف وقع صفة لـ ﴿**دَابة**﴾ أي دابة كائنة من الأرض». ا.هـ[(٣)].

عباد الله ...

وبهذا الكلام المتين نأتي إلى خِتام خطبة اليوم، سائلًا المولى تبارك وتعالى أن يجعلني وإيَّاكم ممن قال الله فيهم: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢].

(١) تخطم: كتضرب، لفظًا ومعنى.
(٢) «إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة» (٣/ ١٨٣ - ١٨٥) باختصار.
(٣) «روح المعاني» (١١/ ٣٣).

الخطبة الخامسة والأربعون بعد المائة:

قتال المسلمين لليهود

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

ومن علامات القيامة الكبرى «**قتال المسلمين لليهود**».

ما هو الدليل؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إِلاَّ الْغَرْقَدَ[1] فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**»[1].

---

(١) قال النووي: الغَرقد: نوع من شجر الشوك، معروف ببلاد بيت المقدس، وهناك يكون قتل =

عباد الله ...

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن الكَون يبغض اليهود، حتى الجماد يكرههم.

هذا، وكلام الحجر والشجر هنا حقيقة وليس مجازًا.

وقد ثبت كلام الجمادات والحيوانات في القُرآن والسُّنَّة.

فمن القرآن:

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ**﴾ [النمل: ٨٢].

ومن السُّنة:

١- عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّى لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّى لأَعْرِفُهُ الآنَ**»(٢).

٢- عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدْرِىِّ قَالَ: عَدَا الذِّئْبُ عَلَى شَاةٍ فَأَخَذَهَا، فَطَلَبَهُ الرَّاعِى فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ، فَأَقْعَى الذِّئْبُ عَلَى ذَنَبِهِ قَالَ: أَلاَ تَتَّقِى اللَّهَ تَنْزِعُ مِنِّى رِزْقاً سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيَّ؟ فَقَالَ: يَا عَجَبِى ذِئْبٌ مُقْعٍ عَلَى ذَنَبِهِ(٣) يُكَلِّمُنِى كَلاَمَ الإِنْسِ!! فَقَالَ الذِّئْبُ: أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ مُحَمَّدٌ ﷺ بِيَثْرِبَ يُخْبِرُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ.

قَالَ: فَأَقْبَلَ الرَّاعِى يَسُوقُ غَنَمَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَزَوَاهَا إِلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنُودِىَ: الصَّلاَةُ جَامِعَةٌ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ لِلرَّاعِى: «**أَخْبِرْهُمْ**». فَأَخْبَرَهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**صَدَقَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُكَلِّمَ السِّبَاعُ الإِنْسَ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ(٤) وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَيُخْبِرَهُ**

= الدَّجَّال واليهود، وقال أبو حنيفة الدينوري: إذا عظمت العوسجة، صارت غرقدة. «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٣٦١).

(١) رواه مسلم (٢٩٢٢).

(٢) رواه مسلم وغيره.

(٣) قعد على ذيله.

(٤) عذبة السوط: طرفه.

فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ»[١].

قال الشيخ حمود التويجري عقب هذا الحديث: «فتكليم السباع للإنس، وتكليم العذبة، والشِّراك، والفخذ، مثل نداء الشجر والحجر بالدلالة على اليهود، وذلك كله على الحقيقة لا على المجاز، والله أعلم» ا.هـ[٢].

قلت: وقد صرَّح حديثُ أبي أُمامة الآتي أنَّ كثيرًا من المخلوقات تنطق بالدلالة على اليهود.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ أَكْثَرُ خُطْبَتِهِ حَدِيثًا حَدَّثَنَاهُ عَنِ الدَّجَّالِ...» فذكر الحديث بطوله، وفيه: «فَقَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ بِنْتُ أَبِي العُكَرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ العَرَبُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**هُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ وَجُلُّهُمْ بِبَيْتِ المَقْدِسِ وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ**[٣]، **فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحَ فَرَجَعَ ذَلِكَ الإِمَامُ يَنْكُصُ يَمْشِي القَهْقَرَى لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَقَدَّمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَتْ. فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُمْ فَإِذَا انْصَرَفَ قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: افْتَحُوا البَابَ. فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفِ يَهُودِيٍّ كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ**[٤]**، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا، وَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ فَيَقْتُلُهُ فَيَهْزِمُ اللَّهُ اليَهُودَ فَلاَ يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ لاَ حَجَرَ وَلاَ شَجَرَ وَلاَ حَائِطَ وَلاَ دَابَّةَ - إِلاَّ الغَرْقَدَةَ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لاَ تَنْطِقُ - إِلاَّ قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ المُسْلِمَ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ اقْتُلْهُ**»[٥].

عباد الله ...

ولا غرابة في كراهية المخلوقات لليهود.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن حبان، وغيره، وانظر «الصحيحة» (١٢٢).

(٢) «إتحاف الجماعة» (١/ ٤١١).

(٣) إشارة إلى المهدي، راجع قصته في هذا الكتاب.

(٤) الساج: الطيلسان الأخضر.

(٥) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٧٧٥٢).

لا غرابة في تحالفهم جميعًا لاستئصال شأفتهم، واجتثاث جذورهم وتطهير الأرض من رجسهم ودنسهم وظلمهم.

١- لقد أساءوا لخالقهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

فهل بعد هذا الكفر كفر؟!

٢- وأساءوا لأنبيائه ورسله:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وسَجِلّ جرائمهم مع الأنبياء حافل، فمن ذَلِكَ:

- قولهم عن شيخ الأنبياء نوح عليه السلام: «ابتدأ نوح يكون فلاحًا، وغرس كرمًا، وشرب منه الخمر فسكر، وتعرّى، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه!!»[١].
- قولهم عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام أَنَّهُ كان يتاجر بامرأته، وأنه أعطاها لفرعون مصر وقبض الثمن، وزعم لفرعون أنها أخته[٢]!!
- قولهم عن لوط عليه السلام بأنه شرب خمرًا وسَكِرَ وزَنَى بابْنَتيهِ[٣]!!
- قولهم عن إسحاق عليه السلام أَنَّهُ كان لا يغار على عِرضهِ[٤].
- قولهم عن يعقوب عليه السلام أَنَّهُ خدع أباه وغشَّه[٥].
- قولهم عن موسى عليه السلام أَنَّهُ كان يُسيئ الأدب في مخاطبة الله تعالى ومناجاته، فقد جاء في توراتهم المحرّفة فقالوا - يعني اليهود - لهما - يعني لموسى وهارون -:

---

(١) «سفر التكوين» الإصحاح التاسع (٢١ - ٢٦).
(٢) نفس المرجع، الإصحاح العشرين (١ - ١٢).
(٣) نفس المرجع (١٩/ ٣٠ - ٣٨).
(٤) نفس المرجع، الإصحاح السادس والعشرين (١ - ١١).
(٥) نفس المرجع (١ - ٤٥).

ينظر الرب إليكما ويقضي لأنكما أنتنتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتى تعطيا سيفًا في أيديهم ليقتلون، فرجع موسى إلى الرب وقال: يا سيِّد لماذا أسأت إلى هذا الشعب، لماذا أرسلتني؟»[١].

- قولهم عن هارون عليه السلام أَنَّهُ هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل[٢].
- قولهم عن داود أَنَّهُ أرسل (أوريا) وكان قائدًا لجيشه، إلى إحدى الحروب فَقُتِل، وزنى داود بزوجته، فولدت له سُليمان[٣]، فسليمان عليه السلام في نظر هؤلاء المجرمين ابن هذه المرأة التي قَتل داود رَجُلَها وزنى بها.

﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

- قولهم عن سليمان عليه السلام أَنَّهُ كان ساحرًا.

٣- وقتلوا الأنبياء بغير حق:

قال الأستاذ عبد الرحمن حبنكة: «وثبت عليهم في التاريخ أنهم قتلوا من الأنبياء:

١- **حزقيل**: قتله قاض من قضاتهم لأنه نَهاه عن منكرات فعلها.

٢- **أشيعا بن آموص**: قتله (منسي) أحد ملوك يهوذا.

٣- **أرميا**: قتله اليهود رجمًا بالحجارة»[٤].

٤- **وأساءوا لِنبيِّنا ﷺ وللمسلمين**؛ والحديث عن هذا يطول، ويكفي أن نشير هنا إلى أنهم:

- حاولوا قتل رسول الله ﷺ بإلقاء حَجَر عليه، فنجَّاه الله تعالى.
- حاولوا قتله بدسّ السُّم في ذراع شاة، فأخبره الذّراعُ بالمؤامرة.
- ألَّبوا الأحزاب عليه، فردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا.
- قتلوا أعدادًا لا تعدّ ولا تحصى في مذابح شتى كـ (صابرا وشاتيلا، وجِنين، وآخرها

---

(١) «سفر الخروج» الإصحاح الخامس (٢١ - ٢٣).
(٢) نفس المرجع، الإصحاح الثاني والثلاثون كله.
(٣) «سفر صموئيل الثاني» (٢٤: ١٢).
(٤) «مكايد يهودية عبر التاريخ» لعبد الرحمن حسن حنبكة (٢٩، ٣٠).

مذبحة غزة) وغيرها.

وها هي أقوالهم تُنبئ عن حقد دفين على الإسلام والمسلمين:

قال «بن غوريون» رئيس وزراء إسرائيل السابق: «نحن لا نخشى الاشتراكيات ولا الثوريات، ولا الديمقراطيات في المنطقة، نحن فقط نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلًا وبدأ يتململ من جديد».

وقال «شمعون بيريز»: «إنه لا يمكن أن يتحقّق السلام في المنطقة ما دام الإسلام شاهرًا سيفه، ولن نطمئن على مستقبلنا حتى يُغمِدَ الإسلامُ سَيفَه إلى الأبد»[١].

عباد الله ...

والعداوة بيننا وبين اليهود ليست عداوة أرض -كما يقول البعض في هذا العصر-.

إن العداوة بيننا وبينهم عداوة عقدية.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

إن مودّة الكفَّار ومصافاتهم منزلقٌ عقديّ خطر، إنه تدمير لعقيدة الولاء والبراء.

وفِهم قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. على هذا النحو، فهم عجيب وغريب.

فالآية لا تدعو المسلمين إلى محبّة أعداء الله - غير المحاربين - إنما تدعوهم إلى الإحسان إليهم والعدل معهم.

هذا هو فهم سلفنا الصالح للآية.

أمَّا الحرب مع المحاربين، فلا تضع أوزارها حتى يؤمنوا بالله وحده.

نعم، الحرب لها ضوابط وشروط وآداب في شريعة الإسلام، ولابد أن تكون تحت

---

(١) «تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان» لمحمد السبيعي (١٤).

راية إمام (سلطان) مُمكّن.

ولا جهاد وقت الاستضعاف - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - لما يترتب على ذَلِكَ من ضرر أشدّ - كما هو معلوم[1] - ولكن لا يعني هذا أن نصاب بالهزيمة النفسية، وأن نستسلم للذلّ.

لكن ينبغي أن نعلم أن الذلّ لا يُرفع عن هذه الأُمّة إلّا بالعودة إلى دينها.

مَن الذي قال هذا الكلام؟ قاله النبيُّ ﷺ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ**[2] **وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[3].

أسأل الله أن يردّ المسلمين إلى دينهم ردًّا جميلًا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد هذه الجرائم التي ذكرناها عن اليهود - وهي بلا شك غيض من فيض - يتعجب البعضُ من تكليم الحجر والشجر بلسان ذلق فصيح للمسلم ليدلّه على يهوديّ يختبئ خلفه ليقتله؟!

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢].

نعم، لا تتعجب، لقد طال ظُلمُهم كلَّ مخلوق على ظهر الأرض من إنسان، وحيوان، وطير، وزرع، وبيت، وبحر.

---

(١) وقد فصَّلنا هذا في غير هذا الموضع، فليراجع.

(٢) نوع من أنواع الربا.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وانظر «الصحيحة» (١١).

فلا غرابة إذًا في تكليم الجماد والحيوان للمسلم ليدلّه على مكان شرّ البريّة، والله على كل شيء قدير.

اللهم انصُر دينَك، وكتَابك، وسُنَّة نبيِّك، وعبادَك الصَّالحين



الخطبة السادسة والأربعون بعد المائة:

(أ) عودة الناس إلى عبادة الأوثان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الكبرى «**عودة الناس إلى عبادة الأوثان**»، نسأل الله العفو والعافية.

عباد الله ...

فَعَن أبي هُريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**لا تَقومُ السَّاعة حتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ[1] نِسَاءِ دَوسٍ حَول ذِي الخَلَصَةِ**» وكانت صَنمًا تَعبُدُها دَوسٌ في الجَاهِلية

(١) **أليات**: معناه أعجازهن.

بِتَبَالَة(١)(٢).

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «والمراد يضطربن من الطواف حول ذي الخَلَصَة، أي: يكفرون ويرجعون إلى عبادة الأصنام وتعظيمها» ا.هـ(٣).

وهذا يكون إذا درس الإسلام، وَرُفع القرآن، وَقَبضت الرّيحُ كُلَّ من كان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان.

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَذْهَبُ اللّيْلُ والنهارُ حتى تُعْبَدَ اللاَّتُ والعُزَّى**». فقلت: يا رسول الله، إن كنتُ لأظنُّ حين أنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. أن ذلك تامًّا. قال: «**إنّه سيكون مِنَ ذلك ما شَاء الله، ثم يَبْعَثُ الله رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوفَّى كُلَّ مَنْ في قَلْبه مثقالُ حَبَّة خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجعون إلى دين آبائهم**»(٤).

عباد الله ...

في هذين الحديثين - وغيرهما كما سيأتي - دليلٌ على عودة الناس إلى عبادة الأوثان.

وصور العبادة لغير الله كثيرة، منها:

- **اتخاذ القبور مساجد.**

لذا جاء تحذير الإسلام من شدّ الرِّحال إلى القبور والعكوف عندها، ودعاء ساكنيها من دون الله.

وهذه بعض الأحاديث الصحيحة التي حذَّر النبيُّ ﷺ فيها من اتخاذ القبور مساجد، منها:

١- ثبت في «الصحيحين» من حديث عائشة - رَضِي اللَّهُ عَنْهَا - أنها قالت: «لمَّا

---

(١) تبالة: موضع باليمن.
(٢) رواه مسلم (٢٩٠٧).
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٣٥٤).
(٤) رواه مسلم (٢٩٠٧).

نُزِلَ بِرسول الله ﷺ طَفق يطرح خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ[١]، فَإِذَا اغْتَمَّ بِها كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

قَالت عَائِشَةُ: يُحَذِّرُ مِثْلَ الَّذِى صَنَعُوا. ولولا ذَلِكَ أبرز قبره غير أَنَّهُ خشي أن يتخذ مسجدًا.

وفي هذا الحديث الصحيح يحمي النبيُّ ﷺ عقيدة المسلمين من عمل يعكّر صفوها، ألا وهو اتخاذ القبور مساجد.

وقول عائشة - رَضِي اللَّـهُ عَنْهَا - : «لَمَّا نُزِلَ» هو بضم النون وكسر الزاي، أي: نزل به ملك الموت، والملائكة الكرام عليهم السلام.

و«طِفق» بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح، وبه جاء القرآن في معناه: جَعَل.

ومعنى «فَإِذَا اغْتَمَّ بِها كَشَفَهَا» أي: إذا احتبس نَفَسُهُ عن الخروج كشفها عن وجهه.

وقوله النبي ﷺ: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» فيه تحذير شديد ووعيد أكيد لمن اتخذ القبور مساجد.

قال الشيخ **سليمان بن عبد الوهاب** - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: «لعنهم ﷺ على هذا الفعل بعينه وهو اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، أي: كنائس وبيعٌ يتعبدون ويسجدون فيها لله، وإن لم يسموها مساجد، فإن الاعتبار بالمعنى لا بالاسم، ومثل ذلك القباب والمشاهد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، فإنها هي المساجد الملعون من بناها على قبورهم وإن لم يسمها من بناها مساجد.

وفيه ردٌّ على من أجاز البناء على قبور العلماء والصالحين تمييزًا لهم عن غيرهم، فإذا كان ﷺ لعن من بنى المساجد على قبور الأنبياء، فكيف بمن بناها على قبور غيرهم؟!

قوله: «يُحَذِّر ما صَنَعوا» الظاهر أن هذا من كلام عائشة - رَضِي اللَّـهُ عَنْهَا - أي أن الرسول ﷺ لعن اليهود والنصارى على ذلك تحذيرًا لأمته أن تصنع ما صنعوا.

قال القرطبي: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام.

---

(١) الخميصة: كِسَاءٌ له أعلام.

قوله: «ولولا ذَلِكَ» أي لولا تحذير النبي ﷺ ما صنعوا ولعن من فعل ذلك.

قوله: «لأبرز قبره» أي لَدُفن خارج بيته، ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ يومًا بارزًا للناس» أي جالسًا خارج بيته.

قوله: «غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا» رُوي بفتح الخاء وضمها بالبناء للفاعل والمفعول، قالوا: فأما رواية الفتح فإنها تقتضي أنَّ النبي ﷺ هو الذي أمرهم بذلك، وأما رواية الضم فيحتمل أن تكون عائشة هي التي خشيت كما في لفظ آخر، غير أني أخشى، أو هي ومن معها من الصحابة.

قلت: وهذا أظهر، ورواية «غير أني أخشى» لا تخالفه.

قال القرطبي: وهذا بالغ المسلمون في سدّ الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته، وسَدّوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحدًا من استقبال قبره.

وفي الحديث مسائل:

منها: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

ومنها: أنَّهُ - أي: اتخاذ القبور مساجد - مِن سُنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

ومنها: لعنه إيَّاهم على ذَلِكَ.

ومنها: مراده بذلك تحذيره إيَّانا عن قبره.

ومنها: ما بلي به ﷺ من شدة النَّزع[1].

ومنها: التنبيه على علّة تحريم ذَلِكَ، وعلّة لعن من فعله[2].

٢- وعَن جُنْدَبُ بن عَبد الله قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ

---

(١) هذه المسائل نقلها الشيخ/ سليمان عن كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٢٨٠، ٢٨١).

يَقُولُ: «إِنِّى أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّى أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

فقد نهى عنه وهو في آخر حياته، ثم إنه لعن - وهو في السياق - من فعله، والصلاة عندها من ذَلِكَ، وإن لم يبنِ مسجدًا، وهو معنى قوله: «أخشى أن يتخذ مسجدًا» فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا[1]، كما قال ﷺ: «**جُعلَت لي الأرضُ مَسجدًا وطَهُورًا**».

قال الشيخ سليمان بن عبد الوهاب في شرحه لهذا الحديث:

قوله: «إِنِّى أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ» أي أمتنع من هذا وأنكره والخليل هو المحبوب غاية المحبة، مشتق من الخَلّة - بفتح الخاء - وهي تخلل المودة في القلب كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

هذا هو الصحيح في معناه كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم.

قال القرطبي: وإنما كان في ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبَّة الله، وتعظيمه ومعرفته فلا يسع لمخالة غيره.

قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً» فيه التصريح بأن الخلة أكمل من المحبَّة.

قال ابن القيم: وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبَّة أكمل من الخلّة وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد ﷺ حبيب الله، فَمِن جهلهم، فإنَّ المحبَّة عامَّة والخلّة خاصّة وهي نهاية المحبَّة.

قال: وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ الله قد اتخذه خليلًا ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبّه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وغيرهم. وأيضًا

(١) من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه «التوحيد».

فإن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الصابرين، وخلّته خاصة بالخليلين.

وفيه جواز ذكر الإنسان ما فيه مِن الفضل إذا دعت الحاجة الشرعية إلى ذلك.

قوله: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً» فيه دليلٌ على أنَّ الصِّدِّيق أفضل الصَّحابة، حيث صرح ﷺ أنه لو اتخذ خليلا غير ربه لاتخذ أبا بكر، ففيه رد على الرافضة وعلى الجهمية الذين هم شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد، قاتلهم الله.

وفيه إشارة إلى خلافته لأن مَن كانت محبته لشخص أشدّ فهو أحقُّ الناس بالنيابة عنه، لا سيما وقد قال ذلك في مرض موته خصوصًا وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب لما صلى بهم عمر.

قوله: «أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ...» إلى آخر الحديث.

قال الخلخالي: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لهم.

والثاني: أنهم يجوّزون الصلاة في مدافن الأنبياء والسجود في مقابرهم والتوجه إليها حالة الصلاة، نظرًا منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء.

والأول هو الشرك الجلي، والثاني الخفي، فلذلك استحقوا اللَّعن.

قلت: الحديث أعمّ مِن ذلك، فيشمله ويشمل بناء المساجد والقباب عليها.

قوله[1]: (فقد نهى عنه في آخر حياته) أي كما في حديث جندب.

قوله: (ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله) أي كما في حديث عائشة.

قوله: (والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبنِ مسجدًا) يعني أنَّ الصلاة عند القبور وإليها من اتخاذها مساجد الملعون من فعله وإن لم يبن مسجدًا فتُحرّم الصلاة في المقبرة

---

(١) يشرح الشيخ سليمان كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب المتقدّم.

وإلى القبور، بل لا تنعقد أصلًا لما في هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها مِن لعن مَن اتخذها مساجد، وروى مسلم عن أبي مرثد الغنوي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها**»، وعن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «**الأرض كلها مسجد إلَّا المقبرة والحمّام**»، رواه أحمد وأهل السنن وصححه ابن حبان والحاكم من طرق على شرط الشيخين.

وفي «صحيح البخاري» أنَّ عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر فقال: «القبر القبر»، وهذا يدل على أنه كان مِن المستقر عند الصحابة ما نهاهم عنه نبيهم ﷺ من الصلاة عند القبور، وفعل أنسٍ لا يدل على اعتقاد جوازه، فإنه لعله لم يره ولم يعلم أنه قبر، أو ذهل عنه، فلما نبهه عمر تنبه، وفي هذا كله إبطال قول مَن زعم أنَّ النَّهي عن الصلاة فيها لأجل النجاسة، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول ﷺ، بل العلّة في ذلك الخوف على الأمة أن يقعوا فيما وقعت فيه اليهود والنصارى وعبَّاد اللّات والعزَّى مِن الشرك.

ويدل على ذلك: أنَّ النبي ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعًا أنَّ هذا ليس لأجل النجاسة؛ لأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، فإنَّ الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم في قبورهم طريون، وقد لعن النبي ﷺ متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما هو لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصبًا يوفض إليها المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها.

قال ابن القيم: وبالجملة؛ فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده؛ جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أنَّ هذه المبالغة واللَّعن والنَّهي بصيغتيه صيغة «لا تفعلوا» وصيغة «إني أنهاكم» ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه، وقلّ نصيبه أو عدم مِن تحقيق «لا إله الا الله» فإنَّ هذا وأمثاله مِن النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكابا لنهيه وغرَّهم الشيطان بأن هذا التعظيم لقبور

المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيما وأشد فيهم غلوًّا كنتم بقربهم أسعد ومِن أعدائهم أبعد، ولعمر الله مِن هذا الباب بعينه دخل على عبَّاد يَغُوث ويَعُوق ونَسر، ودخل على عبَّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية وسلب خصائص الإلهية.

قلت: وممن علل بخوف الفتنة والشرك: الشافعي، وأبو بكر الأثرم، وأبو محمد المقدسي، وشيخ الاسلام، وغيرهم، وهو الحق.

قوله: (فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا) أي لَمَا علموا مِن تشديده في ذلك وتغليظه ولعن مَن فعله، فكيف يتخذون على قبره مسجدًا؟! وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجهَّال للصلاة عنده مِن غير شعور مِن الصحابة بذلك، فلذلك دفنوه في بيته.

قوله: (وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا) أي وإن لم يبن مسجدًا.

قوله: (بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا) الظاهر أنَّ الأول في الأمكنة المعدة للصلاة وإنَ لم يبن فيها مسجدًا، وهذا في أي موضع صلى فيه، وإن لم يعد لذلك، كالمواضع التي يصلي فيها المسافر ونحو ذلك، فعلى هذا إذا صلى عند القبور ولو مرة واحدة وإن لم يكن هناك مسجد فقد اتخذها مساجد.

قوله: (كما قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**») أي فسمى الأرض مسجدًا وليست مسجد مبنيًا لكن لما كانت يسجد فيها سميت مسجدًا، فدل هذا الحديث أنَّ مَن صلَّى عند القبور أو إليها فقد اتخذها مساجد، وهذا الحديث طرف من حديث صحيح متفق عليه عن جابر، قال البغوي في «شرح السنة»: أراد أنَّ أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم وأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا تخفيفًا عليهم وتيسيرًا، ثم خصّ مِن جميع المواضع: الحمام والمقبرة والمكان النجس.

وقوله: «طهورًا» أراد به التيمم.

وفي حديث جندب من الفوائد أيضًا:

العبرة في مبالغته ﷺ في النهي عن بناء المساجد على القبور، كيف بيَّن لهم ذلك أولا ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في النزع لم يكتف بها تقدم بل لعن مَن فعل ذلك، فدلَّت هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة على تحريم البناء على القبور مطلقًا، فلذلك اكتفى المصنف بإيرادها عن غيرها كحديث جابر: «أنَّ النبي ﷺ نهى أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه» رواه مسلم، وغيره، وزاد أبو داود والحاكم: «وأن يُكتَبَ عليه» ا.هـ[1].

فاحذروا - عباد الله - من شدِّ الرِّحال إلى القُبور.

واعلموا أنَّ الشِّرك سبب الخلودِ في النَّار، والحرمانِ مِن دخول الجنَّة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ باللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِـمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

نسأل الله العفو والعافية.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الأحاديث التي نهت عن اتخاذ القبور مساجد: ما رواه ابن مسعودٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ مِن شِرار النَّاس مَن تدركهم السَّاعة وهُم أحياء، والَّذين يتخذون القُبور مساجد**»[2].

قال الشيخ **سليمان بن عبد الوهاب** رحمه الله:

قوله: «**إنَّ مِن شِرار النَّاس**» هو بكسر الشين، جمع شر.

قوله: «**مَن تدركهم السَّاعة وهُم أحياء**» أي مَن تقوم عليهم الساعة بحيث ينفخ في

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٢٨٤ - ٢٨٦) باختصار يسير.

(٢) إسناده جيد: رواه أحمد، وأبو حاتم في «صحيحه».

الصور وهم أحياء، وهذا كحديثه الآخر الذي في مسلم: «**لا تقوم الساعة إلا على شِرار الخلق**».

فإن قلت: ما الجمع بين هذا وبين حديث ثوبان: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق**» وما في معناه؟

قيل: حديث ثوبان مستغرق للأزمنة عامٌّ فيها، وهذا مخصص، وسيأتي زيادة لذلك عند الكلام على حديث ثوبان إن شاء الله تعالى.

قوله: «**والَّذين يتخذون القُبور مساجد**»؛ «الذين» في محل نصب، عطفًا على «من» الموصولة، أي: إنَّ مِن شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد بالصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها، وهذا المعنى متواتر عن النبي ﷺ معلوم بالاضطرار من دينه، وكل ذلك شفقة على الأمة وخوفًا عليهم أن يقودهم ذلك إلى الشرك بها وبأصحابها كما قاد إلى ذلك اليهود والنصارى، فأبى عُبَّاد القبور إلَّا الضرب بهذه الأحاديث الجدار ونبذها وراء الظهر أو الدفع في صدورها وأعجازها بحمل ذلك على غير قبور الأنبياء والصالحين، أما قبورهم فتجوز الصلاة إليها وعندها وبناء المساجد والقباب عليها رجاء أن تصل اليهم العواطف الروحانية، ولا ريب أن هذا مراغمة ومحادة لله ورسوله، وهذا هو قول اليهود: ﴿**سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾ [البقرة: ٩٣]، فإن النبي ﷺ إنما لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد كما هو نص حديث عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وغيره، وقبور غيرهم إنما أخذ النهي عن البناء عليها من هذه الأحاديث ونحوها بقياس الأولى أو من عموم أحاديث أخر، فمن أعظم المراغمة والمناسبة والمحادة لله ورسوله أن تحمل على غير ما وردت فيه ويباح ما وردت بالنهي عنه ولعن من فعله، ولكن هذا شأن عُبَّاد القبور إنَّما يتبعون أهواءهم، ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [القصص: ٥٠].

وقد أجمع العلماء على النَّهي عن البناء على القبور وتحريمه ووجوب هدمه لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا مطعن فيها بوجه من الوجوه، ولا فرق في ذلك بين البناء في مقبرة مسبلة أو مملوكة، إلا أنه في المملوكة أشدّ، ولا عبرة بمن شذّ مِن المتأخرين فأباح ذلك إما مطلقًا وإما في المملوكة.

قال الإمام **أبو محمد بن قدامة**: «ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتَّخذوا قُبور أنبيائهم مَسَاجِد**» يحذِّر ما صنعوا، ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرُّب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم والتمسّح بها والصلاة عندها».

وقال شيخ الإسلام: «أمَّا بناء المساجد على القبور فقد صرَّح عامّة عُلماء الطوائف بالنَّهي عنه متابعةً للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم مِن أصحاب مالك والشافعي بتحريمه».

قال: «ولا ريب في القطع بتحريمه»، ثم ذكر الأحاديث في ذلك إلى أن قال: «فهذه المساجد المبنيَّة على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافا بين العلماء المعروفين».

وقال ابن القيم: «يجب هدم القباب التي على القبور لأنها أُسِّست على معصية الرسول ﷺ ».

وقال أبو حفص: «تُحرَّم الحجرة بل تهدم».

فإذا كان هذا كلامه في الحجرة فكيف بالقبة؟!

وقال الشافعي: «أكره أن يعظّم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدًا مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده مِن الناس».

وقال أيضًا: «تسطَّح القبور ولا تُبنى ولا تُرفع، وتكون على وجه الأرض».

وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة مِن الأبنيه منهم ابن الجميزى والظهير الترميني وغيرهما.

وقال القاضي ابن كج: «ولا يجوز أن تجصص القبور ولا أن يُبنى عليها قباب ولا غير قباب، والوصية بها باطلة».

وقال الأذرعي: «وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها مِن الأبنية العظيمة وإنفاق الأموال الكثيرة فلا ريب في تحريمه».

قلت: وجزم النووي في «شرح المهذب» بتحريم البناء مطلقًا، وذكر في «شرح مسلم» نحوه أيضًا.

وقال القرطبي في حديث جابر: «نهى أن يُجَصص القبر أو يُبنى عليه» وبظاهر هذا الحديث قال مالك: وكره البناء والجص على القبور، وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه.

ووجه النَّهي عن البناء والتجصيص في القبور: أنَّ ذلك مباهاة واستعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبُّه بِمَن كان يعبد القُبور ويعظِّمها، وباعتبار هذه المعاني وبظاهر هذا النَّص ينبغي أن يقال: هو حرام، كما قال به بعض أهل العلم.

وقال ابن مرشد: كره مالك البناء على القبر، وجعل البلاطة المكتوبة وهو من بدع أهل الطول أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف فيه[(١)].

وقال الزيلعي في «شرح الكنز»: ويُكره أن يُبني على القبر. وفي «الخلاصة»: ولا يجصص القبر ولا يطيّن ولا يرفع عليه بناء.

وذكر أيضًا **قاضي خان**: أنه لا يُجصص القَبر ولا يُبنى عليه، لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص وعن البناء فوق القبر، والمراد بالكراهة عند الحنفية كراهة التحريم التي هي في مقابلة ترك الواجب، وقد ذكر ذلك ابن نجيم في «شرح الكنز»، ومثل هذا كثير في كلام العلماء أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم.

والمقصود أن كلام العلماء موافق لما دلّت عليه السُّنَّة الصَّحيحة في النَّهي عن البناء على القبور.

واعلم أنه قد وقع بسبب البناء على القبور من المفاسد التي لا يحيط بها على التفصيل إلا الله، ما يغضب لله من أجله كل مَن في قلبه رائحة إيمان، كما نبَّه عليه ابن القيم وغيره؛ **فمنها**: اعتيادها للصلاة عندها، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.

---

(١) في «الفقه على المذاهب الأربعة» للجزيري (١/ ٥٠٧): «يكره أن يُبنى على القبر بيت أو قبة أو مدرسة أو مسجد أو حيطان تحدق به إذا لم يقصد بها الزينة والتفاخر، وإلَّا كان ذلك حرامًا» ا.هـ.

ومنها: تحري الدُّعاء عندها، ويقولون: مَن دعا الله عند قبر فلان استجاب له، وقبر فلان الترياق المجرَّب، وهذا بدعة منكرة.

ومنها: ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء وجلب النَّعماء، ويقولون: إنَّ البلاء يدفع عن أهل البلدان بقبور مَن فيها مِن الصالحين، ولا ريب أنَّ هذا مخالف للكتاب والسُّنة والإجماع، فالبيت المقدَّس كان عنده مِن قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله، فلما عصوا الرسول وخالفوا ما أمرهم الله به سلَّط الله عليهم مَن انتقم منهم، وكذلك أهل المدينة لما تغيَّروا بعض التغير جرى عليهم عام (الحرة) مِن النَّهب والقتل وغير ذلك مِن المصائب ما لم يجر عليهم قبل ذلك، وهذا أكثر مِن أن يحصر.

ومنها: الدخول في لعنة رسول الله ﷺ باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها.

ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد كما هو الواقع، ودين الله بضد ذلك.

ومنها: اجتماعهم لزيارتها واختلاط النساء بالرجال وما يقع في ضمن ذلك من الفواحش وترك الصلوات، ويزعمون أنَّ صاحب التربة تحملها عنهم، بل اشتهر أن البغايا يسقطن أجرتهن على البغاء في أيام زيارة المشايخ، كالبدوي وغيره، تقرُّبًا إلى الله بذلك، فهل بعد هذا في الكفر غاية؟!

ومنها: كسوتها بالثياب النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ونحو ذلك.

ومنها جعل الخزائن والأموال ووقف الوقوف لما يحتاج إليه مِن ترميمها ونحو ذلك.

ومنها: إهداء الأموال ونذر النذور، ولسدنتها العاكفين عليها الذين هم أصل كل بلية وكفر، فإنهم الذين يكذبون على الجهَّال والطغام بأنَّ فلانًا دعا صاحب التربة فأجابه واستغاثه فأغاثه، ومرادهم بذلك تكثير النذر والهدايا لهم.

ومنها: جعل السّدنة لها كسدنة عُبَّاد الأصنام.

ومنها: الإقسام على الله في الدعاء بالمدفون فيها.

ومنها: أنَّ كثيرًا مِن الزُّوار إذا رأى البناء الذي على قبر صاحب التربة سجد له،

ولا ريب أن هذا كفر بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل هذا هو عبادة الأوثان، لأن السجود للقبة عبادة لها، وهو مِن جنس عبادة النصارى للصور التي في كنائسهم على صور مَن يعبدونه بزعمهم الباطل، فإنهم عبدوها ومَن هي صورته، وكذلك عبادة القبور لما بنوا القباب على القبور آل بهم إلى أن عبدت القباب، ومَن بنيت عليه من دون الله عز وجل.

ومنها: النَّذر للمدفون فيها وفرض نصيب مِن المال والولد، وهذا هو الذي قال الله فيه: ﴿**وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا**﴾ الآية [الأنعام: ١٣٦]، بل هذا أبلغ، فإن المشركين ما كانوا يبيعون أولادهم لأوثانهم.

ومنها: أنَّ المدفون فيها أعظم في قلوب عبَّاد القبور مِن الله وأخوف، ولهذا لو طلبت مِن أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت مِن الأيمان كاذبًا أو صادقًا، وإذا طلبت بصاحب التربة لم يقدم إن كان كاذبًا، ولا ريب أنَّ عبَّاد الأوثان ما بلغ شركهم إلى هذا الحدّ بل كانوا إذا أرادوا تغليظ اليمين غلظوها بالله، كما في قصة القسامة وغيرها.

ومنها: سؤال الميِّت قضاء الحاجات، وتفريج الكُربات، والإخلاص له من دون الله في أكثر الحالات.

ومنها: التضرُّع عند مصارع الأموات والبكاء بالهيبة والخشوع لمن فيها، أعظم مما يفعلونه مع الله في المساجد والصلوات.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله وهي المساجد، فيعتقدون أنَّ العبادة والعكوف فيها أفضل مِن العبادة والعكوف في المساجد، وهذا أمرٌ ما بلغ إليه شرك الأولين، فإنهم يعظِّمون المسجد الحرام أعظم مِن بيوت الأصنام، يرون فضله عليها، وهؤلاء يرون العكوف في المشاهد أفضل من العكوف في المساجد.

ومنها: أنَّ الذي شرَّعه الرسول ﷺ في زيارة القبور إنما هو تذكرة الآخرة، كما قال: «**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**»[1]، والإحسان إلى المزور بالترحم عليه والدعاء له

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٥٧١)، وصححه الألباني، ولفظه: «**كُنت قد نهيتكم عن زيارة** =

والاستغفار وسؤال العافية له فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميِّت، فقلب عبَّاد القبور الأمر وعكسوا الدِّين وجعلوا المقصود بالزيارة: الشِّرك بالميِّت ودعاءه والدُّعاء به، وسؤاله حوائجهم ونصرهم على الأعداء، ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميِّت، ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله مِن الدعاء والترحم عليه والاستغفار له.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله عباد القبور بها، فإنه يؤذيهم ما يفعلونه عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

ومنها: محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها.

ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكبير والإثم العظيم.

وكل هذه المفاسد العظيمة وغيرها مما لم يذكر إنما حدثت بسبب البناء على القبور، ولهذا تجد القبور التي ليس عليها قباب لا يأتيها أحد ولا يعتادها لشيء مما ذكر إلَّا ما شاء الله، وصاحب الشرع أعلم بما يؤول إليه هذا الأمر، فلذلك غلظ فيه وأبدأ وأعاد ولعن من فعله، فالخير والهدى في طاعته، والشَّرّ والضلال في معصيته ومخالفته، والعجب ممن يشاهد هذه المفاسد العظيمة عند القبور ثم يظن أنَّ النبي ﷺ إنما نهى عن اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة كما يظنه بعض متأخري الفقهاء، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذَكَرَ المجازر والحشوش، بل ذِكر التحرّز مِن البول والغائط أَوْلى، وإنما ذلك لأجل نجاسة الشرك التي وقعت مِن عبَّاد القبور لَمَّا خالفوا ذلك ونبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا، فبئس ما يشترون» ا.هـ[1].

وللحديث بقيّة إن شاء الله تعالى، فإلى اللِّقاء في الخطبة القادمة.

= القُبور فزوروا القبور فإنها تزهِّد في الدنيا وتُذكِّر الآخرة».

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٢٨٧ - ٢٩٢).

الخطبة السابعة والأربعون بعد المائة:

(ب) عودة الناس إلى عبادة الأوثان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلاَ تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»[1].

هذه وصية نبويّة كريمة، نهانا النَّبيُّ ﷺ فيها عن نهيين، وأمرنا فيها بأمر.

وما أحوجنا إلى تنفيذ ما أمر به، والانتهاء عمَّا نهى عنه.

هذا؛ وقد وقفت على شرحٌ رائع لهذه الوصية لفضيلة الشيخ سليمان بن عبد الوهاب

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٢٦).

- رحمه الله تعالى - أنقله لكم بتمامه لأهميته، والله الموفَّق لِما يُحب ويرضى.

قال رحمه الله: «قوله: **لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**».

قال شيخ الإسلام - نوَّر الله قَبرَهُ - : أي لا تعطِّلوها مِن الصلاة فيها والدُّعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحريها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبَّه بهم .

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر مرفوعًا: «**اجعلوا مِن صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورًا**».

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر مرفوعًا: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر مِن البيت الَّذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه**».

وفيه أنَّ الصلاة في المقبرة لا تجوز، وأن التطوع في البيت أفضل منه في المسجد، وفي حديث أبي هريرة الذي ذكرنا كراهة القراءة في المقابر، وكل هذا إبعاد لأمته عن الشرك.

قوله: «**وَلاَ تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**»:

قال شيخ الإسلام: (العيد) اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائدًا إمَّا بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك، وتقدم ذلك .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان، مأخوذ من المعاودة والاعتياد، فإن كان اسما للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنًى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيدًا للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام العيد فيها عيدًا وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالاسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منًى، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنًى ومزدلفة وعرفة والمشاعر.

وقال غيره: هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتيابه، ونهيٌ أن يجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين، فكأنه قال: لا تجعلوه كالعيد الذي يكون من الحول إلى الحول، واقصدوه كل ساعة وكل وقت.

قال ابن القيم رحمه الله: وهذا مراغمة ومحادة ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ وقلب للحقائق، ونسبه الرسول ﷺ إلى التلبيس والتدليس بعدالتناقض، فقاتل الله أهل الباطل أنّى يؤفكون، ولا ريب أنَّ مَن أمر الناس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه بقوله: «لا تجعلوا عيدا» فهو إلى التلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان، وهكذا غُيِّرت أديان الرُّسل، ولولا أنَّ الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابين عنه لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله، ولو أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضُّلَّال لم ينه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ويلعن فاعل ذلك، فإنه إذا لعن مَن اتخذها مساجد يعبد الله فيها، فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها وأن يعتاد قصدها وانتيابها ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول؟! وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثنا يُعبد؟! وكيف يقول أعلم الخلق بذلك، ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن خشي أن يتخذ مسجدًا؟! وكيف يقول: «**لا تجعلوا قبري عيدا وصلوا علي حيثما كنتم**»؟! وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضُّلَّال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟! وهذا أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين رضي الله عنهما نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره ﷺ، واستدل بالحديث وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده علي رضي الله عنهما، وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضلال، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته كره أن يقصد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيدًا. انتهى .

قلت: وكيف يريد النبي ﷺ هذا المعنى ويعبِّر عنه بهذا الكلام مع أنه أفصح الخلق وأنصحهم؟! وكان يمكنه أن يقول: أكثروا زيارة قبري أو اجعلوه عيدا تعتادون المجيء إليه والعبادة عنده؟! فظهر بطلان هذا القول .

إذا تبيّن ذلك فمعنى الحديث: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص واجتماع معهود كالعيد الذي يكون على وجه مخصوص في زمان مخصوص، وذلك يدل على المنع في جميع القبور وغيرها لأن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيدًا فقبر غيره أَوْلى بالنهي كائنًا مَن كان.

قوله: «**وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**»:

قال شيخ الإسلام: يشير بذلك إلى أنَّ ما ينالني منكم مِن الصَّلاة والسَّلام يحصل مع قربكم مِن قبري وبعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيدًا. انتهى.

وقد روى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعًا: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ**».

وعن أوس بن أوس مرفوعًا: «**إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَةُ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**». قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ[١]؟ فَقَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أن تَأْكُل أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ**»، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أنَّ صلاتنا عليه تبلغه سواء كنا عند قبره أو لم نكن، فلا مزية لمن سلَّم عليه أو صلَّى عند قبره، كما قال الحسن بن الحسن: ما أنتم ومن بالأندلس إلَّا سواء.

وأما حديث: «**مَن صلَّى عليَّ عند قبري سمعته، ومَن صلَّى عليَّ غائبًا بلغته**»، فرواه البيهقي وغيره من حديث العلى بن عمرو الحنفي، حدثنا أبو عبدالرحمن عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره.

قال البيهقي: أبو عبد الرحمن هذا هو محمد بن مروان السدي فيما أرى وفيه نظر.

قلت: محمد بن مروان السدي الصغير، قال فيه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال الجوزجاني: ذاهب الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث، وكذلك قال أبو حاتم الرازي، والأزدي، وقال صالح بن محمد: كان يضع الحديث.

على أن معناه صحيح معلوم مِن أحاديث أخر كإخباره بسماع الموتى لسلام مَن يسلم عليهم إذا مر على قبورهم .

فإن قيل: إذا سمع سلام المسلم عليه عند قبره حصلت المزية بسماعه.

قيل: هذا لو حصل الوصول إلى قبره، أما وقد منع الناس مِن الوصول إليه بثلاثة الجدران فلا تحصل مزية، فسواء سلَّم عليه عند قبره أو في مسجده إذا دخله أو في أقصى

---

(١) أرمت: بليت.

المشرق والمغرب فالكل يبلغه كما وردت به الأحاديث، وليس في شيء منها أنه يسمع صوت المصلي والمسلم بنفسه، إنما فيها أنَّ ذلك يُعرض عليه ويبلغه ﷺ، ومعلوم أنه أراد بذلك الصلاة والسلام الذي أمر الله به، سواء صلَّى عليه في مسجده أو في مدينته أو في مكان آخر، فعلم أنَّ ما أمر الله به من ذلك فإنه يبلغه، وأما مَن سلَّم عليه عند قبره فإنه يردّ عليه، وذلك كالسلام على سائر المؤمنين ليس هو مِن خصائصه ولكن لا يوصل إلى قبره ﷺ» ا.هـ(١).

هذا، وقد روى ضياء الدين المقدسيّ في «المختارة» (٢)، حديثًا يقارب في لفظه الحديث السابق، ولفظه:

عَنْ عليّ بن الحسين أنه رأى رجلا يجيء إلى فُرْجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم**».

قال الشيخ **سليمان بن عبد الوهاب** رحمه الله:

قوله: (عن علي بن الحسين) أي ابن علي بن أبي طالب المعروف بـ (زين العابدين) رضي الله عنه، وهو أفضل التابعين مِن أهل بيته وأعلمهم، قال الزُّهريّ: ما رأيت قرشيًّا أفضل مِنْهُ، مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح، وأبوه الحسين سبط النبي ﷺ وريحانته، حفظ عن النبي ﷺ، واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة.

قوله: (إنه رأى رجلا يجيء إلى فُرجة) هو بضم الفاء وسكون الراء، واحدة الفُرج، وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما.

قوله: (فيدخل فيها فيدعو، فنهاه...) إلى آخر الحديث، هذا يدل على النَّهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدُّعاء والصّلاة عندها - كما تقدم بعض ذلك - لأنَّ ذلك مِن اتخاذها عيدًا كما فهمه علي بن الحسين من الحديث، فنهى ذلك الرجل عن المجيء

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٣٠٤ - ٣٠٨).

(٢) كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على «الصحيحين» والحديث المذكور إسناده حسن أو صحيح.

إلى قبر النبي ﷺ للدعاء عنده، فكيف بقبر غيره؟!

ويدل أيضًا على أنَّ قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من اتخاذه عيدًا المنهي عنه، ولهذا لما رأى الحسن بن الحسن سُهيلًا عند القبر نهاه عن ذلك وذكر له الحديث مستدلًّا به، وأمر بالسلام عليه عند دخول المسجد.

قال شيخ الإسلام: ما علمت أحدًا - أي مِن علماء السَّلف - رخَّص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيدًا.

ويدل أيضًا على أنَّ قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه؛ لأن ذلك مِن اتخاذه عيدًا.

وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ؛ لأن السَّلف لم يكونوا يفعلون ذلك. قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، بل كان الصحابة والتابعون يأتون إلى مسجده ﷺ فيصلون خلف أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ثم إذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام لعلمهم أنَّ الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم بقوله: «**لا تتخذوا قبري عيدًا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني**» فبيَّن أنَّ الصلاة تصل إليه مِن بُعد، وكذلك السلام، ولعن مَن اتخذ قبور الأنبياء مساجد.

وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها مِن الباب، إذ كانت عائشة فيها وبعد ذلك، إلى أن بني الحائط الآخر وهم مع ذلك التمكن مِن الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلامًا أو سلامًا فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبيَّن لهم الأحاديث، أو أنه قد ردّ عليهم السلام بصوت يسمع مِن خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عن قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أنَّ صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجًا مِن القبر ويظنون أنَّ نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأنَّ روح الميِّت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود أنَّ الصحابة ما كانوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنَّما كان بعضهم يأتي مِن خارج فيسلم عليه إذا قَدِمَ مِن سفر، كما كان ابن عمر رضي الله عنه يفعل، قال عبيد الله بن عمر عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه» ثم ينصرف. قال عبيد الله: ما نعلم أحدًا مِن أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر، وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام: إن ذلك لم يُنقل عن أحد مِن الصحابة فكان بدعة محضة.

وفي «المبسوط» قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن ليسلم ويمضي، والحكاية التي رواها القاضي عياض بإسناده عن مالك في قصته مع المنصور وأنه قال لمالك: «يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال: ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به يشفعه الله فيك» فهذه الرواية ضعيفة أو موضوعة لأن في إسنادها من يُتهم محمد بن حميد، ومَن تجهل حاله، ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره وذلك بعد تحيته والسلام عليه، فظاهر هذا أنه يقف للدعاء بعد السلام.

وذكر أصحاب مالك: أنه يدعو مستقبلا القبلة يوليه ظهره.

وبالجملة فقد اتَّفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟ ومن الحجة في ذلك ما روى ابن زبالة وهو في أخبار المدينة عن عمر بن هارون عن سلمة بن وردان وهما ساقطان قال: «رأيت أنس بن مالك يسلم على النبي ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو».

وفي الحديث دليلٌ على منع شدّ الرِّحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد لأن ذلك من اتخاذها أعيادًا بل من أعظم الأسباب الإشراك بأصحابها، كما وقع من عبَّاد القبور الذين يشدّون إليها الرِّحال وينفقون في ذلك الكثير مِن الأموال، وليس لهم مقصود إلَّا مجرد الزيارة للقبور تبرُّكًا بتلك القِباب والجدران، فوقعوا في الشرك.

هذه المسألة التي أفتى فيها شيخ الإسلام - أعني مَن سافر لمجرد زيارة قبور

الأنبياء والصالحين ومشاهدهم - ونقل فيها اختلاف العلماء في الإباحة والمنع فَمِن مبيح لذلك كأبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي، ومِن مانعٍ لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبي محمد الجويني والقاضي عياض، وهو قول الجمهور، نصّ عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة وهو الصواب، فقام عليه بعض المعاصرين له كالسبكي ونحوه فنسبه إلى إنكار الزيارة مطلقًا، وهو لم ينكر منها إلا ما كان بشدّ رحل، كما أنكره جمهور العلماء قبله أو الزيارة التي يكون فيها دعاء الأموات والاستغاثة بهم في الملمات مع ما ينضم إلى ذلك من أنواع المنكرات.

ومما يدل على النهي عن شد الرحال إلى القبور ونحوها: ما أخرجاه في «الصحيحين» عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**لا تشدّ الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**» فدخل في ذلك شدها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهيًا وإمَّا أن يكون نفيًا للاستحباب، وقد جاء في رواية في «الصحيح» بصيغة النَّهي صريحًا، فتعيَّن أن يكون للنهي، ولهذا فهم منه الصحابة المنع كما في «الموطأ» و«السنن» عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة وقد أقبل مِن الطور: لو أدمتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى**».

وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في «أخبار المدينة» بإسناد جيد عن قزعة قال: أتيت ابن عمر فقلت: إني أريد الطور، فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى، فدع عنك الطور فلا تأته.

وروى أحمد وعمر بن شبة أيضًا عن شهر بن حوشب قال: سمعت أبا سعيد - وذُكر عنده الصلاة في الطور - فقال: قال رسول الله ﷺ : «**لا ينبغي للمطي أن تشد رحالها الى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى**» فأبو سعيد جعل الطور مما نهى عن شدّ الرِّحال إليه، مع أن اللَّفظ الذي ذكره إنما فيه النَّهي عن شدَّها إلى المساجد، فدل على أنه علم أنَّ غير المساجد أولى بالنَّهي، والطور إنما يسافر مَن يسافر إليه لفضيلة البقعة، وأن الله تعالى سماه «الوادي المقدس»، و«البقعة المباركة»، وكلم الله موسى هناك، وهذا ظاهر لا يخفى على أحد ممن يقول بفحوى الخطاب وتنبيهه، وهم الجمهور الأئمة الأربعة وأتباعهم، ولهذا لم يوجبوا على من نذر

أن يسافر إلى أثر نبي من الأنبياء قبورهم أو غير قبورهم الوفاء بذلك، بل لو سافر إلى مسجد قباء من بلد بعيد لم يكن هذا مشروعًا باتفاق الأئمة الأربعة، مع أنَّ النبي ﷺ كان يأتيه كل سبت راكبًا وماشيًا، وإن كان في وجوب الوفاء بنذر إتيانه خلاف، والجمهور على أنه لا يجب.

وقد صرح مالك وغيره بأن من نذر السفر إلى المدينة النبوية، إن كان مقصوده الصلاة في مسجد النبي ﷺ أوفى بنذره، وإن كان مقصوده مجرد زيارة القبر من غير صلاة في المسجد لم يف بنذره، قال: لأن النبي ﷺ قال: «**لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد**» ذكره إسماعيل بن إسحاق في «المبسوط»، ومعناه في «المدونة» و«الجلاب» وغيرهما من كتب أصحاب مالك.

وبالجملة فقد تنازع العلماء في جواز شدّ الرِّحال إلى غير المساجد الثلاثة، فالجمهور على المنع، وطائفة من المتأخرين على الجواز، فاستحباب شدّ الرِّحال إلى القبور والمشاهد والتقرُّب به إلى الله كما ظنه السبكي وغيره قول مبتدع مخالف للإجماع قبله، والأحاديث التي احتج بها كحديث: «مَن زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي» ونحوها، لا يصح منها شيء عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من أصحابه البتة، بل هي ما بين ضعيف وموضوع، أو كلها موضوعة، كما قد بيَّن عللها شيخ الإسلام وغيره، وكثير منها لا يدل على محل النزاع، إذ ليس فيه إلَّا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره شيخ الإسلام ولا غيره من العلماء لأنه محمول على الزيارة الشرعية الجارية على وفق مراد النبي ﷺ، وهي التي لا يكون فيها شرك ولا شدّ رحل إلى قبر، وبتقدير ثبوتها لا تدل على شدّ الرحال إلى قبر غيره، والسبكي أجاز ذلك في سائر القبور، فخالف الأحاديث وخرق الإجماع، والله أعلم» اهـ[(١)].

أخي الكريم...

هذا هو طريق الحق، قَدْ بَانَ لك ضِياؤه، وظهر لك سناؤه، فَسِر عليه ولا تلتفت لآراء المخالفين.

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٣١٠ - ٣١٤).

وليتق الله أولئك الذين ينكسرون في خشوع وخضوع أمام قبور الأولياء، بل ويتمرّغون على أعتابها، ويُقبِّلون بناءها، بينما تراهم أمام مولاهم وهم في صلاتهم لا يخشعون ولا ينكسرون!!

ولا حول ولا قوّة إلَّا بالله العليّ العظيم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقد استبعد البعض رجوع بعض الناس إلى الوثنية!! وهذا من قلّة علمهم، فَعن أبي هُريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**لا تَقومُ السَّاعة حتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ**[١] **نِسَاءِ دَوسٍ حَول ذِي الخَلَصةَ**» وكانت صَنمًا تَعبُدُها دَوسٌ في الجَاهِلية بِتَبَالَة [٢].

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «والمراد يضطربن من الطواف حول ذي الخَلَصَة، أي: يكفرون ويرجعون إلى عبادة الأصنام وتعظيمها» ا.هـ [٣].

وَعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَذْهَبُ اللّيْلُ والنهارُ حتى تُعْبَدَ اللاَّتُ والعُزَّى**». فقلت: يا رسول الله، إن كنتُ لأظنُّ حين أنزل الله: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [الصف: ٩]. أن ذلك تامًّا. قال: «**إنّه سيكون مِنَ ذلك ما شَاء الله، ثم يَبْعَثُ الله رِيحًا طَيِّبةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ في قَلْبه مثقالُ حَبَّة خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لا خَيْر فِيهِ، فَيَرْجعون إلى دين آبائهم**» [٤].

---

(١) **أليات**: معناه أعجازهن.

(٢) رواه مسلم (٢٩٠٧)، وتبالة: موضع باليمن.

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٣٥٤).

(٤) رواه مسلم (٢٩٠٧).

أخي المسلم...

هذا ما سيكون، فارفع يديك إلى ربِّك وقل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

آمين... آمين... آمين

الخطبة الثامنة والأربعون بعد المائة:

(جـ) عودة الناس إلى عبادة الأوثان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعَن جُنْدَبٌ بن عَبدِ الله البَجليّ أنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّى أَبْرَأُ[١] إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّى أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[٢].

---

(١) أي: أمتنع من هذا وأنكره، والخليل: هو المنقطع إليه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢/ ٦٧، ٦٨)، وأبو عوانة (١/ ٤٠١) والسياق له.

عباد الله ...

كثير من مُسلمي اليوم شديد الرغبة في شدِّ الرِّحال إلى المساجد التي بها أضرحة، وتشهد «الموالد» التي تُقام للمشايخ أعدادًا تفوق أعداد حجَّاج بيت الله الحرام!!

وباسم الأولياء وحبّهم ترتكب الموبقات، وتستباح الحُرمات؛ مِن اختلاط، وعُرى، وسرقة، ونصب، وما خفي كان أعظم، أضف إلى ذَلِكَ: دعاء الموتى، وطلب تفريج الكربات، وإزالة العقبات... إلخ.

وردّ هؤلاء إلى رحاب التوحيد الخالص فرض عَين على كل مسلم، ولا يجوز بكائن مَن كان أن يرفع صوته فوق صوت النَّبيِّ ﷺ وإلَّا حَبِطَ عَمله وكان من الخَاسرين.

وإليك - أخي الحبيب - بعض الأحاديث الناهية عن اتخاذ القبور مساجد:

١- عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ فِى مَرَضِهِ الَّذِى مَاتَ فِيهِ: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد**».

قَالَتْ: وَلَوْلاَ ذَلِكَ لأَبْرَزُوا قَبْرَهُ[(١)] غَيْرَ أَنِّى أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا[(٢)].

٢- وعَن عَائِشَةُ - أيضًا - وَابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ حِينَ نَزَلَ بِهِ جَعَلَ يُلْقِى خَمِيصَةً[(٣)] لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». تَقُولُ عَائِشَةُ: يُحَذِّرُ مِثْلَ الَّذِى صَنَعُوا[(٤)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وكأنه ﷺ علم أنَّهُ مرتحل من ذَلِكَ المرض فخاف أن يُعظّم قبره كما فعل مَن مضى، فلعن اليهود والنَّصارى إشارة إلى ذمّ مَن يفعل فعلهم» - يعني من هذه الأمة.

٣- وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا كَانَ مَرَضُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذَاكَرَ

---

(١) أي: كشف قبره ﷺ ولم يتخذ عليه الحائل، والمراد: الدفن خارج بيته، كذا في «فتح الباري».

(٢) متفق عليه.

(٣) الخميصة: ثوب خزّ أو صوف معلّم.

(٤) متفق عليه.

بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيسَةً بِأَرْضِ الحَبَشَةِ - يُقَالُ لَهَا: مَارِيَةُ - وَقَدْ كَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَأُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَدْ أَتَتَا أَرْضَ الحَبَشَةِ فَذَكَرْنَ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرِهَا، قَالَتْ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوم القِيامة**»[1].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «هذا الحديث يدلّ على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم فيها كما يفعله النصارى، ولا رَيب أن كل واحد منها مُحرَّم على انفراده: فتصوير صور الآدميين يَحرُم، وبناء القبور على المساجد بانفراد يحرمُ، كما دلّت عليه نصوص أخرى يأتي ذكر بعضها.

قال: والتصاوير التي في الكنيسة التي ذكرتها أم حبيبة وأُم سلمة كانت على الحيطان ونحوها، ولم يكن لها ظلّ، فتصوير الصور على مثال صور الأنبياء والصالحين للتبرّك بها والاستشفاع بها يَحرم في دين الإسلام، وهو من جنس عبادة الأوثان، وهو الذي أخبر النبيّ ﷺ أن أهله شرار الخلق عند الله يوم القيامة، وتصور الصور للتأسّي برؤيتها أو للتنزه بذلك والتّلهي مُحرَّم، وهو مِن الكبائر، وفاعله من أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة، فإنه ظالم ممثل بأفعال الله التي لا يقدر على فعلها غيره، وأنه تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، سُبْحَانَهُ وتعالى»[2].

عباد الله ...

قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى: «لقد تبيَّن من الأحاديث السابقة خطر اتخاذ القبور مساجد، وما على مَن فعل ذلك مِن الوعيد الشديد عند الله عَزَّ وَجَلَّ، فعلينا أن نفقه معنى الاتخاذ المذكور حتى نحذره فأقول:

الذي يمكن أن يُفهم من هذا الاتخاذ إنما هو ثلاث معان:

الأول: الصلاة على القبور بمعنى السجود عليها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) انظر «مختصر تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» للألباني، إعداد الأستاذ محمود مهدي الإستانبولي (ص١٠، ١١)، نقلًا عن «الكواكب الدراري» (٦٥/ ٨٢/ ٢).

الثاني: السجود إليها واستقبالها بالصلاة والدعاء.

الثالث: بناء المساجد عليها وقصد الصلاة فيها.

وجملة القول: أن الاتخاذ المذكور في الأحاديث المتقدمة يشمل كل هذه المعاني الثلاثة، فهو من جوامع كلمه ﷺ، وقد قال بذلك الإمام الشافعي رحمه الله، ففي كتابه «الأم» ما نصّه: «وأكره أن يُبنى على القبر مسجد، وأن يُسَوّى أو يُصلَّى عليه، وهو غير مُسوّى - يعني أَنَّهُ ظاهر معروف - أو يُصلَّى إليه.

قال: وإن صلى إليه أجزأه، وقد أساء.

أخبرنا مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود والنَّصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

قال: وأكره هذا للسُّنة والآثار، وأنه كرّه والله تعالى أعلم أن يُعظّم أحد من المسلمين - يعني يتخذ قَبره مسجدًا - ولم تؤمن في ذَلِكَ الفتنة والضلال على ما يأتي بعده»[(١)].

هذا، وقد عدَّ العلماء اتخاذ المساجد على القبور من الكبائر، ومن **أقوالهم في ذَلِكَ**:

(١) قول الإمام **محمود خطَّاب السُّبكي** رحمه الله: «... فاتخاذ القبور التي لم تندرس مساجد؛ حرامٌ كما يحرّم بناء المساجد على القبور، ويجب هدم كُلّ مسجد بُني على قبر، إنما نهى النبيُّ ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدًا خوفًا من المبالغة في تعظيمه والافتنان به، وربما أدَّى ذَلِكَ إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية.

ولما احتاجت الصحابة والتابعون رضي الله عنهم إلى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، وفيها حجرة عائشة - رَضِي اللَّـهُ عَنْهَا - مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر، بنوا على القبر حيطانًا مرتفعة مستديرة حوله، لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوامّ ويؤدي إلى المحظور.

ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين حرفوهما حتى التقيا، فلا يتمكّن أحد من

---

(١) «مختصر تحذير الساجد» (١٢ - ١٤).

استقبال القبر، وقد حمَّل بعضهم الوعيد على مَن كان في ذَلِكَ الزمان لقرب العهد بعبادة الأوثان، وهو تقييد بلا دليل، لأن التعظيم والافتتان لا يختصّان بزمان دون زمان» ا.هـ[١].

(٢) وقال الشيخ علي محفوظ رحمه الله تعالى:

«ومن هذه البدع: بناء المساجد على القبور.

ومِن البدع الفاشية: وقوف بعض الزائرين قليلًا بغاية الخشوع عند الباب كأنهم يستأذنون ثم يدخلون، وبعضهم يقف أمام القبر واضعًا يديه كالمصلِّي ثم يجلس، فهذا كله من البدع التي لم يشهد لها أصل ولا حال ولا أدب يقتضيه...

ومنشأ هذه البدعة: عمل الشيعة، فإنهم عند زيارتهم للأئمة رضي الله عنهم ينادي أحدُهم: أدخل يا أمير المؤمنين؟ أو: يا ابن بنت رسول الله، أو نحو ذَلِكَ، ويزعمون أن علامة الإذن حصول رقة القلب ودمع العين، وهذا مما لم يُعرف عن أحدٍ مِن السَّلف ولا ذكره أحد من الفقهاء ولا يعدّ فاعله إلا مضحكة للعقلاء.

ومِن البدع: اتخاذ المقابر مساجد بالصلاة إليها، فعن أبي سعيد الخدري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأرض كلها مسجد إلَّا المقبرة والحمَّام**»[٢].

والسرّ في ذَلِكَ أن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرّب إليها.

وقد ذكر ابن عباس وغيره من السلف أن ودًّا وسواعًا وأخواتها كانوا قومًا صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوّروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم وكان هذا مبدأ عبادة الأصنام.

ولهذه المفسدة نهى النبيُّ ﷺ عن الصلاة في المقبرة مطلقًا وإن لم يقصد الصلاة عندها، ووقت طلوع الشمس وعند استوائها، وعند غروبها لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة للشمس فيها، فنهى أمّته عن الصلاة وإن لم يقصدوا ما قصد

---

(١) «الدين الخالص» (٣/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) صحيح: انظر «صحيح سنن أبي داود» (٤٦٣).

المشركون سدًّا للذريعة وبعدًا عن التشبّه بعبدة الأوثان.

وعلى الجملة؛ تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبركًا وإعظامًا وكذا الصلاة عليها للتبرّك والإعظام، كما صرّح به الإمام النووي في «شرح المهذب»، وليس معنى الإعظام أن تقصد أرباب القبور بالسجود فإنه كفر صراح، بل المعنى أَنَّهُ بتحرِّيه الصلاة لله تعالى على هذا الوجه زاعمًا أَنَّهُ أرجى للقبور عند الله تعالى ببركة صاحب الضريح يكون قد أعظم من شأن هذا الولي وهذا يقع كثيرًا من العامة» ا.هـ[١].

(٣) وقال الإمام **ابن حجر الهيتمي** رحمه الله تعالى: «الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون: اتخاذ القبور مساجد وإيقاد السُّرج عليها، واتخاذها أوثانًا والطواف بها واستلامها والصلاة إليها»[٢].

فعدّ رحمه الله كل ما تقدّم من الكبائر.

(٤) وقال **الإمام القرطبي** رحمه الله : «قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد»[٣].

(٥) وقال **الإمام ابن القيم** رحمه الله – بعد أن ذكر مسجد الضرّار الذي نهى الله تعالى نبيّه أن يُصلي فيه، وكيف أَنَّهُ ﷺ هَدَمه وحَرَقه – قال:

«**ومنها:** تحريقُ أمكنة المعصية التى يُعصى اللهُ ورسولُه فيها وهدمُها، كما حرقَ رسول الله ﷺ مسجد الضِّرار، وأمر بهدمه، وهو مسجدٌ يُصلَّى فيه، ويُذكر اسمُ الله فيه، لما كان بناؤه ضِرارًا وتفريقًا بين المؤمنينَ، ومأوى للمنافقين، وكُلُّ مكان هذا شأنه، فواجب على الإمام تعطيلُه، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وُضِعَ له.

وإذا كان هذا شأنَ مسجد الضِّرارِ، فمشاهِدُ الشِّرْكِ التى تدعو سدنتُها إلى اتخاذ مَنْ فيها أندادًا من دون الله أحقُّ بالهدمِ وأوجب، وكذلك محالُّ المعاصى والفسوق،

---

(١) «الإبداع في مضار الابتداع» (٢٠٠ – ٢٠٢) بتصرف.
(٢) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ٣٢٦).
(٣) «تفسير القرطبي» (١٠، ٣٨).

كالحانات، وبُيوت الخَمَّارين، وأرباب المنكرات، وقد حرق عمرُ بن الخطاب قريةً بكمالها يُباع فيها الخمر، وحرق حانوت رُويشد الثقفي وسماه فويسقًا»[١].

قلت: والذي يقوم بإزالة هذه المنكرات: السلطان أو مَن ينوب عنه، حتى لا تكون فتنة.

لماذا التحريم؟

اعلموا - عباد الله - أن الحكمة من النَّهي عن اتخاذ القبور مساجد - غير ما تقدم - سدّ كل الطرق المفضية إلى الشرك، وخصوصًا أنَّ النبي ﷺ قال: «**لا تَقوم السَّاعة حتَّى تلحق قبائل مِن أُمَّتي بالمشركين، وحتَّى تعبد قبائل مِن أُمَّتي الأوثان**» .

في هذا الحديث يدلّ على أن الشرك واقع في هذه الأُمّة، فإذا كان الأمر كذلك فيجب على الأمة الإسلامية أن تبتعد عن كل الوسائل التي قد تؤدي إلى هزّ الاعتقاد وتفضي إلى الشرك؛ صيانةً للتوحيد، وحماية للدين.

حكم الصلاة في المسجد الذي فيه قبر:

قال الشيخ **محمد بن صالح العثيمين** رحمه الله تعالى: «إذا كان هذا المسجد مبنيًّا على القبر فإن الصلاة فيه محرّمة ويجب هدمه لأن النبي ﷺ لعن اليهود والنصارى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد تحذيرًا مما صنعوا.

وأما إذا كان المسجد سابقًا على القبر فإنه يجب إخراج القبر من المسجد ويدفن فيما يدفن فيه المسلمون، ولا حرج علينا في هذه الحال إذا نبشنا هذا القبر لأنه دفن في مكان لا يحلّ أن يدفن فيه، فإن المساجد لا يحلّ دفن الموتى فيها.

والصلاة في المسجد إذا كان سابقًا على القبر صحيحة بشرط ألَّا يكون القبر في ناحية القبلة فيصلي الناس إليه لأن النبي ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور وبالإمكان إذا لم يتمكنوا من نبش القبر أن يهدموا سور المسجد»[٢].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧١، ٥٧٢).

(٢) «المجموع الثمين من فتاوى الشيخ ابن العثيمين» (١/ ٨٧).

عباد الله ...»

هذه أمور تمسّ الاعتقاد، وتهمّ كل مَن أراد صيانة دينه واعتقاده.

فلتكن منَّا على بال، نسأل الله السلامة من كلّ إثم، والغنيمة من كُلّ برّ، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد احتجّ بعض الناس بكون قبر النبي ﷺ في المسجد الشريف!

والجواب: «أن هذا لم يكن كذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم، ولكن وقع بعدهم عندما أمر الخليفة (الوليد بن عبد الملك) سنة ٨٨هـ بهدم المسجد النبوي وإضافة حُجَر أزواج رسول الله ﷺ إليه، فأُدخل فيه الحجرة النبوية، حجرة عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْها - وكان ذلك لعلّة سياسية، فصار القبر بذلك في المسجد»[(١)].

إذًا فما حكم الصلاة في المسجد النبوي؟

قال الشيخ الألباني رحمه الله: «ثم اعلم أن الحكم السابق[(٢)] يشمل كل المساجد لعموم الأدلة، فلا يُستثنى من ذلك مسجد فيه قبر إلا المسجد النبوي الشريف؛ لأن له فضيلة خاصة لا توجد في شيء مِن المساجد على القبور وذلك لقوله ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**» متفق عليه.

ولغير ذلك من الفضل.

فلو قيل بكراهة الصلاة فيه، كان معنى ذلك تسويته مع غيره من المساجد ورفع هذه الفضائل عنه وهذا لا يجوز كما هو ظاهر، وهذا المعنى استفدناه من كلام ابن تيمية.

---

(١) انظر «تاريخ ابن كثير» (٩/ ٧٤، ٧٥).

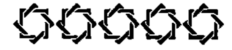
(٢) أي: القائل بتحريم الصلاة في المساجد التي بُنيت على الأضرحة إن تعمَّد قصدها.

فقال رحمه الله في كتابه «الجواب الباهر في زوار المقابر»[١] : والصلاة في المساجد المبنية على القبور منهي عنها مطلقًا بخلاف مسجده ﷺ فإنَّ الصلاة فيه بألف صلاة، فإنه أُسس على التقوى، وكانت حُرمته في حياته ﷺ وحياة خلفائه الراشدين قبل دخول الحجرة فيه، وإنما أدخلت بعد انقراض عصر الصحابة»[٢].

فيا عباد الله...

هذا هو الطريق قد بان لكم ضياؤه، وظهر لكم سناؤه، فسيروا عليه، واستعينوا بالله ولا تعجزوا.

اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد



(١) (ص٢٢، ١ - ٢)

(٢) «تحذير الساجد» (١٣٣ - ١٣٦) باختصار.

الخطبة التاسعة والأربعون بعد المائة:

رفعُ القُرآن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَدْرُسُ[1] الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ[2] حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ[3] فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الكَبِيرُ

---

(١) يدرس الإسلام: من (درس الرسم دروسًا) إذا عفا وهلك، ومِن (درس الثوب درسًا) إذا صار عتيقًا.

(٢) وشيُ الثوب: نقشه.

(٣) وليسرى على كتاب الله: أي يذهب بالليل.

وَالعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الكَلِمَةِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا».

فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَهُمْ لاَ يَدْرُونَ مَا صَلاَةٌ وَلاَ صِيَامٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ؟

فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلاَثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ فَقَالَ: يَا صِلَةُ تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ. ثَلاَثًا[١].

عباد الله ...

متى يحدث هذا الأمرُ الجلل؟

يحدث قرب قيام الساعة.

إذا أصبح القُرآنُ غريبًا بين المسلمين.

هُجرت تعاليمُه، وأُقصيَت أحكامُه. يُقرأ للدنيا، ولا يُقرأ لله.

تُقام حروفُه وتُضيَّع حدوده.

يوم يأتي على الناس زمانٌ:

لا يُتبع فيه العالِم.

ولا يُستحي فيه من الحليم.

ولا يُوقَّر فيه الكبير.

ولا يُرحم فيه الصغير.

يقتل بعضهم بعضًا على الدنيا.

قلوبُهم قلوب الأعاجم، وألسنَتُهم ألسنة العرب.

لا يعرفون معروفًا ولا يُنكرون مُنكرًا.

يمشي الصَّالحُ فيهم مُستَخفيًا.

يَرون الجهاد ضرارًا، والصدقة مَغرمًا.

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٠٤٩)، وقال في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وانظر «الصحيحة» (٨٧).

إخوان العلانية، أعداء السريرة.

السُّنة فيهم بدعة، والبدعة فيهم سُنَّة.

عند ذلك يغار الله تعالى على كلامه فيرفعه من السطور بعد رفعه من الصدور، والله على كل شيء قدير.

أيها المسلمون...

ومن دروس الإسلام في تلك الأيام أن تنقطع عبادة الحجّ، فلا حَجّ ولا عُمرة!

فَعن أبي سَعيد الخُدريّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقومُ السَّاعة حتى لا يُحَجّ البيت**»(١).

ولا يعارض هذا الحديث ما ثبت في «صحيح البخاري» من حديث أبي سعيد أيضًا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ليُحجَّن هذا البيت وليُعتمرنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج**»، لأن رفع القرآن سيكون بعد خروج يأجوج ومأجوج بدلالة أن عيسى عليه السلام سينزل عند المنارة البيضاء - كما ذكرنا في قصته - وسيصلي مع المسلمين صلاة الفجر، والقرآن سَيُتلى في الصلاة، والحديث الذي معنا يقول النبيُّ ﷺ فيه: «**حتَّى لا يُدرى ما صيامٌ، ولا صلاةٌ، ولا نُسكٌ**».

فدلّ ذلك على أن رفع القرآن سيتأخر عن خروج يأجوج ومأجوج(٢). والله أعلم.

عباد الله ...

وهذه البقية الباقية التي لا تعرف من الإسلام إلّا كلمة التوحيد تفنى وتبيد، فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم السَّاعة إلا على شِرار الخَلق**»(٣).

وعن كيفية فنائها، يقول النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله يبعث ريحًا مِن اليمن، أليَن من الحرير، فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرّة من إيمان إلّا قَبَضته**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه أبو يعلى، والحاكم، وانظر «صحيح الجامع» (٧٢٩٦).

(٢) ذكرنا في قصة يأجوج ومأجوج أن عيسى عليه السلام سيدعو عليهم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم (٢٩٣٧).

وقال ﷺ: «فَبَيْنَمَا هُم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيِّبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كُلّ مؤمن، وكُلّ مسلم، ويَبقى شِرارُ الناس يتهارجون تهارُج الحُمر، فعليهم تقوم السَّاعة» [١].

ومعنى «يتهارجون تهارُج الحُمر» أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس، كما يفعل الحمير.

عباد الله ...

وفي هذا الحديث - حديث رفع القرآن - فوائد:

الفائدة الأولى: بيان فضل كلمة التوحيد:

يدلّ على ذلك قول حذيفة: يا صلة تنجيهم مِن النار. ثلاثًا.

ولكلمة التوحيد فضائل كثيرة:

(١) فهي كلمة التقوى. كما قال عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وغيره.

قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

(٢) وهي كلمة الحق، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

(٣) وهي الكلمة الطيبة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

فأصلها ثابت في قلب المؤمن، وفرعها - في العمل الصالح - صاعدٌ إلى الله تعالى.

فالكلمة الطيبة هي كلمة الإخلاص، والشجرة الطيبة هي النخلة.

(٤) ولأجلها أُرسلت الرسل وأُنزلت الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وهذه الآية أول ما عدد الله من النِّعم في سورة النحل التي تسمَّى سورة النِّعم.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٣٧).

ولهذا قال ابن عُيينة: «ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أفضل من أن عرفهم «لا إله إلا الله» وإن «لا إله إلا الله» لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا».

(٥) ولأجلها أُعدت دار الثواب ودار العقاب.

(٦) ولأجلها أُمرت الرُّسل بالجهاد، فمن قالها عُصم ماله ودمه، ومَن أباها فماله ودمه حلال.

(٧) وهي مفتاح الجنة، ففي «مسند البزار» وغيره عن عياض الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «**إن لا إله إلا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة مَن قالها صادقًا أدخله الله بها الجنة، ومَن قالها كاذبًا حقنت دمه وأحرزت ماله، ولقي الله غدًا فحاسبه**»[1].

(٨) وهي ثمن الجنة، قاله الحسن.

(٩) ومَن كانت آخر كلامه دخل الجنة. قال ﷺ: «**مَن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنَّة**».

(١٠) وهي سبيل السعادة في الدَّارين، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢].

(١١) وهي سبب مانع للخلود في النار لمن استحق دخولها، كما جاء في حديث الشفاعة: «**أخرجوا مِن النار مَن قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه مثال ذرة من إيمان**»[2].

(١٢) وهي أفضل ما ذكر الله به عَزَّ وَجَلَّ، قال ﷺ: «**أفضل ما قُلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له**».

(١٣) وهي أثقل شيء في الميزان، كما في المسند عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أن نوحًا عليه السلام قال لابنه عند موته: «**آمُرُكَ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كَفَّةٍ وَوُضِعَتْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فِي كَفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**»[3].

---

(١) حسن: أخرجه البزار في «كشف الأستار» برقم (٤).
(٢) متفق عليه.
(٣) حسن: أخرجه أحمد وغيره، ومعنى **قصمتهن**: كسرتهن.

(١٤) وهي أعلى شُعب الإيمان، فعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسَبعون شُعبة - أو بضع وستون شُعبة - فأفضلها قول: لا إله إلا الله**»[١].

(١٥) وهي نجاة مِن النار، سمع النبيُّ ﷺ مؤذنًا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: «**خرجت مِن النار**»[٢].

(١٦) وهي توجب المغفرة، فعَنْ شَدَّادُ بْنُ أَوْس وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ قال لأصحابه: «**ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**». فَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا سَاعَةً ثُمَّ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ: «**الحَمْدُ لله اللَّهُمَّ بَعَثْتَنِى بِهَذِهِ الكَلِمَةِ وَأَمَرْتَنِى بِهَا وَوَعَدْتَنِى عَلَيْهَا الجَنَّةَ وَإِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ**». ثُمَّ قَالَ: «**أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ**»[٣].

(١٧) وهي التي لا يعادلها شيء في الوزن. فعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ عَز وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِى الحَافِظُونَ؟**

قَالَ: لاَ يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟

فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لاَ ظُلْمَ اليَوْمَ عَلَيْكَ. فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ.

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) حسن: رواه أحمد.

فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ.

قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فلاَ يَثْقُلُ مع اسم الله شَيْءٌ»[(١)].

(١٨) وهي التي تخترق الحُجب حتى تصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، قَطُّ مُخْلِصًا إِلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى العَرْشِ، مَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ»[(٢)].

(١٩) وهي الكلمة التي يُصدِّق الله تعالى قائلها. فعَن أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. صَدَّقَهُ رَبُّهُ فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ.

وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ. قَالَ يَقُولُ اللَّهُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَأَنَا وَحْدِي.

وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَحْدِي لاَ شَرِيكَ لِي.

وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ. قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا لِيَ الْمُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ.

وَإِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ. قَالَ اللَّهُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِي».

وَكَانَ يَقُولُ: «مَنْ قَالَهَا فِي مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ»[(٣)].

(٢٠) وهي أفضل الذِّكر، قال ﷺ: «أفضل الذِّكر: لا إله إلَّا الله»[(٤)].

(٢١) وهي أفضل الحسنات، فعن أبي ذرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي. قَالَ: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا».

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَمِنَ الحَسَنَاتِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي، وانظر «صحيح سنن الترمذي» (٣٤٨٨).

(٢) حسن: أخرجه النسائي، وحسّنه الألباني.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وغيرهما.

(٤) حسن: أخرجه الترمذي، وغيره.

قَالَ: «هِيَ أَفْضَلُ الحَسَنَاتِ»[(١)].

عباد الله ...

اعلموا أن الله تعالى لا يسوِّي بين مَن وحَّده وإن قصَّر في العمل، وبين مَن أشرك له.

لذا كان بعض السلف يقول في دعائه: «اللهم إنك قلت عن أهل النار أنهم ﴿**أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ**﴾ [النحل: ٣٨]، ونحن نقسم بالله جهد أيماننا ليبعثنَّ الله مَن يموت، اللهم لا تجمع بين أهل القسمين في دار واحدة»[(٢)].

فاجتهدوا اليوم في تحقيق التوحيد، فإنه لا ينجي من عذاب الله إلَّا إيَّاه، ما نطق الناطقون بأحسن من لا إله إلَّا الله.

تـــبارك ذو الجـــلال والإكـــرام	**ومَـــن شـــهد أن لا إلـــه إلا هـــو**
مَـن يغفـر الذنـوب ومَـن يمحِّـصها	**غـــيرك يـــا مَـــن لا إلـــه إلا هـــو**
جـــنان خلـــده لـــن يـــوحِّده	**أشـــــهد أن لا إلــــــه إلا هـــــو**
نـــــاره لا تحـــــرق مَـــــن	**يـــــشهد أن لا إلــــــه إلا هـــــو**
أقـــولها مخلـــصًا بـــلا بخـــل	**أشـــــهد أن لا إلــــــه إلا هـــــو**

عباد الله ...

وممَّا ينبغي أن يُعلم - وجوبًا - أن لكلمة التوحيد نواقض عشرة، هكذا لخَّصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

قال الشيخ ابن جبرين في كتابه «الشهادتان» ما مختصره: «تكلم علماء الإسلام في كل مذهب على نواقض الإسلام، وبالغ بعضهم في سرد الأمثلة التي تحصل بها الرِّدة - نعوذ بالله منها - ولكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لخَّصها في عشرة نواقض، مذكورة في مجموعة التوحيد وغيرها، وإنما المراد هنا أن نذكر بعض الخصال

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٦٩)، وانظر «الصحيحة» (١٣٧٣).

(٢) «تحقيق حكمة الإخلاص» لابن رجب الحنبلي (١٠٢).

التي ينافي فعلها كلمتي التوحيد، ولا يحصل الأمر المترتب على فعلهما والنطق بهما، فمن ذلك:

إنكار خلق الله تعالى لبعض الموجودات، أو إسناد بعض التدبير والتصرف إلى الطبيعة والصّدفة، فإن ذلك طعن في الرَّب تعالى، وذلك ينافي اعتقاد المسلمين في إثبات كمال التصرف لله وحده، وأنه لذلك هو المستحق للعبادة.

إنكار شيء من صفات الكمال لله عز وجل، كالعلم والحياة والقيومية والجبروت والسمع والبصر، فإن ذلك غاية التنقص الذي ينافي استحقاق الرب للإلهية، وهكذا إثبات شيء من النقائص التي نزَّه الله نفسه عنها، كالسِّنة والنوم والنسيان والظلم والولد والشريك ونحوها، فإن ذلك ينافي الكمال الذي استحق به الله تعالى العبادة مِن جميع الخَلق.

وصف بعض المخلوقات بشيء من خصائص الخالق كعلم الغيب، وعموم المُلك، وكمال التصرّف في الكون، والقدرة على الخَلق والإيجاد بدون إرادة الله، فإن هذا تشريك مع الله لهذا المخلوق، ورفع له إلى مرتبة الخالق، وذلك غاية التنقّص له تعالى.

نفي استحقاق الرب عز وجل لكل العبادات أو لبعضها كاعتقاد أنه تعالى لا يُخشى ولا يُدعى ولا يستحق أن يُستعان به، أو لا أهمية لذلك أو لا فائدة فيه، وهكذا حُكم مَن سخر ببعض العبادات، أو استهزأ بالمصلين أو المتمسكين بأي نوع من أنواع الطاعة، فإن ذلك انتقاد للشرع، وهو ينافي الشهادتين.

مَن اعتقد أن أحدًا من الناس يسوغ له التشريع والتقنين ووضع الأحكام التي تغير الشرع، كإباحة الزنا، أو الربا، وإبطال العقوبات الشرعية، كقتل القاتل، وقطع يد السارق، وإبطال الزكاة[1]، وتغيير الفرائض أو أي نوع من أنواع العبادات، وهكذا

---

(١) هذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل - خشية الوقوع في التكفير دون ضوابط - قال الشيخ أبو عبد الرحمن بندر بن نايف العتيبي - حفظه الله - في كتابه «وجادلهم بالتي هي أحسن» (٥٣): «اعتقاد أهل السنة يقضي بعدم تنزيل الأحكام على الأعيان إلَّا بعد إقامة الحجّة على تلك الأعيان، فقد يكون جاهلًا، أو متأولًا، أو قد يكون عنده من علماء السوء مَن لبَّس عليه، إلى غير تلك الاحتمالات التي تُوجب التريّث وعدم العجلة، ولئن كانت الحدود تُدرأ بالشبهات، تالله إن =

التحاكم إلى غير شرع الله والحكم بغير ما أنزل، فمن اعتقد ذلك أو نحوه فقد اعترض على الرَّب في شرعه، وزعم أنه ناقص أو غير ملائم، أو أن غير حكم الله أحسن من حكمه، وذلك غاية التنقّص فلا يجتمع مع التوحيد الخالص.

صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله تعالى، وهو شرك القبوريين في هذه الأزمنة، فمن دعى ميتًا أو رجاه أو علّق قلبه به أو أحبَّه كحبّ الله أو انحنى له أو خشع وخضع عند القبر ونحوه، أو طاف به أو ذبح له أو نحو ذلك من أنواع العبادة، فقد أبطل شهادته أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

موالاة أعداء الله ومحبتهم وتقريبهم، ورفع مقامهم، واعتقاد أنهم على حق أو أنهم أولى بالتبجيل والاحترام من المسلمين، وسواء كانوا من أهل الكتابين أو من الوثنيين أو الدهريين، فإن طاعتهم وتوقيرهم وإعززهم يوحي بأنهم على صواب، وأن المسلمين المخالفين لهم ضالون خاطئون، أو يدل احترامهم على تعظيم دنياهم أو علومهم الدنيوية، وكل ذلك ينافي حقيقة الشهادة[1] .

= الكفر لمن باب أَوْلى» ا.هـ.

هذا؛ وليس كلّ مَن لم يحكم بما أنزل الله يعدّ كافرًا، واحتجاج المكفّرين بقوله تعالى: ﴿**وَمَن لَمْ يَحكُم بِمَا أنزل الله فَأُولَئِكَ هُم الكَافِرون**﴾ [المائدة: ٤٤]، ليس في موضعه، فقد صحّ عن ابن عباس، وطاوس، وعطاء، أنّهم فسَّروا الكفر الوارد في الآية بأنه الكفر الأصغر الذي لا يَنْقُل عن الملة.

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله في «الفتاوى» (٩/ ١٢٤): «لا يجوز لأحد من الناس أن يكفّر مَن حكم بغير ما أنزل الله بمجرد الفعل مِن دون أن يعلم أنَّهُ استحلّ ذَلِكَ بقلبه» ا.هـ.

وانظر لزامًا: «الحكم بغير ما أنزل الله» لأبي عبد الرحمن بندر بن نايف العتيبي. ط. مكتبة عبد المصوّر محمد عبد الله، ففيه ما يكفي ويشفي.

(١) وهذا أيضًا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل.

قال الشيخ محمد بن عمر بن سالم بزمول في كتابه «الولاء والبراء» (١٠ – ١٢) ما مختصره «**الولاء للكفار على قسمين**:

الأول: الموالاة للكفار التي يخرج صاحبها عن الملة، وهذا هو التولِّي – يعني الباطني – قال تعالى: ﴿**ومَن يتولَّهم منكم فإنَّهُ منهم**﴾ [المائدة: ٥١]، وضابط هذه الموالاة: أن تكون محبَّة ونصرة مَن أجل دين الكفَّار وعقيدتهم، فمن أحبّ الكافر لدينه، أو نصر الكافر لدينه فقد وقع في هذا القسم.

القسم الثاني: الموالاة الظاهرة للكفار، فهو يتعامل معهم في الأمور الظاهرة في البيع والشراء، ويزورهم ويزوروه، ويتبادل معهم الهدايا، ونحو ذَلِكَ، وهذه الموالاة لا تخرج من الملّة، وتارة =

الطعن في رسالة النبيّ ﷺ أو في شريعته، أو تكذيبه أو دعوى خيانته أو كتمانه لما أوحى إليه، وكذا إظهار سبّه أو عيبه أو التهكم بسيرته أو شيء من أعماله أو أحواله أو تصرفاته، ونحو ذلك مما يدل على إنكار رسالته في الباطن، فإن الطعن فيه طعن في الرَّب تعالى، فهو الذي أرسله وحمَّله هذه الرسالة، وذلك يناقض كلمتي الشهادة.

الطعن في القرآن الذي هوكلام الله تعالى، كدعوى المشركين أنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين، أو أنه مفترى مكذوب، وكذا مَن زعم أنه قول البشر، أو نفى إعجازه أو حاول معارضته بمثله، وأن ذلك ممكن أو كذب بعض ما اشتمل عليه، أو أنكر بعض السور أو الآيات المنقولة بالتواتر أو نحو ذلك، فإنه كافر مكذّب لله ورسوله، وذلك يناقض كلمة التوحيد.

إنكار شيء من الأمور الغيبية التي أمر الله بالإيمان بها وأخبر بثبوتها في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ ، كالملائكة، والكتب، والرسل، والبعث بعد الموت، وحشر الأجساد، والجنة، والنار، وكذا عذاب القبر ونعيمه، ونحو ذلك، فإن مَن جحد منها شيئًا فقد كذَّب الله وكذَّب رسوله ﷺ ، وذلك أكبر الطعن في الرسالة وما اشتملت عليه، فهو يخالف ما تستلزمه الشهادتان» ا.هـ[1].

نسأل الله تعالى أن يتوفّنا على الإسلام.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

= تكون جائزة كالإحسان إلى الكافر غير الحربي، وتارة تكون محرَّمة كالتشبه بهم فيما هو من خصائصهم، وتارة تكون مستحبة كالإحسان إلى الكافر لدعوته إلى الإسلام، وتارة تكون واجبة كالبرّ بالوالدين الكافرين، أو أحدهما، وتارة تكون مكروهة كاستخدام الخادم الكافر مع وجود المسلم» ا.هـ.

وراجع الكتاب فهو مهم في بابه.

(١) انظر للأهمية كتاب «الإكمال بتقريب شرح نواقض الإسلام» للشيخ الفاضل عبد العزيز ريّس الريس - حفظه الله - ففيه عواصم من قواصم التكفير.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والفائدة الثانية من فوائد القصة:

اغتنام وقت وجود القرآن بيننا قبل أن يُرفع:

وهذه فرصة للإقبال عليه، بتلاوته وتنفيذ أحكامه واتباع تعاليمه.

والقرآن آيات مُنزَّلةٌ من حول العرش، الأرض بها سماء هي منها كواكب، وألفاظٌ إذا اشتدتّ فأمواج البحار الزاخرة، وإذا لانت فأنفاسُ الحياة الآخرة.

ومعانٍ هي عذوبةٌ ترويك من ماء البيان، ورقَّةٌ تستروح منها نسيم الجنان.

ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الزمان.

وهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول[1].

تحدَّى الله تعالى به الإنس والجن، ثم قرن التحدِّي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما ينفخ الرّماد الهامدة، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فقطع لهم أنهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلَّا مِن الله، ولا يقولها عربي في العرب أبدًا، وقد سمعوها واستقرّت فيهم ودارت على الألسنة، وعرفوا أنها تنفي عنهم الدَّهر نفيًا وتعجزهم آخر الأبد، فما فعلوا ولا طمعوا قط أن يفعلوا.

---

(١) «إعجاز القرآن» لمصطفى صادق الرافعي (ص٢٢)

وورد في فضل تلاوته آيات وأحاديث:

فمن القرآن:

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

ومن الأحاديث:

قال ﷺ: «اقرءوا القُرآن، فإنَّكم تُؤجرون عليه، أما إني لا أقول ﴿الـم﴾ حرف، ولكن ألفٌ عَشر، ولام عَشر، وميمٌ عشر، فتلك ثلاثون»[(١)].

وقال ﷺ: «إنَّ لله أهلين من الناس»، قالوا: مَن هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن، هم أهل الله وخاصّتُهُ»[(٢)].

وقال ﷺ: «إنَّ الله تعالى يَرفع بهذا الكلام أقوامًا ويضع به آخرين»[(٣)].

وقال ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد لكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه»[(٤)].

وقال ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السَّفرة الكرام البَرَرة، والذي يقرؤه ويَتَعتعُ فيه وهو عليه شاقٌّ، له أجران»[(٥)].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو جعفر النحاس في «الوقف والابتداء»، وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٦٦٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد والنسائي، وانظر «صحيح الجامع» (٢١٦٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم وغيره.

(٤) صحيح: رواه أحمد والنسائي وغيرهما.

(٥) صحيح: أخرجه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «مَن سَرَّه أن يحبَّ الله ورَسوله فليقرأ في المصحف»[١].

عباد الله ...

في كم يُقرأ القرآن؟

عَن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لم يَفقَه مَن قرأ القرآن في أقلّ مِن ثَلاث»[٢].

قال الإمام ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – : « وإنما ورد النَّهي عن قراءة القرآن في أقلّ مِن ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان خصوصًا الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر أو في الأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحبّ الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتنامًا للزمان والمكان، وهو قول أحمد و إسحاق وغيرهما من الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره»[٣].

وقال الإمام الذَّهبيّ – رحمه الله تعالى – : «فأقل مراتب النهي: أن تُكره تلاوة القرآن كله في أقلّ مِن ثلاث، فما فقه ولا تدبر مَن تلى في أقل من ذلك.

ولو تلا ورتّل في أسبوع، ولازم ذلك، لكان عملًا فاضلًا، فالدين يسر، فوالله إن ترتيل سُبع القرآن في تهجد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودُبر المكتوبة والسَّحر، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصا لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق، ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار، والصدقة وصلة الرحم، والتواضع، والاخلاص في جميع ذلك، لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين»[٤].

---

(١) حسن: رواه أبو نعيم في «الحلية» وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٢٣٤٢).
(٢) حسن صحيح: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(٣) «لطائف المعارف» (١٩١، ١٩٢).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٨٤).

عباد الله ...

ولتلاوة كتاب الله آداب ظاهرة، وآداب باطنة.

فمن الآداب الظاهرة:

استحباب الوضوء، واستقبال القبلة، والترتيل، والبكاء.

قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

ومراعاة حق الآيات، فإذا مَرَّ بآيةِ سجدةٍ سجد، والتَّعوذ في مبتدأ قراءته، وتحسين القراءة.

قال ﷺ: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن**»[(١)].

وقال ﷺ: «**ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**أحسن الناس قراءة: الذي إذا قرأ رأيت أَنَّهُ يخشى الله**»[(٣)].

وقال ﷺ: «**إنَّ مَن أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أَنَّهُ يخشى الله**»[(٤)].

أما الآداب الباطنة فهي عشرة:

الأول: فهم أصل الكلام.

فهم عظمة الكلام وعلوّه، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه، وإفهامه كلامه لهم، وتيسير القرآن للذكر، ولولا لطف الله بعباده لما ثبت لسماع الكلام، وهو من صفاته، عرشٌ ولا ثرىً، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه، ولولا تثبيت الله عَزَّ وَجَلَّ لموسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه، كما لم يُطق الجبل مبادي تجلِّيه حيث صار دكًّا.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري وغيره.

(٣) صحيح: رواه محمد بن نصر في «الصلاة» والبيهقي، وانظر «صحيح الجامع» (١٩٤).

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٢٢٠٢).

الثاني: التعظيم للمتكلم.

فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يُحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويَعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وأنَّ في تلاوة كلام الله عَزَّ وَجَلَّ غاية الخطر.

كان عكرمة بن أبي جهل - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إذا نشر المصحف وضعه على وجهه وقال: «كتاب ربِّي كتاب ربِّي».

وكان مالك بن دينار يقول: «إن الصِّدِّيقين إذا تُليت عليهم آيات الرحمن طربت قلوبهم، واشتاقت إلى ما عنده»، ثم يقول: «اسمعوا إلى ما يقول الصَّادق مَن فَوق عرشه» ثم يبدأ في التلاوة.

الثالث: حضور القلب.

وهذه الصفة تتولد عمَّا قبلها من التعظيم، فإن المعظِّم للكلام الذي يتلوه ويستبشر به ويستأنس، لا يغفل عنه.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «مَن لم يَستأنس بالقرآن فلا آنَس الله وحشته».

الرابع: التَّدبُّر.

وهو وراء حضور القلب، فإنه قد لا يتفكّر في غير القرآن، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره.

وقد قام رسول الله ﷺ بآية يردِّدها: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [المائدة: ١١٨].

وقال بعضهم: إني لأفتتح السُّورة فيوقفني بعضُ ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر.

وكان بعضهم يقول: «آية لا أتفهمها، ولا يكون قلبي فيها لا أعدُّ لها ثوابًا».

الخامس: التَّفهم.

فيستوضح من كل آية ما يليق بها، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء، وذكر أحوال المكذِّبين، وذكر الأوامر والزواجر، وذكر الجنة والنار.

السادس: التخلِّي عن موانع الفهم.

فإن أكثر الناس مُنعوا عن فهم معاني القرآن، لأسباب وَحُجُب أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن، وحُجُبُ الفهم ثلاثة:

أولها: أن يكون الهمُّ منصرفًا إلى تحقيق الحروف فقط.

ثانيها: أن يكون مقلِّدًا لمذهب سمعه بالتقليد.

ثالثها: أن يكون مصرًّا على ذنبٍ أو متصفًا بكبرٍ أو مبتلى بهوًى في الدنيا مُطاع، فيُحرم بركة الانتفاع بالوحي وفهم القرآن، فالإنابة شرط في الفهم والتذكير، قال تعالى: ﴿**وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ**﴾ [غافر: ١٣].

السابع: التخصيص.

وهو أن يُقدِّر أنه المقصود بكلّ خطاب في القرآن، فإن سمع أمرًا أو نهيًا قدَّر أنه المنهيُّ والمأمور، وإن سمع وَعدًا أو عيدًا فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأوَّلين علم أن السَّمر غير مقصود وإنما الاعتبار، فهذا القارئ الواحد مقصود.

قال محمد بن كعب القرظي: «مَن بلغه القرآن فكأنَّما كلَّمه الله».

وقال بعض العلماء: «هذا القرآن رسائل أتتنا من قِبَل ربنا عز وجل بعهوده، نتدبَّرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفِّذها في الطاعات والسُّنن المتّبعات».

الثامن: التأثر.

وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلافِ الآيات، فيكون له بحسب كُلِّ فهم حال وَوَجْد يتّصف به قلبه من الخوف والرجاء.

قال الحسن: «والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثُر حُزنه، وقلّ فرحه، وكثر بكاؤه، وقلّ ضحكه، وكثر نَصَبُه وشغله وقلَّت راحته وبطالته».

وقال وهيب بن الورد: «نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئًا أرق للقلوب ولا أشد استجلابًا للحزن من قراءة القرآن وتفهّمه وتدبُّره، فرحم الله أقوامًا كانوا إذا مَرُّوا بآية فيها ذِكرٌ للنار فكأن زفيرها في آذانهم، وإذا مرُّوا بآية فيها ذكرٌ للجنة

فكأنهم فيها مُنعَّمين، وطربت قلوبهم لنعيمها، وتنبعث بواطُنهم شوقًا إليها».

التاسع: ا لتَّرقِّي.

والمراد به أن يترقى حتى كأنه يسمعه من ربِّه لا من نفسه، فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يُقدِّر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل، واقفًا بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأنَّ الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه مقامُ الحياء والتعظيم والإصفاء والفهم.

والثالثة: أن يرى في الكلام المتكلِّم وفي الكلمات الصِّفات، فيكون مقصور الهمِّ على المتكلم، فهذه درجة المقرَّبين.

قال ثابت البناني: «كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعمتُ به عشرين سنة».

العاشر: التبرؤ.

فيتبرأ من حَوله وقوَّته والالتفات إلى نفسه بعين الرِّضا والتزكية، فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والمُصدِّقين، ويتشوّف إلى أن يُلحقه الله عز وجل بهم، وإذا تلا آيات المَقت وذمّ العصاة والمصرِّين شهد على نفسه هناك، وقدَّر أنه المخاطب؛ خوفًا وإشفاقًا.

قال زهير البابي: «إن لله عبادًا ذكروه، فخرجت نفوسهم إعظامًا واشتياقًا، وقوم ذكروه فوجلت قلوبهم فرقًا وهيبة، وآخرون ذكروه في الشتاء فارفضُّوا عرقًا من خوفه، وقوم ذكروه فحالت ألوانهم غَبرًا، وقوم ذكروه فجفَّت أعينهم سَهرًا، يتلون كتاب الله بشفاهٍ ذابلة، ودموع وابلة، وزفرات قاتلة، وأجسام ناحلة، وخواطر في عظمته جائلة»[١].

عباد الله ...

فإذا حقق القارئ لكتاب الله عز وجل هذه الآداب، نال ما تمَنَّى من الرِّضا، وحلَّت عليه بركات القرآن، وكان شفيعًا له يوم القيامة.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٧٣ - ٢٨٧) باختصار وإضافة.

قال رسول الله ﷺ: «اقْرَءُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ».

والفائدة الثالثة من الفوائد المأخوذة من رفع القرآن في آخر الزمان: بيان شيءٍ من قدرة الله:

يدلّ على ذَلِكَ: محوه سُبْحَانَهُ لآيات كتابه من السُّطور، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

۞۞۞۞۞

الخطبة الخمسون بعد المائة:

هدمُ الكعبة، ورفع البيت

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن علامات القيامة الكبرى «**هدم الكعبة**»، و«**رفع البيت**».

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُخَرِّب الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ**[1] **مِنَ الحَبَشَةِ**»[2].

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «ولا يُعارض هذا قوله تعالى: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص: ٥٧]. لأن معناه: آمنًا إلى قُرب القيامة وخَرَاب الدّنيا، وقيل: يخصّ منه

---

(١) تَصْغير سَاقَي الإنسان، وهي صفة سوق السّودان غالبًا.

(٢) رواه مسلم (٢٩٠٩).

قصّة ذي السويقتين» ا.هـ[١].

قلت: وهذا التخريب للكعبة يكون بعد هلاك يأجوج ومأجوج؛ قال ﷺ: «**لَيُحَجَّنَّ هذا البيتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعدْ خُروج يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ**»[٢].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى-: «وروينا عن كعب الأحبار في «التفسير» عند قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فُتِحَت يَأجُوجُ ومَأجُوجُ**﴾ [القصص: ٥٧]. أن أوّل ظهور ذي السُّوَيْقَتَيْن في أيّام عيسى ابن مريم - عليه السلام - وذلك بعد هلاك يأجوج ومأجوج، فيبعث إليهم عيسى طليعة ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة فبينما هم يسيرون إليه إذ بعث الله ريحًا يمانية طيّبة فَيْقبض بها روحَ كُلّ مؤمن، ثم يبقى عجاج من الناس[٣] يَتَسافَدون كما تتسافد البهائم[٤].

ثم قال كعب: «وتكون الساعة قريبًا حينئذ».

قلت[٥]: وقد تقدم في الحديث الصحيح: أن عيسى - عليه السلام - يحج بعد نزوله إلى الأرض» ا.هـ[٦].

أما رفع البيت:

فقد روى البزار والطبراني في «الكبير»، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**اسْتَمِتعُوا بِهذا البَيتِ فقد هُدِمَ مَرَّتين، ويُرفعُ في الثَّالثة**»[٧].

قال ابن خزيمة: قوله: «**يُرفع في الثالثة**» يريد بعد الثالثة.

فاستمتعوا - عباد الله - بهذا البيت قبل أن يُرفع، واسمعوا إلى نبيّكم ﷺ وهو

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٣٥٦).
(٢) رواه البخاري وأحمد.
(٣) **عجاج الناس**: رعاعهم.
(٤) أي: يجامعون النساء في الطرقات.
(٥) الكلام - هنا - للإمام ابن كثير.
(٦) «النهاية في الفتن والملاحم» (١/ ٢٠٢).
(٧) **صحيح**: انظر «السلسلة الصحيحة» (١٤٥١).

يقول: «تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلاَّ الجَنَّةُ»[١].

عباد الله ...

وبيت الله؛ أوّل بيت وضع للناس. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهاتين الآيتين: يُخْبِر تَعَالى أنَّ أوَّل بَيتٍ وُضِعَ للنَّاس، أي: لِعُمُوم النَّاس، لِعِبادتِهِم ونُسُكهم، يَطُوفون به ويُصلُّون إليه ويَعتكِفُون عنده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعني: الكَعبَة الَّتي بَنَاهَا إبْرَاهِيم الخَليل عليه السلام الَّذي يَزْعم كُل مِن طَائِفَتي النَّصارى واليَهود أنَّهم عَلَى دِينِهِ ومَنْهَجِهِ، ولا يَحُجُّون إلى البَيْتِ الَّذي بَنَاهُ عَنْ أَمْرِ الله لَهُ فِي ذَلِكَ ونَادَى النَّاس إلى حَجِّهِ. ولهذا قال تَعَالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي وُضع مُبارَكًا، ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ عَن أبي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ مَسجِد وُضِع في الأرض أوَّلُ؟ قال: «المَسْجِدُ الحَرَامُ». قلت: ثم أَيُّ؟ قال: «المسجِدُ الأَقْصَى». قلت: كَم بَيْنَهُمَا؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قلتُ: ثم أَيُّ؟ قال: «ثُم حَيْثُ أَدْرَكْت الصَّلاةَ فَصَلِّ، فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ»[٢].

وقولُهُ تَعَالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بَكَّة: مِن أسماء مَكَّة على المَشْهُور، وقد ذكروا لمكَّة أسْمَاء كَثِيرة: مَكَة، وبَكَّة، والبَيْتِ العَتِيقِ، والبيت الحَرَام، والبَلَدِ الأمِين، والمأمُونِ، وأُمِّ رَحْمٍ، وأُمِّ القُرَى، وصَلَاح، والعَرْشِ عَلَى وَزْن بَدْر، والقَادِسِ؛ لأَنَّهَا تُطَهِّرُ مِن الذُّنُوب، والمُقَدَّسَةِ، والنَّاسَّةِ: بالنُّون، وبالبَاء أيضًا، والبَاسَّةِ والحَاطِمَةِ، والرَّأسِ، وكُوثَاءَ، والبَلْدَةِ، والبُنَيَّةِ، والكَعْبَةِ» اهـ[٣].

عباد الله ...

وأمر الله تعالى نبيَّه إبراهيم عليه السلام برفع قواعد البيت؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ

---

(١) حسن: رواه الترمذي، وغيره، وانظر «الصحيحة» (١٢٠٠).
(٢) رواه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).
(٣) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٠).

إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهاتين الآيتين: «القواعد: جمعُ قاعدة، وهي السَّارية والأساس، يقول تعالى: واذكر يا مُحَمَّد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عَليهما السَّلام البيتُ، ورَفعَهُمَا القواعِدِ مِنهُ، وهُمَا يَقُولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

عن وُهيب بن الوَردِ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ثُمَّ يَبْكِي ويَقُول: يَا خَلِيلَ الرَّحمَنِ، تَرْفَعُ قَوَائِم بَيْتِ الرَّحمنِ وأَنْتَ مُشْفق أَنْ لَا يَتقبَّل مِنْكَ. وهَذَا كَمَا حَكَى الله تَعَالى عَن حَالِ الْمُؤمِنينَ المخلصين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أي: يُعْطُون مَا أَعْطَوا مِنَ الصَّدقَاتِ والنَّفَقَاتِ والقَرَبَاتِ ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي: خَائِفَةٌ أَلَّا يَتقبَّل مِنهُم.

عَن ابن عباس[١] - رَضِي الله عَنْهُما - قال: «أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ، وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهْيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِى أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَ وَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِى الَّذِى لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَىْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِى أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ. قَالَتْ إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ ﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾. وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِى السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ - فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ، حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا».

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَهٍ. تُرِيدَ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ. فَإِذَا هِيَ بِالمَلَكِ، عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ - أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ - حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا».

قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلاَمُ، وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ. وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ، حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ - أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ - مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا. فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ، فَإِذَا هُمْ بِالمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ فَقَالُوا أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ فَقَالَتْ نَعَمْ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ. قَالُوا نَعَمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهْيَ تُحِبُّ الإِنْسَ». فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الغُلاَمُ، وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ، بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ. فَشَكَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ، كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ. فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ، وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ. وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: المَاءُ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَـهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَـهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَـهُمْ دَعَا لَـهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلاَّ لَمْ يُوَافِقَاهُ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ. ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا. وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾. قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]».

وفي البُخاري[١] أيضًا عَن ابن عَبَّاسٍ - رَضِي الله عَنهُمَا - قَالَ: «لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ، خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ، وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ

(١) برقم (٣٣٦٥).

إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا قَالَ: إِلَى اللهِ . قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللَّهِ .

قَالَ: فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى لَمَّا فَنِيَ المَاءُ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا .

قَالَ: فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتِ الوَادِيَ سَعَتْ وَأَتَتِ المَرْوَةَ فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ - تَعْنِي الصَّبِيَّ - فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ، فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا، فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ: أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ . فَإِذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الأَرْضِ، قَالَ: فَانْبَثَقَ المَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ .

قَالَ فَقَالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ : «لَوْ تَرَكَتْهُ كَانَ المَاءُ ظَاهِرًا» .

قَالَ: فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ المَاءِ، وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا - قَالَ - فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِبَطْنِ الوَادِي، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ، وَقَالُوا: مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلاَّ عَلَى مَاءٍ . فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ، فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بِالمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ فَأَتَوْا إِلَيْهَا، فَقَالُوا: يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ أَوْ نَسْكُنَ مَعَكِ فَبَلَغَ ابْنُهَا فَنَكَحَ فِيهِمُ امْرَأَةً، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي .

قَالَ: فَجَاءَ فَسَلَّمَ فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ . قَالَ: قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ . فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ قَالَ: أَنْتِ ذَاكِ، فَاذْهَبِي إِلَى أَهْلِكِ .

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي . قَالَ: فَجَاءَ فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقَالَتْ: أَلاَ تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ؟ فَقَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ، وَشَرَابُنَا المَاءُ . قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ .

قَالَ: فَقَالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ : «بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ» . قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ

لأَهْلِهِ: إِنِّى مُطَّلِعٌ تَرِكَتِى . فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ، يُصْلِحُ نَبْلاً لَهُ، فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِى أَنْ أَبْنِىَ لَهُ بَيْتًا . قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ . قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِى أَنْ تُعِينَنِى عَلَيْهِ . قَالَ: إِذًا أَفْعَلَ - أَوْ كَمَا قَالَ - قَالَ: فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِى، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَيَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾، قَالَ: حَتَّى ارْتَفَعَ البِنَاءُ وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَلَى نَقْلِ الحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ المَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَيَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ .

وقال البُخاريُّ - رحمه الله - قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، القَواعِد: أَسَاسُهُ، واحِدُهَا: قَاعِدةٌ، والقَوَاعِدُ مِن النِّساء واحِدتها: قَاعِدةٌ.

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَمْ تَرَىْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوُا الكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ لَفَعَلْتُ».

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَئِنْ كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أُرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَرَكَ اسْتِلاَمَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الحِجْرَ إِلاَّ أَنَّ البَيْتَ لَمْ يُتَمَّمْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ[1].

وعَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال: «لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ - أَوْ قَالَ: بِكُفْرٍ - لأَنْفَقْتُ كَنْزَ الكَعْبَةِ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ وَلأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنَ الحِجْرِ»[2].

وعَنِ الأَسْوَدِ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ الزُّبَيْرِ: كَانَتْ عَائِشَةُ تُسِرُّ إِلَيْكَ كَثِيرًا فَمَا حَدَّثَتْكَ فِى الكَعْبَةِ؟ قُلْتُ: قَالَتْ لِى: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلاَ قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ - قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: بِكُفْرٍ - لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ». فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ .

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلاَ حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ لَنَقَضْتُ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٦٨)، ومسلم (١٣٣٣).

(٢) انظر «صحيح مسلم» (١٣٣٣).

الكَعْبَةَ وَلَجَعَلْتُهَا عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّ قُرَيْشًا حِينَ بَنَتِ البَيْتَ اسْتَقْصَرَتْ وَلَجَعَلْتُ لَهَا خَلْفًا».

وعَن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قال: حَدَّثَتْنِي خَالَتِي - يَعْنِي عَائِشَةَ - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الكَعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الحِجْرِ فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الكَعْبَةَ**». انفرد به أيضًا.

قُلْتُ: وَلَمْ تَزَل على بِنَاءِ قُرَيشٍ حَتَّى احتَرَقَت في أوَّل إمَارَةِ عَبْدِ الله بنِ الزُّبَير بَعدَ سَنةِ سِتِّينَ. وفي آخِر ولايةَ يَزيدَ بْنِ مُعَاويَةَ، لما حَاصَرُوا ابن الزُّبَير، فَحِينئذٍ نَقَضَها ابن الزَّبَير إلى الأَرْضِ وبَنَاهَا على قَوَاعِدِ إبْرَاهِيم - عليه السلام - وأدْخَلَ فِيهَا الحِجْرَ وجَعَلَ لها بابًا شَرقيًّا وبابًا غربيًّا مُلصَقين بِالأرض، كَمَا سَمِعَ ذَلِكَ مِن خَالَتِهِ عَائشةَ أُمِّ المُؤمِنين عَن رَسُول الله ﷺ. ولم تَزَل كَذَلِك مُدَّة إمَارَتِهِ حَتَّى قَتَلَهُ الحَجَّاجُ، فَرَدَّها إلى مَا كَانت عَليهِ بِأَمر عَبْدِ المَلكِ بن مَرْوان لَهُ بِذلِكَ.

أخرجَ مُسلمُ بنُ الحَجَّاج في «صَحيحِهِ»[(١)]، عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: «لَمَّا احْتَرَقَ البَيْتُ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ حِينَ غَزَاهَا أَهْلُ الشَّامِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، تَرَكَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ حَتَّى قَدِمَ النَّاسُ المَوْسِمَ يُرِيدُ أَنْ يُجَرِّئَهُمْ - أَوْ يُحَزِّبَهُمْ - عَلَى أَهْلِ الشَّامِ، فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الكَعْبَةِ، أَنْقُضُهَا ثُمَّ أَبْنِي بِنَاءَهَا أَوْ أُصْلِحُ مَا وَهَى مِنْهَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنِّي قَدْ فُرِقَ لِي رَأْيٌ فِيهَا؛ أَرَى أَنْ تُصْلِحَ مَا وَهَى مِنْهَا وَتَدَعَ بَيْتًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَأَحْجَارًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَبُعِثَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ. فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: لَوْ كَانَ أَحَدُكُمْ احْتَرَقَ بَيْتُهُ مَا رَضِيَ حَتَّى يُجِدَّهُ فَكَيْفَ بَيْتُ رَبِّكُمْ؟! إِنِّي مُسْتَخِيرٌ رَبِّي ثَلاَثًا ثُمَّ عَازِمٌ عَلَى أَمْرِي.

فَلَمَّا مَضَى الثَّلاَثُ أَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَنْقُضَهَا، فَتَحَامَاهُ النَّاسُ أَنْ يَنْزِلَ بِأَوَّلِ النَّاسِ يَصْعَدُ فِيهِ أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ، حَتَّى صَعِدَهُ رَجُلٌ فَأَلْقَى مِنْهُ حِجَارَةً فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ النَّاسُ أَصَابَهُ شَيْءٌ تَتَابَعُوا فَنَقَضُوهُ حَتَّى بَلَغُوا بِهِ الأَرْضَ، فَجَعَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ أَعْمِدَةً فَسَتَّرَ عَلَيْهَا

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٣/ ٤٠٢).

السُّتُورَ حَتَّى ارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ. وَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِنِّي سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَوْلاَ أَنَّ النَّاسَ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّي عَلَى بِنَائِهِ لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الحِجْرِ خَمْسَ أَذْرُعٍ وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ**».

قَالَ: فَأَنَا اليَوْمَ أَجِدُ مَا أُنْفِقُ وَلَسْتُ أَخَافُ النَّاسَ - قَالَ - فَزَادَ فِيهِ خَمْسَ أَذْرُعٍ مِنَ الحِجْرِ حَتَّى أَبْدَى أُسًّا نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ فَبَنَى عَلَيْهِ البِنَاءَ، وَكَانَ طُولُ الكَعْبَةِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا زَادَ فِيهِ اسْتَقْصَرَهُ فَزَادَ فِي طُولِهِ عَشَرَ أَذْرُعٍ وَجَعَلَ لَهُ بَابَيْنِ أَحَدُهُمَا يُدْخَلُ مِنْهُ وَالآخَرُ يُخْرَجُ مِنْهُ.

فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ كَتَبَ الحَجَّاجُ إِلَى عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ وَيُخْبِرُهُ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ وَضَعَ البِنَاءَ عَلَى أُسٍّ نَظَرَ إِلَيْهِ العُدُولُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ المَلِكِ: إِنَّا لَسْنَا مِنْ تَلْطِيخِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي شَيْءٍ أَمَّا مَا زَادَ فِي طُولِهِ فَأَقِرَّهُ وَأَمَّا مَا زَادَ فِيهِ مِنَ الحِجْرِ فَرُدَّهُ إِلَى بِنَائِهِ وَسُدَّ البَابَ الَّذِي فَتَحَهُ. فَنَقَضَهُ وَأَعَادَهُ إِلَى بِنَائِهِ.

وعند مُسلم[(١)] أيضًا: وَفَدَ الحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَلَى عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي خِلاَفَتِهِ فَقَالَ عَبْدُ المَلِكِ: مَا أَظُنُّ أَبَا خُبَيْبٍ - يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ - سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ مَا كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهَا. قَالَ الحَارِثُ: بَلَى أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْهَا. قَالَ: سَمِعْتَهَا تَقُولُ مَاذَا؟ قَالَ: قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ قَوْمَكِ اسْتَقْصَرُوا مِنْ بُنْيَانِ البَيْتِ وَلَوْلاَ حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِالشِّرْكِ أَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ فَإِنْ بَدَا لِقَوْمِكِ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمِّي لأُرِيَكِ مَا تَرَكُوا مِنْهُ**». فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ.

وعَنْ أَبِي قَزَعَةَ[(٢)] أَنَّ عَبْدَ المَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ بَيْنَمَا هُوَ يَطُوفُ بِالبَيْتِ إِذْ قَالَ: قَاتَلَ اللهُ ابْنَ الزُّبَيْرِ حَيْثُ يَكْذِبُ عَلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ يَقُولُ: سَمِعْتُهَا تَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ لَنَقَضْتُ البَيْتَ حَتَّى أَزِيدَ فِيهِ مِنَ الحِجْرِ فَإِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرُوا فِي البِنَاءِ**». فَقَالَ الحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ: لاَ تَقُلْ هَذَا يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فَأَنَا سَمِعْتُ أُمَّ المُؤْمِنِينَ تُحَدِّثُ هَذَا. قَالَ: لَوْ كُنْتُ سَمِعْتُهُ قَبْلَ أَنْ أَهْدِمَهُ لَتَرَكْتُهُ عَلَى مَا

---

(١) برقم (١٣٣٣).

(٢) نفس الحديث السابق.

بَنَى ابْنُ الزُّبَيْرِ.

فَهَذَا الحَدِيثُ كَالمَقْطُوع به إلى عَائِشة، لأَنَّهُ قَد رُوِي عَنْهَا مِن طُرُقٍ صَحِيحَةٍ مُتعدِّدَةٍ، عَنْ الأَسْوَد بن يَزِيدَ، والحَارِث بن عَبْدِ الله بنِ أَبِي رَبيعَةَ، وعَبْدِ الله بنِ الزُّبَيرِ، وعَبْدِ الله بن مُحَمَّد بن أبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق، وعُرْوَة بن الزُّبَير. فَدَلَّ هَذَا على صَوَاب مَا فَعَلَهُ ابن الزُّبَير. فَلَو تُرِك لَكَانَ جَيِّدًا.

ولكِن بَعد مَا رَجَعَ الأمْرُ إلى هَذَا الحَالِ، فَقَد كَرِهَ بَعْضُ العُلَمَاءِ أنْ يُغَيِّر عَن حَالِهِ، كَمَا ذُكِرَ عَن أَمِيرِ المُؤمِنِين هَارُون الرَّشِيدِ -أو أَبِيه المَهدِيّ - أنَّهُ سَأَلَ الإمَامَ مَالكًا عَن هَدْم الكَعْبةِ ورَدِّهَا إلى مَا فَعله ابن الزُّبَير. فَقَال لَهُ مَالكٌ: يَا أَمِيرِ المُؤمِنِينَ، لَا تَجعَل كَعْبَة الله مَلْعَبَةً لِلمُلوكِ، لا يَشَاءُ أحَدٌ أن يَهدِمهَا إلَّا هَدَمهَا. فَتَرك ذَلِكَ الرَّشيدُ. نَقَلَهُ عِيَاضُ والنَّوويُّ، ولا تَزَالُ - والله أعلم - هَكَذَا إلى آخِرِ الزَّمَانِ، إلى أن يُخرِّبَها ذُو السُّويقَتَيْنِ مِن الحبشة، كَمَا ثَبتَ ذَلِكَ فِي الصَّحيحَين عَن أَبِي هُريرةَ قال: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**يُخَرِّبُ الكَعبَةَ ذُو السُّوَيقتَيْنِ مِن الحَبَشَة**»[١].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا**»[٢].

وهَذَا - والله أعلم -إنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ خُرُوجِ يَأجُوجَ ومَأجُوجَ، لِما جَاءَ فِي صَحِيح البُخاريِّ عَنْ أبِي سَعِيدٍ الخُدري - رَضِي اللهُ عَنْهُ - قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**لَيُحَجَّنَّ البَيْتُ ولَيُعْتَمَرَنَّ بَعد خُرُوجِ يَأجُوج ومَأجُوج**»[٣].

وقَولُهُ تَعَالى حِكايَةً لِدُعاءِ إبرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ عَلَيهما السَّلامُ: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٨].

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ: يَعنِيَانِ بِذَلك وَاجْعَلنَا مُسْتَسلِمَيْنِ لأمْرِكَ، خَاضِعَينِ لِطَاعَتِكَ، لَا نُشْرِكُ مَعَك فِي الطَّاعَةِ أحدًا سِوَاكَ، ولا فِي العِبَادَةِ غَيرَكَ. وهَذَا الدُّعاءُ مِن إبْرَاهِيم

(١) البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٩٣).

وإسْمَاعِيل، عليهما السَّلام، كَمَا أخْبَرَ الله تعالى عَن عِبَادهِ المُتَّقِين المُؤمنين، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] . وهَذَا القَدْرُ مَرغُوبٌ فِيهِ شَرعًا، فإنَّ مِن تَمام محبَّة عِبَادَة الله تَعَالى أنْ يُحِبَّ أنْ يَكُون مِن صُلبِهِ مَن يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ولِهَذَا لما قَالَ الله تَعَالى لإبْرَاهِيم عليه السَّلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قَالَ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وهُوَ قَولُهُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] .

وقَدْ ثَبتَ في «صَحِيح مُسلم»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِي اللّـهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ ابنُ آدم انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ عن عطاءٍ: أخْرِجْهَا لَنَا وعَلِّمْنَاها .

وقال مجاهد ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ مَذَابِحنَا» ا.هـ[1].

عباد الله ...

هذه قصّة بناء البيت، وقصة هدمه ورفعه.

فاستمتعوا - عباد الله - بهذا البيت قبل أن يُرفع.

عطِّروا أقدامكم بالطواف حول البيت، والسَّعي بين الصَّفا والمروة، قدِّموا أموالكم ليوم ميعادكم.

وفَّقني الله تعالى وإيَّاكم لِما يُحبّ ويَرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

***

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٢ - ١٧٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

لما بنى إبراهيمُ عليه السَّلام البيت، قال له رَبُّه سُبْحَانَهُ وتعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «وهذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عَن إبراهيم، حيث قال في دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد مِن أهل الإسلام إلَّا وهو يَحِنُّ إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار» ا.هـ[١].

ومن العجيب؛ موتُ كثير من المسلمين من الميسورين دون أن يحجّوا، مع استطاعتهم.

ومن العجيب كذلك: أن كثيرًا من المسلمين ممن لا يزالون على قيد الحياة من أهل اليسار والقدرة لا يفكّرون في أداء فريضة الحج قبل أن يحول الموت بينهم وبين ذلك!!

ألم يعلم هؤلاء أن الحج فريضة العُمر، وختام الأمر؟!

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: «هَذِه آية وُجُوب الحَجِّ عِنْدَ الجُمهُور. وقَدْ وَرَدَت الأحاديثُ المُتعدِّدَةُ بِأَنَّهُ أحَدُ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ ودَعَائِمِهِ وقَواعِدِهِ، وأَجْمَعَ المُسلِمُون على ذَلِكَ إجْمَاعًا ضَرُوريًا، وإنَّما يَجِبُ على المُكلَّفِ في العُمْر مَرَّةً وَاحِدةً بِالنَّصِّ والإجْمَاعِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الحَجَّ فَحُجُّوا**». فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَسَكَتَ حَتَّى

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٤).

قَالَهَا ثَلاَثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**» ثُمَّ قَالَ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**»[١].

وفي الصَّحيحَين عَن سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ مُتْعَتَنَا هَذِهِ أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِلأَبَدِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ هِيَ لِلأَبَدِ**»[٢].

وأمَّا الاسْتِطاعةُ فأقسامٌ تَارةً يَكُونُ الشَّخصُ مُستطِيعًا بِنَفسهِ، وتَارةً بِغَيرِهِ، كَمَا هُوَ مُقرَّرٌ في كُتُبِ الأَحْكَامِ» ا.هـ[٣].

فحجّوا - عباد الله - قبل أن تحجّوا، واعلموا أن الله تعالى أنزل المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

فعَنْ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قَالَ: كُنَّا نَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَيُحَدِّثُنَا، فَقَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَلَوْ كَانَ لاِبْنِ آدَمَ وَادٍ لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِ ثَانٍ، وَلَوْ كَانَ لَهُ وَادِيَانِ لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِمَا ثَالِثٌ، وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»[٤].

اللَّهُمَّ أعنَّا على ذكرك، وشُكرك، وحُسن عِبادتك

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧) بنحوه، وأحمد في «المسند» (٢/ ٥٠٨).

(٢) الحديث في «صحيح مسلم» (١٢١٨)، وليس في «الصحيحين».

(٣) «صحيح تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٠ - ٣٧٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨، ٢١٩)، والبيهقي (١٠٢٧٧) وغيرهما.

الخطبة الحادية والخمسون بعد المائة:

طرق النجاة مِن الفتن

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

إنَّ أَوْجَب ما يُتَوجَّب على المسلم - خصوصًا في هذا الزمان -: معرفة الفتن، وطرق النجاة منها، وهذا من سعادته:

فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إن السّعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إنّ السِّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا»[1].

وطرق النجاة من الفتن كثيرة منها:

١- الإيمان والتقوى:

قال تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني.

لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

والآيات في هذا المعنى كثيرة:

٢- التوكل:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. أي: كافيه.

٣- مجاهدة النفس في التّحلي بالفضائل والتّخلّي عن الرّذائل:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٤- الفرار من مواقعها:

فعن أبي سعيد، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُوشِك أن يكون خير مَال امْرئ مُسْلم: غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبال، ومواقِعَ القَطْر يفرُّ بِدِينه مِنَ الفِتَنِ»[١].

٥- اعتزال أهلها:

فعن حذيفة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تكونُ فِتَنٌ على أبوابها دُعَاةٌ إلى النّار، فَأَنْ تَموتَ وأَنْتَ عَاضٌّ على جِذْل شَجَرةٍ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتْبَعَ أَحَدًا مَنْهُم»[٢].

٦- التَّثبُّت:

فعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم وَبزَمانٍ يُوشكُ أن يأتي، يُغَرَبَلُ النّاسُ فِيه غَرْبَلَةً، وَتَبْقَى حُثَالَةٌ[٣] مِنَ النّاسِ، قَدْ مَرَجْت[٤] عُهودُهُم وأَمَانَاتُهُم، فاْختَلَفوا، وكانوا هَكَذا» - وَشَبكَ بَيْن أَصَابِعِهِ - .

قالوا: كَيْفَ بِنَا يا رسولَ الله إذا كانَ ذلِكَ؟

قال: «تأخُذون بِما تَعْرِفُون، وَتَدَعُونَ مَا تُنْكِرُون، وَتُقْبِلُونَ على خَاصّتِكم، وَتَذَرُون

---

(١) أخرجه البخاري: (١٨٥٧)، وغيره.

(٢) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٣١).

(٣) حُثالة: الحثالة: الرّديء من كل شيء، والمراد أراذلهم.

(٤) مَرَجَتْ: اختلفت وفسدت.

أَمْرَ عَوامِكُم»[(١)].

٧- التَخلُّصُ من أَدَاة القتال:

فعن محمد بن مسلمة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنها ستكونُ فِتَنةٌ وُفُرقَةٌ واختلافٌ، فإذا كان كذلك، فَأْتِ بِسَيْفِك أُحُدًا، فَاْضِربْهُ حَتّى ينْقَطعَ، ثم اْجلِسْ في بيتك حتى تَأْتِيَكَ يَدٌ خَاطِئةٌ، أَوْ مَنِيَّةٌ قَاضِيَةٌ».

فقد وَقَعَتْ، وفعلتُ ما قال رسولُ الله ﷺ[(٢)].

قلت: وكان ﷺ مّمن اعتزل الفتنة، فلم يشهد «الجَمَل»، ولا «صِفَّيْن»، ولا غيرهما.

٨- التخلُّصَ مِن العَصَبيّة:

فالعصبية تَعْمى وتصم.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قاتل تَحْتَ راية عِمِّيَّةٍ[(٣)] يَدْعُو إلى عَصَبيَّةٍ، أَوْ يَغْضَبُ لِعَصَبيَّةٍ، فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ»[(٤)].

٩- المواظبة على الصّلوات، وَخُصوصًا صَلاة الصُّبْح:

فعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلّى الصَّبحَ فهو في ذِمَّة الله[(٥)] فلا تُخْفروا الله في عَهْده، فَمَنْ قَتَلَه، طَلَبه الله حتى يَكُبَّهُ في النّار على وَجْهِه»[(٦)].

١٠- تحمل الأذى عند قيامها:

فعن أبي موسى، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن بَيْنَ يدي السّاعة فِتنًا كَقِطع اللّيل المُظْلم، يُصْبحُ الرجلُ فيها مُؤمنًا وَيُمْسِي كافرًا، وَيُمْسِي مؤمنًا وَيُصْبح كافِرًا، القاعُد فيها خَيْرٌ من القائم، والماشي فيها خَيْرٌ من السّاعي، فَكسِّرُوا قسّيكُم[(٧)]، وَقَطِّعوا

---

(١) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢١١).
(٢) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه»(٣٢١٦).
(٣) عِمِّية: ضلالة.
(٤) رواه مسلم وابن ماجه.
(٥) في ذمة الله: في أمان الله وحفظه.
(٦) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٠٣).
(٧) قِسِيّكم: أقواسكم.

أَوْتَارَكم، واضْربوا سُيوفكم بالحِجَارَة، فإنْ دُخِلَ - يعني على أحَدٍ مِنكم - فَلْيَكُن كَخَيرِ ابْني آدم [(١)]»[(٢)].

١١- الاستعاذة بالله منها:

فعن زيد بن ثابت، قال: بَيْنَما النبيُّ ﷺ في حائطٍ لبني النّجار على بَغْلة له - ونحن معه - إذ حَأدت به، فكادت تُلْقيه، وإذا أَقْبر ستة أو خمسة أو أربعة - شَكّ الجريري[(٣)] - فقال: «**مَنْ يَعْرف أصْحَاب هَذه الأَقْبر؟**».

فقال رجلٌ: أنا.

قال: «**فمتى مات هؤلاء؟**».

قال: ماتوا في الإشراك.

فقال: «**إنّ هذه الأمّةَ تُبْتَلى في قُبورها، فَلَوْلاَ أنْ لاَ تَدافنوا؛ لدعوتُ الله أن يُسْمعَكم مِنْ عَذَابِ القَبْرِ الّذي أَسْمَعُ مِنْهُ**».

قال زيدٌ: ثمّ أقبل علينا بوجهه، فقال: «**تعوّذوا بالله مِنَ عذاب النار**».

قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار.

فقال: «**تعوّذوا بالله من عذاب القبر**».

قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.

فقال: «**تعوّذوا بالله من الفِتن ما ظَهَر منها وما بَطَن**».

قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قال: «**تعوّذوا بالله مِنْ فِتْنَةِ الدّجّال**».

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدّجّال[(٤)].

---

(١) يعني: كالعبد الصالح «هابيل» حين قال لأخيه: ﴿**لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك**﴾ [المائدة: ٢٨].

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود، وأحمد.

(٣) أحد رواة الحديث.

(٤) أخرجه مسلم (٨/ ١٦٠- ١٦١)، وأحمد (٥/ ١٩٠)، وغيرهما.

قال العلاّمة الألباني - رحمه الله -: «في هذا الحديث فوائد كثيرة، منها:

١- **إثبات عذاب القبر،** والأحاديث في ذلك متواترة، فلا مجال للشكّ فيها بزعم أنها آحاد !

ولو سلّمنا أنها آحاد، فيجب الأخذ بها؛ لأن القرآن يشهد لها. قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥- ٤٦].

ولو سلّمنا أنه لا يوجد في القرآن ما يشهد لها؛ فهي وحدها كافية لإثبات هذه العقيدة.

٢- **أن النبيّ ﷺ يَسْمَعُ ما لا يَسْمعُ الناس،** وهذا من خصوصيّاته عليه الصّلاةُ والسّلامُ.

٣- **إن سؤال الملكين في القبر حَقٌّ ثَابِتٌ،** فيجب اعتقاده أيضًا، والأحاديث فيه أيضًا متواترة.

٤- **إن أهل الجاهلية الذين ماتوا قَبْل بعثته عليه الصّلاةُ والسّلامُ مُعَذّبون بشركهم وَكُفْرهم،** وذلك يدلّ على أنهم ليسوا من أهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة نَبيٍّ؛ خلافًا لما يظنّه بعضُ المتأخرين، إذ لو كانوا كذلك، لم يستحقوا العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

٥- **إن فتنة الدجال فتنة عظيمة،** ولذلك أمر بالاستعاذة من شرّها في هذا الحديث ... وأحاديث الدّجّال كثيرة جدًّا، بل هي متواترة عند أهل العلم بالسُّنة. ولذلك جاء في كتب العقائد وجوب الإيمان بخروجه في آخر الزمان؛ كما جاء فيها وجوب الإيمان بعذاب القبر وسؤال الملكين» ا.هـ[1].

قلت: ومع هذا الوضوح في شأن «الدّجّال»، رأينا في هذا العصر من يقول: «إن المسيح الدَّجّال هو التليفزيون !!».

فهل التليفزيون أعور العين اليمنى؟!

(١) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٢٩٥ - ٢٩٦) باختصار.

وهل التليفزيون مكتوب بين عينيه «كافر» ؟!

وهل التليفزيون لا يدخل مكّة والمدينة، لأن الملائكة ستمنعه ؟!

وهل التليفزيون سيأمر السّماء فَتُمْطِر والأرضَ فتنبت ؟!

وهل التليفزيون سيخرج آخر الزمان من «خراسان»؟!

وهل التليفزيون سيحاصر المسلمين في بيت المقدس ؟!

وهل التليفزيون سيقتله عيسى ابن مريم ؟!

رحم الله الإمام ابن حجر حين قال: «إذا تكلّم المرءُ في غير فَنِّه، أَتَى بهذه العَجَائب».

ورحم الله الإمام ابن حزم حين قال: «لا آفة على العلوم وأهلها، أضرَّ من الدُّخَلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنّهم يَجْهَلون، ويظنّون أنّهم يَعْلَمون، ويفسدون وَيُقَدِّرُون أنهم يُصْلِحون!».

١٢- جواز الدُّعَاء بالمَوت عِنْدَ الفِتَن:

روى مالك، عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول: «**اللّهمّ إنيّ أسألُك فِعْلَ الخيرات، وتركَ المُنكرات، وَحُبّ المساكين، وإذا أردتَ في النّاس فِتْنَةً فاقْبِضني إلَيْك غَيْرَ مَفْتون**».

قال ابن وهب: وحدّثني مالك، قال: كان أبو هريرة يلقى الرّجل فيقول له: مُتْ إن اسْتَطَعْتَ !.

فيقول له: لِمَ؟

قال: تموت وأنت تدري على ما تموت خير لك من أن تموت وأنت لا تدري على ما تموت عليه.

قال مالك: ولا أرى عُمَر دَعَا ما دَعَا به من الشهادة إلا خاف التَّحَولّ من الفتن[1].

قلت: وقد تقدّم قولُ عليّ بن أبي طالب ﷺ يوم «الجَمَل»: «لَوَددتُ أني مِتّ قَبْل

---

(١) صحيح: رواه مالك.

هذا بعشرين سنة !».

والأحاديث والآثار في هذا المعنى كثيرة.

١٣- تَعَجّل التّوبة قبل حلول الفتن:

فعن زينب بنت أمّ سلمة عن أمّ حبيبة، عن زينب بنت جحش - رضي الله عنهنّ - أنها قالت: استيقظ النبيُّ ﷺ من النوم مُحْمَرًّا وجَهْهُ وهو يقول: «**لا إله إلاّ الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه** - وعقد سفيان تسعين أو مائة- » قيل: أَنَهْلَكُ وفينا الصّالحون؟ قال: «**نَعَم، إِذَا كَثُر الخَبَثُ**» [١].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «قال ابن بطّال: أنذر النبيُّ ﷺ في حديث زينب بقرب قيام الساعة كي يتوبوا قبل أن تهجم عليهم، وقد ثبت أن خروج يأجوج ومأجوج قرب قيام الساعة، فإذا فتح من رَدْمهم ذاك القَدْر في زمنه ﷺ لم يزل الفتح يتّسع على مَرّ الأوقات، وقد جاء في حديث أبي هريرة رفعه: «**ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، موتوا إن استطعتم**» [٢] . قال: وهذا غاية في التحذير من الفتن والخوض فيها حيث جعل الموت خيرًا من مباشرتها» ا.هـ [٣].

١٤- وجوب معرفتها:

فمعرفة الفتن، وأسباب ظهورها، وما يدور فيها، والأضرار المترتبة على الخوض فيها، يُعَدُّ أمرًا واجبًا، انطلاقًا من القاعدة الأصولية التي تقول: «ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب».

وعن أبي أدريس الخولاني، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «هذه فِتَنٌ قد أظَلّتْ كَجِبَاهِ البَقَر يهلك فيها أكثرُ الناس إلاّ من كان يَعْرِفها قَبْلَ ذلك» [٤].

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٩)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٢) صحيح.

(٣) «فتح الباري» (١٣/ ١٦).

(٤) صحيح موقوف: رواه نعيم بن حماد في «الفتن» برقم (٥) ، وله حكم الرفع ، لأن مثله لا يقُال من قِبَل الرّأي.

عباد الله ...

هذه بعض طرق النَّجاة مِن الفتن، وسيأتي المزيد بعد قليل - إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن طرق النَّجاة من الفتن:

١٥- التزام جماعة المسلمين:

فعن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكون دعاةٌ على أبواب جَهَنَّم مَنْ أَجَابَهم إليها قَذَفُوه فيها**».

قلت: يا رسول الله، صِفْهم لنا.

قال: «**هم قومٌ مِنْ جِلْدَتِنا، يتكلّمون بألسَنَتِنا**».

قلتُ: فما تأمُرُني إن أدرَكَني ذلك؟

قال: «**فالزَمْ جَماعةَ المسلمين وإمَامَهُم، فإن لم يكون لهم جماعةٌ ولا إمامٌ، فاْعَتزِلْ تِلْك الفِرقَة كُلَّها، ولو أن تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرةٍ حَتىَّ يُدْرِكَكَ الموتُ، وأنْتَ كذلك**»[1].

وقد ورد الأمر بلزوم جماعة المسلمين في أحاديث كثيرة، وكذلك ورد النَّهي عن مفارقتها في أحاديث كثيرة.

قال الشيخ **عبد السلام بن برجس** رحمه الله تعالى ما مختصره: «الجماعة الواردة في الأحاديث هي جماعة المسلمين الذين لهم إمامٌ ظاهر - يعني له شوكة - فمن خرج على الإمام الذي بايعه المسلمون فقد لحق الوعيد الشديد في الخارج عن الجماعة».

قال **ابن جرير الطَّبريّ** رحمه الله: «والصواب أنَّ المراد من الخبر بلزوم الجماعة: الذين

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه.

في طاعة مَن اجتمعوا على تأميره، فمن نكث عن بيعته خرج عن الجماعة» ا.هـ.

وفي هذا الزمن الذي تعدَّدت فيه الدول، فإن جماعة المسلمين تتمثّل في الحكومة الإسلامية التي تحكم قُطرًا من أقطار المسلمين.

فحكومة المملكة العربية السعودية هي جماعة المسلمين في هذا القُطْر، يجب أن تُطاع في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، ويحرُم الخروج على إمام المسلمين فيها، وهكذا يُقال عن بقيَّة الحكومات الإسلامية، فمن خرج عليه فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، فإن مات فميتته جاهلية، ويلقى الله يوم القيامة ولا حجّة له، وجزاؤه في الدنيا أن يُضرب عنقه بالسيف» ا.هـ[١].

هذا، ومَن غلب فتولّى الحكم واستتب له، فهو إمام تجب بيعته وطاعته - يعني في الطاعة دون المعصية- وتحرم منازعته ومعصيته، ولو كان فاسقًا جائرًا.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقد أجمع الفقهاءُ على وجوب طاعة السلطان المتغلِّب، والجهاد معه، وأن طاعته خيرٌ من الخروج عليه، لِما في ذلك من حَقن الدِّماء وتَسكِين الدَّهْمَاءِ» ا.هـ[٢].

وقد حكى الإجماع - أيضًا - شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فقال: «الأئمة مجمعون من كلّ مذهب على أن من تغلَّب على بلد أو بلدان له حكم الإمام في جميع الأشياء» ا.هـ[٣].

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ -رحم الله الجميع- : «وأهل العلم متفقون على طاعة مَن تغلَّب عليهم في المعروف، يرون نفوذ أحكامه، وصحّة إمامته، لا يختلف في ذلك اثنان، ويَرَون المنع من الخروج عليهم بالسيف، وتفريق الأُمّة، وإن كان الأئمة فسقة، ما لم يروا كفرًا بواحًا.

---

(١) «الأمر بلزوم الجماعة وإمامهم» للشيخ عبد السلام بن برجس (٦٩ - ٧١) باختصار، وهو كتاب مهم في بابه.

(٢) «فتح الباري».

(٣) «الدرر السّنية في الأجوبة النجدية» (٧/ ٢٣٩).

ونصوصهم في ذلك موجودة عن الأئمة الأربعة وعندهم، وأمثالهم ونظرائهم» ا.هـ[١].

عباد الله ...

هذه بعض الأسباب المنجيّة من الفتن المُرديّة، فعضّوا عليها بالنواجذ، نجاني الله تعالى وإيَّاكم مِن الفتن ما ظهر منها وما بطن.

(١) «معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة» للشيخ عبد السلام بن برجس(٢٧، ٢٨)، والكتاب مهم في بابه.

الفهرس


دار التوفيقية للتراث